«رواية»

المؤلف الحائز
على جائزة غيورغ بوشنر
عام 2007

أمير الضباب

مارتين موزباخ



ترجمة : كاميران حوج

نبذة عن المؤلف:

ولد عام 1951 في مدينة فرانكفورت على نهر الراين وأنهى فيها دراسته. عضو الأكاديمية الألمانية للشعر واللغة، أكاديمية بافاريا للفنون الجميلة وأكاديمية برلين للفنون.

له أكثر من عشرين مؤلفاً بين الشعر والرواية والمسرح والنقد، منها السرير (رواية 1983)، اللحية الزرقاء (مسرحية 1985)، فيستِنده (رواية 1992)، كتاب المخدة (شعر ورسوم 1995)، التركية (رواية 1999)، أمير الضباب (2001)، الزلزال (رواية 2005)، الآداب الجميلة (مقالات 2006)، القمر والفتاة (رواية 2007)، ما حدث قبل هذا (رواية 2010).

حاز منذ عام 1980 عدداً كبيراً من الجوائز الأدبية، منها جائزة المجمع الأدبي الجديد في هامبورغ عام 1984، جائزة هاينريش فون كلايست عام 2002، جائزة الأدب لأكاديمية بافاريا للفنون الجميلة 2006، جائزة غيورغ بوشنر 2007، وكان اسمه على اللائحة القصيرة لجائزة الكتاب الألماني عام 2007.

نبذة عن المترجم:

كاميران حوج من مواليد عام 1968 تل عربيد بسوريا. صدرت له ترجمات أدبية عديدة، بينها الاس اس (غيدو كنوب) 2005، إمبراطورية جورج بوش (جيمس هوتفيلد) 2005، نظريات المؤامرة (ماتياس بروكرز) 2005، في خطو السرطان (غونتر غراس) 2006، أعمال باتريك سوزكند 2007، مسح العالم (دانييل كيلمان) 2009، هذا الجسد (كريستا فولف) 2009، بحر أكثر (إلما راكوزا) 2010، جهات الغرب (ميشائيل كولماير) 2011، ضمير الكلام (إلياس كانيتي) 2011.

مارتين موزباخ

(رواية)

أمير الضباب

ترجمة: كاميران حوج

مراجعة: د. مصطفى السليمان

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

PT2673.O6974 N4312 2001
Mosebach, Martin, 1951-
[Der Nebelfürst]
أمير الضباب: رواية / تأليف مارتن موزباخ؛ ترجمة كاميران حوج؛ مراجعة مصطفى السليمان.
– أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
ص 339 : 14×21 سم.
ترجمة كتاب: Der Nebelfürst: Roman
تدمك: 978-9948-01-989-3
النص الأصلي حائز على جائزة غيورغ بوشنر عام 2007.
أ-حوج، كاميران. ب-سليمان، مصطفى.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Martin Mosebach
Der Nebelfürst
Originally published in Germany under the title «Der Nebelfürst» by Eichborn Verlag.

www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

أمير الضباب
(رواية)

المحتويات

-1-

الدروشكا تكبح، السيدة تسقط

ما أن تبتعد عدة خطوات عن حضن الأهل والحي، حتى تكون كمن جاب أقطار العالم الرحب.. الهجرة كلمة جميلة، تثير الخيال، إلا أن تيودور لِرنَر، ونظراً لحظه العاثر، ليس من مواطني إنجلترا الذين يقطعون الآفاق. فقد كانت الدنيا كلها مفتوحة في وجه هؤلاء، أو كانوا يسودون نصفها على الأقل. لكن هناك أقطاراً أخرى في العالم، اسمها الأرجنتين حيث تتم تربية الأبقار، والبرازيل حيث تتم زراعة البن، وكذلك بنما حيث يمكن افتتاح شركة ملاحة. آخرون يجربون حظوظهم في روسيا، ويتاجرون بالسكر والنيلة. كل هذه المغامرات تتحول بسرعة البرق إلى أكداس من الذهب. وحين يعود المخاطرون إلى الوطن، يقطنون مدن فيسبادِن وغودِسبِرغ في قصور ذات أبراج وجنائن واسعة، ويريحون أبصارهم المرهقة بالتجوال والمغامرات بإطلالة على مناظر نهر الراين الهادئة.

رأى تيودور لِرنَر أنه يتقن الكتابة. وبما أن آفاق الدنيا الرحبة مسدودة في وجهه، فقد يكتفي بأن يصبح كاتب رحلات. فكتاب الرحلات يمتطون ظهور الأفيال لصيد النمور، ويدوّنون أوراقهم على بصيص السراج الخافت. ويرفع لهم القراء في الوطن أسمى آيات الإجلال والإكبار. الجميع يقرأ كتب المغامرات ببالغ الاحترام، حتى ابن العم

فالنتين نويكيرش، مدير المناجم الحصيف، الذي لا يفتأ يتهم لرنر ببناء قصور من الرمل. في هذه الأثناء كان تيودور لرنَر يدبِّر أمور معيشته بكتابة المقالات لصحيفة برلين المحلية. فهيئة التحرير تكلفه بين الوقت والآخر بالكتابة عن الحرائق. وعليك أن تأخذ كلمة الحرائق حرفياً. فقد أنجز لرنر حتى الآن، وصف أحد عشر حريقاً. في البداية كانت هذه المهام مغامرة شائقة تشفي الغليل، إذ يقف الصحفي بين الجموع فاغرة الأفواه على قدمين متجمدتين، بينما ألسنة اللهب تندلع، والشرر يتطاير.. يسقط لوح خشبي من السقف.. تقف امرأة في النافذة مولولة في ثوب النوم وترمي طفلها على البساط الذي يمده رجال الإطفاء. نالت تقارير لرنر المبهرة، إعجاب هيئة التحرير التي اعتبرته خبيراً في مجال الحرائق. فهل عليه أن ينتظر احتراق برلين عن بكرة أبيها حتى يكلف بمهمة أخرى؟

لم يكن رئيس التحرير، المتقلب في نار القلق على مصير جريدته يصغي إلى لرنر، فأعداد الجريدة تكسُد. «نحتاج خبطاً صحفياً، يجعل القراء يتخاطفون الجريدة».. دمدم الرجل الأنيق، الذي لا تليق بوجهه الهموم. فقد اختير للتو «أجمل رجل في حفلات باليه الصحافة في برلين». بعد أن تخللت اللجنة النسائية خصومات كثيرات.

سأل رئيس التحرير: «هل تعرف أين المهندس آندريه؟» ولرنر محتار في أمره ولا يجد جواباً. إذ كان المهندس آندريه قد انطلق قبل ثلاثة أشهر في رحلة بمنطاد من نمط مونغولفييه راغباً في الطيران فوق القطب الشمالي.

«وكيف سيتعرف عليه من الأعلى؟»، سأل لرنر كمن يتخيل وجود مسلة جميلة في القطب الشمالي، أو هرم مبني من قطع الجليد. فعلى لوحات عبور نابليون لمضيق «سانت بيرنهارد» يظهر لوح حجري كتب عليه «هانيبعل» يرتمي مذلولاً تحت سنابك الجواد المحمحم. فهل توجد في القطب الشمالي أيضاً لقية أثرية، ربما تركتها قبائل الاسكيمو أو الفايكينغ؟.

«أنت فعلاً تقطِّع القلب».. قال رئيس التحرير ذو الشارب المخطوط باللون الفضي. كان لرنر يعرف حيلة لا تخيب. عندما كان يخشى افتضاح جهله بشيء ما، وهو يدلي بملاحظة عنه، تدل قسماته على روح الفكاهة العالية لديه، فهو يحدس متى تهتز الأرض تحت قدميه.. التفت رئيس التحرير في هذه اللحظة إلى أمر آخر.

«لا، قل للسيدة إنني لا أستطيع استقبالها الآن»، قال لسكرتيره الذي ترك الباب المؤدي إلى الحجرة الأمامية مفتوحاً. في الخارج شاهد لرنر ظل امرأة طويلة القامة، ترتدي قبعة أثرياء، ضخمة الصدر، وعلى جسمها ثوب يأخذ حيزاً كبيراً في المكان.. ظلها وحده يوحي بمكانتها العالية. في ميناء الحجرة الأمامية، رست سفينة ذات خمس صوار. استغرب لرنر من رفض الرجل مثل هذه الزيارة.

«هذه المرأة تأتيني كل يوم بمواد عجيبة.. تريد بيع مراسلات فضائحية، مذكرات جواسيس روس، ورسائل غرام تبادلتها أعلى الشخصيات، لكن موادها إما أن تكون باهظة الثمن، أو ليست بين يديها، أو ليست قانونية. وكل ما أريده الآن هو مقال عن المهندس

آندريه في جريدتي».

سأل لرنر: «وكيف تكتب عن إنسان ضائع؟ السمة الأولى للضائع أنه ذهب، ولا أحد يعرف أين هو. لقد اجترّت كل الجرائد سيرته واستعداداته للرحلة أكثر من مرة، وهو الآن ضائع بكل بساطة».

هل هناك في العالم أرض سائبة، أو أرض لا يملكها أحد ولا تصلها درب، وربما ليس لها فوق وتحت؟ تعبر حدوداً، سوراً ضبابياً، وتسقط فجأة إلى قاع سحيق، في عاصفة ثلجية كمسحوق أبيض، لا ترى شيئاً خلالها، ولكنها تظل منيرة كيوم شتائي مضبب؟ ألا يفترض أن تكون هذه الأرض السائبة، مجهولة الحدود أيضاً؟

«يجب البحث عن آندريه»، قال رئيس التحرير. وقد سبقه بعضهم في هذا وانطلقوا للبحث عنه. لقد كانوا أكثر حكمة منه، فلم يلحقوه في حماقته على طريق الجو، بل ذهبوا في رحلة البحث عن زحافات تجرها الكلاب. هكذا تم التقاط الصور لهؤلاء الأبطال الشجعان، وهكذا ظلوا في ذاكرة القراء. وهم ضاعوا بدورهم، وعلى الرغم من أن هذه القصص شائقة، إلا أنها لا تمد الصحافة بالمادة الكافية. فهي تبدأ بخبر مثير، ثم تعدم الأخبار التالية. أغلب الظن أن بعثة إنقاذ المهندس آندريه لن تأتي بأكثر من مزق قماش المنطاد. فقد سقط الرجل في عرين دببة القطب ولن يقيم له أحد ضريحاً، تماماً كما لم ينصب أحد مسلة على القطب الشمالي.

«نعم، يا لرنر، اعرف لي مكان آندريه.. أبحث عن آندريه»، كان هذا تعبيراً عن ثورة المرارة، مسرحية هزلية لاذعة، يمثلها رئيس التحرير.

كما فهم لرنر هذه الكلمات على أنها شكوى. فرئيس التحرير يود أن يلمّح إلى أنه لا طائل منه البتة، وربما كان جديراً بالعمل اليومي الرتيب، الذي يستطيع أداءه المئات غيره، ولكنه لا يقدر على معجزة ينقذ بها الجريدة. كان رئيس التحرير يعتبر هذه الثورات درساً تربوياً، يثير همة البعض، ويضع البعض الآخر في إطار إمكاناته. أطل السكرتير معلناً أن حريقاً نشب في معمل الانيلين في حي تريبتوف. إشارة واحدة من رئيس التحرير، كانت كافية ليخرج لرنر من المكتب، وينطلق على الطريق إلى مكان الحادث.

كانت السماء تمطر. ولحسن الحظ وجد «دروشكا» واقفة أمام باب الجريدة. ونتيجة للزخة المطرية العاصفة، تداخلت حركة المرور واختنقت، وتدافعت العربات الآلية مع الدروشكات، والناس يتراكضون بين العربات لقطع الشارع إلى الناحية الأخرى. سالت المياه على زجاج العربة الأمامي. ما أن جلس لرنر في العربة، وما أن تحركت الـ«دروشكا»، حتى ظهر هيكل عملاق من الطوفان، ارتطم بالزجاج الأمامي، ثم ترنح وسقط على الأرض.

خرجت من فم السائق شتيمة مقذعة، ومرعبة. كبح.. قفز لرنر إلى الخارج. وجد أمام العربة، سيدة تتخبط في بركة ماء، والقبعة العالية مازالت على رأسها الكبير، لكنها منحرفة عن مكانها. المظلة طارت من يدها، وتدحرجت وسط الشارع.

«أنا بخير»، قالت السيدة بصوت تملؤه القوة والثقة وهي ترفع ناظريها إلى منقذها. ساعدها على النهوض.. لقد كانت ثقيلة، لكنها خففت عليه

ولم تدعه يشعر بثقلها قدر الإمكان. ضلعت السيدة قليلاً عندما رافقها إلى العربة. سألها عما إذا كانت تود إيصالها إلى عنوان ما، معقبا أنه على الطريق إلى تريبتوف، حيث شب حريق في معمل الأنيلين.

«معمل الأنيلين؟» سألت السيدة مبدية استغرابها، وهي تعدل قبعتها على رأسها. بينما جاء الحوذي بالمظلة المشربة بالماء. ثم أضافت: «أطفأوا نار معمل الأنيلين. كان إنذاراً كاذباً، أليس كذلك؟». قالت السيدة جملتها هذه متوجهة إلى السائق، الذي لم يغلق باب العربة بعد.

رد عليها الرجل عابساً: «أنا لا أعرف شيئاً». هذه ليست حالة نادرة، يؤكد فيها إعلان. عدم المعرفة على زعم. تيقن جميع من في جوف العربة أنه ما من حريق في تريبتوف، إذ لم ينشب حريق أصلاً. في دفء العربة انتشر عطر ينبعث من شعر السيدة وثيابها، رائحة الورد والقرفة. لم تعد في ريعان الشباب، رغم أن وجهها غض ونضير مثل وجه شابة، كما أن عينيها صافيتان وحيويتان.

العربة لم تتحرك بعد من مكانها.. ردت السيدة على سؤاله: أين أسكن؟! هذه هي المشكلة، فقد وصلت للتو إلى برلين، تلبية لدعوة من أصدقاء (قالت: «ربما تعرفون السيد ضابط الفرسان بيبلَر؟») وعندما طرقت على الباب، لم يفتح لي أحد، لسبب من الأسباب. وهكذا كانت ضحية لرنر (فحادثة يتسبب فيها السائق تدخل دائماً في حساب السيد الموقر)، جالسة معه، وعليها البحث عن سكن بكاحل متضرر. لم تنطق بهذه العبارة. هذه السيدة لا تتذمر ولا تشكو.. إنها تشرح وضعها بكل بساطة كما هو.

من يستنجد بفروسية لرنر لن يخيب ظنه قط. كان لرنر صاحب نخوة ومروءة.. بالأحرى يود أن يكون كذلك، فهو يحب أن يرى نفسه فارساً نبيلاً منقطع النظير، وها هي الفرصة سانحة، والسيدة تعرف كيف تقدِّر هذه الروح، ولو ظهرت منها لمحة خفيفة.

«أين أذهب الآن؟»، سأل السائق عابساً ونافخاً صدره.

أُمِر بالذهاب إلى حي فيلمرسدورف.. إلى بنسيون «تانِنتسابفِن»، حيث يقطن لرنر منذ أربعة أسابيع وفرغت لتوها غرفة، بعد أن تزوج قاطنها لأمد طويل.. الضابط ريشتر، المشارك في حرب 1871، في أرذل العمر.

قالت المؤجرة للرنر: «في هذا البنسيون يتزوج الجميع، الشيوخ الخرفون كلهم.. أنت أيضاً ستضيع مني في يوم من الأيام». وهكذا جلسا إلى حفلة شاي صغيرة على الطاولة في الغرفة التي هجرها الضابط ريشتر. قبل أن تتم تهويتها بشكل كامل تحت النسخة الزيتية من لوحة ليوناردو دافنشي «العشاء الرباني الأخير» كان الضابط قد نزع البطاقات البريدية التي توجد عليها صور فتيات أنصاف عاريات.

تعارف الجالسون.. أبدت السيدة بالغ الاهتمام بنشاطات لرنر الصحفية قائلة: إنها لا تستطيع الحياة دون جريدة، فهي تلتهم الجرائد التهاما. كان صوتها دافئا، وكانت رشيقة رغم أنها سمينة. ينتشر حولها تافتا بني. الشعر الرمادي غزير، ويبدو كشعر مستعار كما في عصر روكوكو، وعلى النقيض منه تماماً، كان الوجه غضاً ونضراً كوجه طفلة. بالنسبة إلى ذوق لرنر كانت ثقيلة جداً وعجوزاً جداً، لكن الغريب أن

دور هذه الصفات اختفى فجأة. لم تكن متدلّعة، أو متصابية بأي شكل من الأشكال.

«إنها طبيعية جداً».. فكر لرنر في خياله. وعلى حين غرة صارت كلمة «طبيعي» تحتمل أكثر من معنى عادي وأحالت الذي كان مستحيلاً قبل قليل إلى مجال المحتمل. وكان الانزلاق إلى قبلة طويلة سلساً مثل متابعة رقيقة للحديث.

تلمست يدا لرنر جسمها.. تمكن من فك مشبك معقد.. طار الخطاف جانباً كأنه فتح وحده. تحسس بأصابعه جلدها الناعم والطري مثل صفار البيض المائج في كأس.

استلقت يدها على مرفقه ودفعته بقوة حازمة، لكنها حنونة.

قالت السيدة هانهاوس: «إننا متفقان روحياً، لكن لنترك هذه الأشياء للمستقبل. عندي أفكار أهم لك. وهذه الأشياء الجانبية تخرب الصفقات العملية غالباً من دون داع». قالت كل هذا بحنان.. بحزم وبابتسامة ودودة. وهذه الابتسامة كانت معبراً جميلاً، شكرها عليه لرنر. فقد كان للقبلة طعم فاتر نوعاً ما.. لم يزعجه في لحظتها، لكنه كان سيزعجه لو أنها استمرت أطول. عندما رافقته إلى الباب وطبع قبلة الوداع على يدها، رأى ظلها في ضوء الشمعة، وظلام الغرفة.

فكر لرنر في غرفته. «هل هي السيدة التي كانت في مكتب رئيس التحرير؟» هل من الممكن أن يتشابه ظلان إلى هذا الحد؟ فجأة دخلت السيدة هانهاوس حياته. فجأة؟ ربما كانت موجودة منذ الأزل، في الخفاء، وتحدد متى سيفتح الآخرون عيونهم عليها، ثم ظهرت فجأة.

-2-

وجبة فطور في بنسيون «تانِنتسابفِن»

كانت للسيدة هانهاوس سمات الأمومة، بل كانت أماً حقيقية. بعد قضاء ليلتها الأولى في بنسيون تانِنتسابفِن تبين أنها لم تكن وحيدة حقاً في برلين، رغم تهرب ضابط الفرسان بيبلَر منها في غروينفالد، بل إن الوحيد الذي قضى ليلته معزولاً في برلين هو ابنها، إلاّ أنه نظراً لقوة الانطباع الذي أججه وجودها لم تجد الأسئلة المخفية أجوبة، ولم يعد آل بيبلر.. الأعيان بكل ثروتهم وقصورهم وعلاقاتهم المتشابكة، يلعبون أي دور. من دون أي حقد أو ضغينة عليهم، مُسِح اسم هؤلاء الناس من جدول الحديث مؤقتاً وأُبعِد قصر غروينفالد من الوجود، لتحل محله غرفة في الجناح اليساري للطابق الرابع من بنسيون تانِنتسابفِن.

كانت السيدة غرانتسوف- مؤجرة البنسيون- طيبة القلب، لا تبيّت شكاً، ولا تخاصم نزلاءها ولا تصنفهم في درجات قد تؤذي مشاعرهم. دعمت السيدة هانهاوس ببضعة من مستحضرات التجميل، فلم تكن هذه قد اصطحبت شيئاً سوى حقيبة يد صغيرة. إطلالتها القوية والآمرة، بشعرها الغزير وتافتاها البني، توحي بأن سيدة مثلها تسافر عادة مصطحبة حقائب كثيرة تملأ خزانة كاملة. في الصباح لم تبدُ رثة إطلاقاً على غرار الذين ينامون في أشيائهم القليلة، بل خرجت من غرفتها مصففة شعرها في برج. كانت السيدة غرانتسوف قد أدت خدمات جليلة. وفي هذه الأثناء دخلت السيدتان في حديث جعل

السيدة غرانتسوف خادمة طيعة، بينما يدها مليئة بالدبابيس التي تثبت بها أمواج شعر السيدة العالية.

وخلال تصفيف الشعر، لقنتها السيدة هانهاوس درساً مفاده: «الكثير من الناس يقومون خطأ بتركيز اهتمامهم على الأغنياء وأصحاب المراكز العليا، كي لا يوزعوا خيراتهم على الفقراء البائسين، إذا كان الوقت وقت توليد انطباعات قوية لدى أصحاب الأمر والنهي. أما أنا فأقول: إن هؤلاء الناس لا يملكون فتات أي خيرات. يكسب أحدنا المعارك.. أعني معارك الحياة، إذا تمكن من جذب السعاة إلى صفه باعة التبغ، الندل، الخياطات، معالجي الأسنان، ومديرات البنسيونات. كثيراً ما يقول أحدهم: أنا أعرف المحافظ ويفشل في المرور بحارس بسيط على الباب».

بعد تصفيف الشعر، بدأت السيدة غرانتسوف وشغالاتها الساخطات بترتيب أثاث الغرفة، كما تفعل السيدة هانهاوس في كل مكان تحل فيه ولو لفترة وجيزة. استيقظ لرنر على أنين قوي صادر من أعماق صدر معذب، يرافقه غناء، وضجيج سماوي. كان هذا صوت الخزانة الكبيرة ذات المرآة، التي تزاح من مكانها بجانب السرير إلى الجدار الآخر.

«هل تشعرين الآن بالسعة والرحابة وجمال الأثاث، حين ننزل لوحة دافنشي قليلاً، وننزيل لوحة فان غوخ «السعادة أخيراً» عن الجدار كليا؟ اعلمي أنني لا أصدق أن السعادة تأتي في آخر العمر، فكل دقيقة نقضيها في انتظارها، مضيعة للوقت».

«أهذا رأيك؟» تنهدت السيدة غرانتسوف. فقد لمست السيدة هانهاوس شغاف قلبها، ولكنها كانت تفعل هذا دائماً كطبيب ماهر، يؤلم، ولكنه يطبب في الآن ذاته.

عندما جاء لرنر لتناول الفطور، المغطى على منضدة في غرفة طولانية أمام المطبخ، رأى على الطاولة التي يتراكم عليها الفتات، وفناجين القهوة المستخدمة، غير المثيرة للشهية، عدداً من الجرائد التي تصدر في برلين.

«حريق هائل في تريبتوف»، قرأ لرنر في جريدة «ساعي البورصة»، «ألسنة اللهب تأتي على معمل الأنيلين»، قرأ في جريدة «بريد اليوم»، «انفجار في تريبتوف» قرأ في جريدة «فوس» أما في جريدة «برلين المحلية»، فقد جاء عنوان: «هل ينوون توسيع حديقة الحيوان في برلين؟»

تصفح لرنر الجرائد بسرعة، وقلب ما قرأه كل تصوراته حول الواقع. تبين له فجأة، إيمانه القاطع بأن الحريق لم يندلع في تريبتوف. كانت السيدة هانهاوس قد ألغت أي احتمال للحريق بكلمة واحدة من فمها وهي تنهض من سقطتها، يتقاطر منها الماء كما من مظلتها، وبهذا ثارت أعصابه حتى توقف تفكيره.

السيدة هانهاوس تأكل فطورها بشهية عالية. من قطعة الخبز تسيل قطرة بنية من مربى التفاح. وعلى المائدة علم لرنَر بأمر ابنها. قالت: إنها أرسلت في طلبه، وتتوقع أن يصل الكسندر ظهراً. لرنر مازال يشعر بالإهانة، لكنه صمم على السكوت، فإقامته هنا لن تدوم بجميع

الأحوال. دخلت السيدة غرانتسوف بإزار يصدر خشخشة عالية على شرف السيدة هانهاوس.

وأعلنت: «اتصلوا من الجريدة. لو كنت أعلم أنك هنا ...»

دمدم لرنر على مضض: «وماذا قلت؟»

«السيد لرنر ما زال في السرير»، ردت السيدة غرانتسوف، رداً يشي بالطيب والوفاء، كأنها تلقي على الأسماع قصيدة أولاند: «عليك يا بني أن تكون وفياً وصادقاً».

لكن لم يكن لهذا أيضاً تأثير يذكر. اكتملت الصور التي رسموها له لدى هيئة التحرير. هل عليه أن يحزم حقائبه فوراً، أم يقضي عدة أيام أخرى في برلين؟ هل يسافر إلى الأخ فرديناند؟ كيف سيستقبلونه هناك؟

«الجرائد مليئة بالأخبار»، قالت السيدة هانهاوس، مستمتعة بالكلام، وعقبت أنها أنجزت «العمل الصحفي» هذا الصباح أيضاً، مثلما تفعل كل صباح.

«حريق تريبتوف»، قال لرنر بصوت خفيض ودس رأسه بين يديه. لم يكن في كلماته أي لوم. ومن الذي يلوم سيدة تسيل من خبزها قطرة بنية في هذه اللعبة الغاشمة على حقائق خاطئة؟ للشيطان يد فيها. أصابته طعنة شيطانية مثل كرة بلياردو، قذفته من مساره الصحيح. ألم يكن قانعاً من كل قلبه بمقالاته عن الحرائق؟ ألم يشعر أمس في مكتب الجريدة بأنه يدخل مسار الموت؟ والآن يبدو له كأن مستقبله كله كان في هذا العمل. وفجأة بدا له أن رئيس التحرير أكثر طيبة مما تصور، بل

إنه رجل واسع الاطلاع، بدأ في شبابه كمراسل محلي، ولم يخفِ هذا. ويزعم أنه يرى نفسه زميلا للصحافيين الشباب. وبدت هذه الخدمة الصحفية في عين لرنر، بما أنه يستعد الآن لوداعها، عملاً رومانسياً، بل مغامرة لا توصف.. ذلك الانطلاق المفاجئ للكتابة عن الكوارث! تلك المشاعر التي تولدها أنصاف الليالي، والمرح التهكمي بين شعب المراسلين الذين لا يلهمهم أي شيء.

«تريد أن تسمع: ما الذي وجدته هنا؟ مقال يستحق وزنه ذهباً»، قالت السيدة هانهاوس، ومدت يداً بيضاء كبيرة – كانت تلبس سواراً من العقيق يلائم فستانها البني – إلى الجريدة وهي تدس بالأخرى لقمتها في فمها.

«هذا عمل لك، لن تندم على أننا جلسنا صباح اليوم معاً، أيها الشاب». وبدأت بقراءة مقال طويل، جافٍ، على الصفحة الاقتصادية لجريدة «ساعي البورصة» عن نشاطات الجمعية الألمانية لصيد السمك في أعالي البحار، بصوت دافئ، ومتمرس في القراءة، ونغمة درامية هادئة ونظرات ملؤها التعبير، تلقيها في استراحات قصيرة على لرنر، كأن مستمعها مطلع على القيمة العظيمة للخبر.

كان المقال عن ... عن ماذا؟ فلم يعبأ به لرنر في حالته المزرية تلك على الإطلاق. كانت الجمعية الألمانية بصدد البحث عن مناطق جديدة لصيد أسماك القد، والذهبية وقيادة أساطيلها في البحار التي تصطاد فيها الأساطيل الأخرى أيضاً.. أي في الشمال، في المناطق المرعبة بين النرويج والقطب الشمالي، حيث للجزر، أو لجبال الجليد، أسماء طريفة.

فتدعى إحدى البقاع المتجمدة بلاد فرانتس جوزيف، أكبر مساحة من برلين، ولكن جميع سكانها من كلاب البحر والبطريق. هناك لم يسمع أحد بحريق تريبتوف أو بالنهاية الأليمة، والمخزية لمراسل صحافي. على مثل هذه الجزر تستريح سفن صيد السمك وتنصب خياماً للمؤونة، كما تجفف الأسماك ولا بد من أنها تقضي الشتاء فيها، حين يحل هذا باكرا وتنقطع سبل العودة إلى أرض الوطن. اسم إحدى هذه الجزر هو جزيرة الدببة. وهناك كانت دببة القطب، أو الدببة السمراء أو غيرها من الدببة، تنافس الصيادين الألمان على قوتهم.

قرأت السيدة هانهاوس بنبرة تكاد تكون تهديداً: «جزيرة سائبة. لاحظ هذه الكلمة جيدا.. سائبة»، أضافت منبهة وهي ترفع حاجبيها. كان لرنر يعرف هذا التعبير «سائب» في علاقته مع الكلاب الشاردة. والكلاب الشاردة، أو السائبة، يصيدها موظفو الحكومة. والكلاب الشاردة الكبيرة يستولي عليها بائعو المواد العتيقة، لتجر عرباتهم التي تتكدس عليها الجرائد، والعظام القديمة. المكان غير المأهول، شيء تافه، وحقير. الأرض السائبة، مكان لا يريد سيد امتلاكه.

لا، على العكس، على ذمة السيدة هانهاوس، فجزيرة الدببة سائبة، لأن هناك سادة كثراً يسعون إلى امتلاكها، النرويج، روسيا وإنجلترا، وهذه إمبراطوريات تزعزع وضعها الدبلوماسي في الفترة الأخيرة، فلا يجرؤ أحدها على اتخاذ الخطوة الأولى.

ولماذا يبدي أحد كل هذا الاهتمام بصخرة جرداء بين معتقلات نوفايا سميليا وجزر سفالبارد؟

«حتى الآن كان هذا سراً، ولكنه لم يعد كذلك بعد اليوم»، قالت السيدة هانهاوس بصوتٍ ناعمٍ ملؤه البشارة.. كأنها تبوح بهذا السر له وحده، ولم تطلع عليه في الجريدة. أثناء الحفريات لتشييد أساس لأكواخ الصيادين عثر العمال على طبقة فحم تقع تحت القشرة الأرضية مباشرة. فحم حجري من أفخر الأنواع.. حبست أنفاسها لشدة تأثرها: فحم حجري.

صاح لرنر غاضباً الآن: «إن شاء الله يعثرون على بيض عيد الفصح». سقطت عنه درع اليأس، واندفع فيه الحنق. ما معنى الفحم الحجري في جزيرة الدببة، ليذهب إلى الجحيم، فهمومه تكفيه.

«أنت أوقفتني عن الذهاب إلى تريبتوف. احترق معمل الأنيلين عن آخره.. لم يتمكنوا من السيطرة على النار، قبل مرور خمس ساعات.. سقط أحد رجال الإطفاء ضحية. انفجر خزان.. انقلب حي تريبتوف رأساً على عقب، وأنت قلت لي إنه لم يحدث حريق هناك. من أين جئت بهذه المعلومة؟ هل جاء هذا أيضاً في الجريدة؟ أنا صحافي.. أنا فشلت، وهذا بسببك.. دمرت حياتي كلها. لم تكن وظيفتي هناك قوية، ولكن مثل هذا الفشل يقرر مصير صحافي متمرن إلى الأبد، وهذا عن حق. رجاء، أبعدي عني فحم جزيرة الدببة». خرجت كل هذه الكلمة حادة جداً وخطرة. خرجت الجمل كأنها من أفواه المدافع.. كان يتمنى أن يضرب جريدة برلين المحلية على الوجنات المليئة، الخالية من التجاعيد، وتحديداً صفحة الخبر عن حديقة الحيوان، والتي تشي بالكثير من الارتباك. هذه السيدة لن تفهم أبداً ما الذي يجري صباح

اليوم في الجريدة. ومن هي أصلاً؟ من أين جاءت بالحق في خداع الناس وإرباكهم؟

«سؤال جيد»، كان عم لرنر العجوز ذو الشارب الأبيض سيقول. السؤال الجيد برأي العم، هو سؤال لا جواب عليه أو لا تسهل الإجابة عنه. ويبدو أن السيدة هانهاوس تعرف هذا، بل وتقدره أعظم تقدير. جلست رافعة صدرها، يحيط بوجهها شعر متموج، وتنظر إليه نظرات جريئة وعطوفة. لم تكن الآن سيدة في موقف ضعيف، كما كانت في الأمس، ولا رفيقة تعرّف إليها للتو. انبعث منها الإجلال، الأمر الذي لاحظه لرنر، حتى في لحظته الحرجة تلك، باعثاً الفضول في قلبه، والفضول قوته وضعفه. ماذا سيكون جوابها؟

بدأت السيدة هانهاوس ردها المكلل بقوة التعبير، والذكاء، وصفاء الذهن، موحية بموافقتها على كل كلمة، وقالت: إن («إذا أجزت لي هذا الاعتراض») همها الأول والأخير هو مركزه لدى الجريدة. لم تذكر حتى الآن، كلمة واحدة في هذا الشأن، ولكنها ستفعل الآن: المقال الوارد في جريدة «ساعي البورصة» يستهدفه بالضبط ويستهدف إمكاناته كمحرر.

قاطعها محتداً: «أنا لست محرراً الآن، ولن أصبح محرراً، بعد ما جرى».

«أرجو هذا»، جاوبته بسرعة مفاجئة وحاسمة، ومدت يدها بخاتم العقيق في الهواء فتلألأ المعدن الثمين، ووضعت سبابة اليد الأخرى على الإبهام.

«أولاً» اختفى المهندس أندريه، ومنطاده منذ عدة أشهر في بحر الجليد. «ثانياً»، وهنا جاء دور السبابة، «جريدة برلين المحلية تحتاج إلى مادة لمقالة عن أندريه. «ثالثا»، هنا جاء دور الوسطى، «أنت ستنطلق للبحث عن أندريه. «رابعا»، البنصر بالعقيق، «الجريدة تؤمن لك سفينة لهذه الغاية. «خامسا»، الخنصر، «ستمر أثناء الرحلة بجزيرة الدببة وتستملكها. و«سادسا» («ما عندي إصبع سادسة») ستصبح غولبكيان جديداً، هنكِل دونَرسمارك، وروكفلر. ستغادر الآن مائدة الفطور، وتذهب إلى هيئة التحرير. هناك تعرض على رئيس التحرير، النقاط الأربع الأولى ...»

قفز لرنر مندهشاً.. كاد الكرسي المتوج بأوراق الشجر الصفراء يسقط. «هذا هو الجنون بعينه».

صمتت السيدة هانهاوس، ولكنها لم تفلته من مصيدة عينيها.

-3-

شوبس يتبع صوتاً داخلياً

التقط الطلاب الثلاثة، صورة مشتركة. جلس هارتْكنوخ وكفيت على الأرائك، واستند شوبس بإحدى يديه إلى كتف هارتْكنوخ، بينما تلعب يده الأخرى بعقب مصاصة السجائر. على قبعاتهم ألوان رابطة الطلاب الثلاثية: البرتقالي والأخضر، وعلى عضدهم لافتات كتب عليها بخط ملون عريض.

كان أذكياء المسلمين يخافون أن تنحبس أرواحهم في الصندوق، إذا التقطوا صوراً. وصورة هؤلاء الفتيان توشك أن تكون برهاناً على تلك القوى السحرية القابضة للأرواح والحابسة لها. كأن الثلاثة سيظلون متلاصقين إلى الأبد. ليس في الصورة وحدها.

وقد صار ثلاثتهم رجالا يعتد بهم. وسّع كفيت تجارة أهله، وصار هارتْكنوخ رئيس أطباء عظيماً، وأخصائي أمراض قلبية يحسب له ألف حساب ويحوز صيتاً واسعاً. وشوبس أصبح رئيس تحرير جريدة برلين المحلية، شخصية مرموقة في العاصمة، غير متزوج، خلافاً لصديقيه، إلا أنه بشاربه الذي تخطه خطوط فضية، تتهافت عليه نساء المدينة.

إن عدم زواج أحدهم، يقوم على عقد شفهي بينهم. فقد كان من الأريح لهم أن يبقى أحدهم أعرب، يسهر على المتع المشتركة ويحفظها لهم جميعاً. فمثلاً لم يكن مناسبا لرئيس الأطباء هارتكنوخ أن يستأجر شقة هادئة في حي تساندورف، يستلم كل منهم مفتاحها. فمستأجر

الشقة مرغم حسب اتفاقهم على قبول أن يأتي صديقاه إلى الشقة، التي تسودها شيوعية نقية، كما يصفونها برفقة قهقهات تنبع من صميم القلب، فرادى أو جماعة، مع سابق إنذار أو دونه. استلم رئيس التحرير شوبس، باعتباره أديب وذواقة الرابطة الشبابية، مهمة تأثيث المنزل السري. السجاد المعلق على جدران غرفة التدخين، الذي جيء به من الرحلات الكثيرة إلى شمال أفريقيا، خلق جواً شبيهاً بجو خيمة في الصحراء. تلمع في داخلها صحاف النحاس، وأراكيل مزخرفة. وعلى فترات متقطعة وصلت الخناجر ذات الأغماد المدبجة، وسرج الجمال، وزجاجات العرق، والكؤيسات زاهية الألوان، والمخدات الضخمة، والمصباح الذي يرمي بضوء متقطع على السقف. تظل ستائر النافذة منسدلة في أغلب الأحيان.

السرير الكبير في الغرفة الجانبية كان غريباً ومثيراً. على أعمدته تتأرجح مرايا موشاة كأبواب ذات مفاصل. من يستلقِ على السرير ويغلق الباب وراءه، يشعر بأن آلاف العيون تتفتح فجأة في جميع، أعضائه، لأنه يرى نوادر كثيرة، دفعة واحدة، وتصعب عليه معرفة لمن تعود كل تلك الأذرع والأرجل. كان أعضاء الرابطة الشبابية يحرصون كل الحرص على فوضاهم الجميلة، فقد وقرروا ألا يسكن أحد.. بالأحرى ألا تسكن امرأة، في الشقة ذات النوافذ المغلقة على مدى طويل. وعلى هذا اتفقوا ووضعوا مبادئ اتفاقهم منذ البداية.

ولكن هذه الاتفاقية خرقت في الفترة الأخيرة. فالشابة النائمة في سرير المرايا، كانت تزيح الستائر الثقيلة عن النافذة كثيراً، وتدع الهواء

والضوء يدخلان إلى الغرف.

«هذا ليس فأل خير»، قال شوبس حين رأى الشابة من الشارع واقفة على النافذة. ولماذا ليس فأل خير؟ الجواب واضح وضوح الشمس، لكنه لم يفصح عنه. حياة الشقة قائمة أساساً على عدم الإفصاح. ومن لا يلتزم بهذه القواعد، يطرد سريعاً من ذلك الكسل الجميل. كان شوبس يقرر، إبعاد النساء اللواتي يُظهِرن أنهن لن يلتزمن بالمبادئ الأساسية للحياة المشتركة: بدخول الشقة سراً، وبعدم تفضيل أحد مالكي المفاتيح على الآخر. لم يسمح للسيدات بدخول خيمة التدخين المغربية إلا حين يكون لديه دليل قاطع على إدانتهن، ولم يكن يهمه أن يرغم أحداً على شيء ما، لكن حرصه على هناء الحياة في الشقة كان أمراً لا يستغنى عنه. كانت لكفيت بنات، وهارتْكنوخ تسلَّط عليه أضواء المجتمع. ولو لم تكن القصيدة القصيرة «لا تسلّم علي تحت أشجار الزيزفون»، قد تحولت منذ بعيد إلى أغنية شعبية، لجاز نسبها إلى شوبس. فقد كانت القصيدة النشيد المقدس لرابطة الشباب الثلاثة. ولكن السرانية، والشعور المختلس بالنصر، المنبعث دائماً من القصيدة، لم يعودا يصعدان في نفس شوبس.

بوبا شميديكِه، يسميها كفيت بوبيلي، وهارتكنوخ بوبي، صادفت شوبس تحت أشجار الزيزفون في ثوب الربيع المخطط، الذي طلب منها أن تفصله وترتديه، ثم نظرت في عينيه، ولم تكتفِ بعدم السلام عليه، بل ولم تومئ له إيماءة صغيرة، رغم أنه ينظر إليها متوسلاً، ولهذا لاحت على وجهه علامات الغباء، كما أقر ذلك بنفسه.

اضطر شوبس إلى الإقرار بأن أركان سلطته المطلقة على الرواح والمجيء إلى الشقة، قد تضعضعت قليلاً. فهو لم يعد يملك زمام الأمور. لماذا؟ لأنه لم يعد يملك زمام نفسه، كما فكر وقلبه يعتصر مرارة حين لاحق بوبا بناظريه ولم تلتفت نحوه ولومرة واحدة. لا يعرف مالكو المفاتيح بعد، ما الذي جرى. ولحسن حظه أو سوء حظه العاثر، فقد بدأ شوبس يشعر بالغثيان، عندما يلجأ كفيت وهارتكنوخ إلى حقهما الطبيعي في استخدام مفاتيح الشقة. وهكذا ضاعت الفرحة التي عُني بها أكثر من عشر سنوات بضربة واحدة، ومجرد التفكير في هذا كان مخزياً ومقززاً. وذات يوم كان شعاره: الاستراحة التامة من متاعب الحياة اليومية في خيمة النوم والتدخين في ظلال المصباح الخافتة إلى الأبد.

كان رئيس التحرير شوبس، يرهق نفسه في هيئة تحرير جريدة برلين المحلية. فقد كان مديراً لا يعرف الهدوء (دون أن يتكاثر عليه الوحي، بل إنه يعتقد أحياناً أنه غير ملهم)، إلا أنه ناقد ومتذمر وجارح جداً. كانت وسيلته في الضغط على كتّابه، توشك أن تكون فيزيائية.. ألكي ينفجر الوحي من بواطنهم؟ حين يدخل رئيس التحرير بخطواته العاصفة، من دون جاكيت، وبشعر مشعث ورزمة ورق ملطخة، لم يكن كمن يحمل في يده صفحات تخشخش، بل كمن يحمل رزمة بروق سيرميها على عبده العاجز. هجاؤه يقتل، ومديحه يحيي، إلا أننا ولكي نتمكن من مقارنة شوبس بالشمس في مشرقها ومغربها، في لظاها ودفئها، لا بد لرفضه وقبوله من أن يدور بسرعة أكبر. فشمس شوبس كانت تشرق وتغيب ككرة تتنطنط.

في حجرات محرري الجريدة، كانت عبارات «دم برلين الفوار، نبضات العهد الجديد»، تلفظ بصيغة أقرب إلى التنهد منها إلى الفخر. كما أن التوتر الدائم لم يؤد بالضرورة إلى روح الشعار. وفي الفترة الأخيرة أدار بعض الجمهور ظهره لضجيج معارك شوبس. ورغم أن انخفاض عدد الاشتراكات لم يكن باديا للعيان، إلا أن العائلة المالكة للجريدة، أبدت بعض القلق.

وتعويض شوبس عن كل هذه المرارة والاحتقان، كان التأمل في بوبا شميديكِه من كل نواحيها، والتقلب والتمرغ في وديان وجبال بوبا شميديكِه. هذا إلى عهد قريب. إلا أن التوتر في الجريدة، والقلق الشديد عند التفكير في الشقة وبوبا، صارا يتصارعان في نفسه في الفترة الأخيرة. المحظور الرئيسي في رابطة الشباب الثلاثة، بدأ يُرفَع علناً. فهو لم يرغب بأي حال من الأحوال في أن يتحدث مع رفيقيه عن رفع المحظورات. «الموت أفضل لي»، فكر رئيس التحرير شوبس. ولدهشته وجد أن الموت فقد رعبه. إذ لم يعد الموت أهول ما يتصوره، وأهول ما يخطر على باله هو أن تنقلب عليه بوبا شميديكِه فجأة.

يستغرب شوبس من نفسه. فحين تتكلم بوبا، تتشكل فقاعات من اللعاب على زاويتي فمها، فهو لم يكن يحبها في سابق عهده، بل كان يحتقرها بعض الشيء. وها هو الآن ينظر إلى هذه الفقاعات راغباً في امتصاصها. كان الرجال الثلاثة يمقتون أشد المقت أن يبوحوا للنساء العابرات في الخيمة بشؤونهم الخاصة، بل كانوا يكرهون إعلامهن بمهنهم، وذلك من باب السرية أولاً، ثم لتذوق طعم الحياة المزدوجة،

والإعدام الفني للتاريخ في المجون، حتى أقصى الحدود. لكن شوبس بدأ يشعر بحاجة ماسة إلى مشاركة بوبا في حياته خارج الشقة الضيقة. ولو سمع كفيت وهارتْكنوخ رفيقهما يشي لبوبا بأخبار هيئة التحرير، لهزا رأسيهما استنكاراً.

فمعنى هذه الاعترافات هو: «أنا أعاملك كإنسان، وأتصرف معك كشخص من مستواي، وأسلمك نفسي دون أي اعتراض». هل تفهم بوبا هذه الرسالة؟ أحياناً تصغي إليه باهتمام في قفص المرايا، أو في ثوب النوم الياباني على المخدات المغربية، حيث يشعر شوبس بضرورة المبالغة كما يفعل مع المحررين في الجريدة. وعندما بدأت بإعطائه نصائح، اعترف بجميل مشاركتها في أحزانه وأقسم أن يمتثل لكل ما تراه صحيحاً.

قال لبوبا: «أنا معرض لجنون واضح في هيئة التحرير. الولد الذي فوت عليّ فرصة حريق تريبتوف.. الكارثة التي لم تعرف عواقبها بعد، يأتيني كل يوم بحكايات جديدة. أقول له: لرنَر، ما الذي تفعله عندي بعد؟ فيرد، طبعاً سأختفي عن عينيك، لكن ذهاباً إلى القطب الشمالي وذلك في سفينة تؤمنها الجريدة. أقول له: وهل أنا الذي سيؤمن لك سفينة، يا رجل؟ يقول: طبعاً، سفينة.»

سألت بوبا: «ولماذا سفينة؟».. أبدت اهتماماً بالموضوع وأفرحت بذلك قلب شوبس. فكرته ليست بكل هذا السوء! عقّب بخيلاء وشرح لها باقتضاب اختفاء المهندس تعيس الحظ اندريه بمنطاده. هذه مادة للنشر، فيها تشويق كثير. نظرة ذلك الصحفي المدعي لم تخطئ تماماً.

إلا أنه لا أحد سيرسل هذا الكائن المجهول، هذا الأحمق المغرور، هذا الصفر، إلى الشمال على سفينة تخصص له.

إذن من سيرسلون؟

شخصاً آخر، لكن ليس هذا الرجل. خرجت هذه العبارة بغضب رباني من أولمب هيئة التحرير.

هل تشعر بوبا بشدة نبضات قلبه؟

أسئلة تتراكم فوق أسئلة. هل حصل تيودور لرنَر بالنتيجة على سفينة خاصة، لأن بوبا كانت مصففة شعر السيدة هانهاوس؟ هل انقلب العالم رأساً على عقب، كما تصور موريتس الصغير حين تحدّث المدرس عن «كتيبة الثوب الداخلي» لغانيات ملك فرنسا؟ لقد بلغ موريتس، شوبس في هذه الأثناء.. مبلغ الرجال. سعيداً يتذكر لطف بوبا معه، حين يفعل ما تأمره به.

-4-

طاقم سفينة هيلغولاند

يقال: إن البحار كريستوبال كولون، جمع طاقم سفينته «سانتا ماريا» من سجون الأندلس. كان مؤلفاً من الإقطاعيين الذين خسروا الثروة والشرف في القمار، والمجرمين والقتلة واللصوص، والمغتصبين، والكهان الذين حنثوا بقسمهم. و«سانتا ماريا» كانت صغيرة، بل أصغر حتى من سفينة هيلغولاند التي مخرت العباب بقوة البخار على الأقل. ولا يمكن لأي سفينة أن تسع ذلك العدد الهائل من بسطاء المجرمين، كما تشيع الأسطورة الرومانسية، فما بالك بذلك الزورق الشراعي الخرب، حتى أن الشكوك تثار بأن من ركبوها كانوا في معظمهم من السفاحين. وهذا يظهر من امتناع البرجوازية المحترمة، والفلاحين القادرين على الاكتفاء الذاتي، والكهان الورعين وملاك الأراضي الواثقين بحياتهم، عن ركوب قارب مثل «سانتا ماريا»، لا للقيام برحلة تجارية، أو للحج إلى روما، أو لمحاربة القراصنة والمماليك، وإنما لغاية غير معروفة وطريق مجهول في الأوقيانوس الأزرق، لا لانتفاء الشجاعة في قلوبهم وخصال الأبطال أو رغبة في المغامرة، بل من منطلق الرشد الصرف. فهذا الرشد يفيد بعدم مقايضة السلام والطمأنينة بمخاطرة لا تعرف تبعاتها. فلا بد من أن يكون من يملك عقاراً، وله زوجة وولد، ومهنة مضمونة، وأهل يعزهم، وأمل معقول في الثروة، مجنوناً كي يركب سفينة مثل «سانتا ماريا».

وبما أن هذه العملية بدت مغامرة حمقاء، فإنها لم تجذب أحداً يملك داراً وفناء، كي يغادرهما ويمخر العباب. لم يشارك في هذا الإبحار سوى من خلّف وراءه ماضياً بعينه: الفقر أو العار أو العقاب. لذلك يسهل السمو الأخلاقي فوق طاقم «سانتا ماريا».

يحسن بالدولة أن تقتاد بشخصيات خيرة، معروفة، وموثوقة، عندما تعقد صفقات حكومية أو تجارية. إلا أن التاريخ يبرهن أحياناً على وجود طفرات، تأتي دائماً مفاجئة، وتخرج عن المجرى المعهود. فإذا أقدمت الشخصية الخبيرة، الناجحة، والقديرة، على هذه الطفرة، فإنها لا تتسم بالخصال الحميدة المذكورة ولكن بما أن الطبول التي يقرعها التاريخ تدعو أحدهم إلى المخاطرة بمغامرة جريئة، غير آمنة، فإن الأمم تغرف، حين يجد الجد، من كنز سري تملكه كل أمة. ولا بد من أن يكون الغرف عميقاً جداً، فهي تريد الوصول إلى القعر، حيث يكون اليائسون، المفلسون، المقامرون، المجانين والمطرودون من وظائفهم. دائماً ما يكتمل ثراء الأمة بالساسة العظام، والتجار العباقرة، والحكماء، وبكنز خبيء من الأفاقين والفاشلين، يكشف عنه في ساعات الخطر والريبة والمغامرة.

السيدة هانهاوس، مع أنها لا تقود دولة لكنها واثقة بقدرتها على قيادتها.. كانت عليمة بهذه الحكمة التاريخية، ولكنها تعبر عنها بأسلوب آخر. فيها ضعف نحو الذين تطلق عليهم في الحلقات الاجتماعية صفة «الشخصيات الفاشلة». حين تسمع عن جنرال طرد من وظيفته، بسبب فضيحة أخلاقية، تقرأ من لحظتها «دليل الرتب

العسكرية» لتعرف سيرة الرجل وتدخل في علاقة معه. يشدها شداً أصحاب المصارف المفلسون، النواب الذين لم تتم إعادة انتخابهم، نصابو شركات التأمين، الذين حكم عليهم بالسجن، والدبلوماسيون الذين أقيلوا لخلافهم مع الوزير. حساباتها في منتهى البساطة. فهؤلاء الناس كانوا أصحاب مراتب عالية، لا تطالها عادة، لأن العرف يقضي بأن يتحصنوا وراء جدران منيعة. والفضيحة تحط من منزلتهم الرفيعة، وتلوكها كل الأفواه، مهما كانت نتنة، سيرتهم التي كانت مقدسة في أيام عزهم. فمن كان عزيزا ذات يومٍ ذل، وليس له من يدافع عنه. والسيدة هانهاوس تقتحم عالمه بكل سهولة، في المصح، في المنفى، في كوخ الصيد، وفي زنزانة سجن التحقيق. هنا يصغون إليها، يفتحون لها قلوبهم ويعثرون على إنسان يتفهمهم حتى الأعماق.

وما نفع المواساة والإصغاء، بينما الرجل الفاشل في وضع حرج؟ عادة ما تبقى للقوي المنهار إمكانات واسعة للتعبير عن الشكر. بعض العلاقات تتمزق، ولكن بعضها الآخر يظل متواصلاً في الخفاء. لا يمكن فعل أي شيء صريح لأجله، لكنه يظل محط العناية والاهتمام حتى تأتي ساعته من جديد. فمن يكون فوق، يعرف أصول اللعب فوق. في زمن الانهيار، يمكن استخراج كل المعلومات منه. فالفم الذي كان كتيماً، يتفجر في لحظة الضعف بشلال الكلمات. السيدة هانهاوس تجمع المعلومات. وغالباً ما تتشكل من ملاحظة عابرة يدلي بها النبيل السابق في صفقة عملية ساحرة. أحياناً يستعيد الفاشل مجده السابق، فهو من لحمٍ ودمِ أصحاب السلطة ولا يمكن أن يظل رهن الاضطهاد

إلى الأبد. وحين تعاد إليه نياشينه ورتبه، فإن السيدة هانهاوس تخسره، لأنه لا يريد أن يتذكر زمن الذل والهوان في الجحيم. فحتى في زمن التعاسة يوجد الكثيرون ممن لا يعلمون بسقوط النجم، ويظلون تحت تأثير الرفعة والشرف المكتسب في زمن العز. وترى السيدة هانهاوس أن الإنسان ليس شريراً بالفطرة، كما يزعم الوعاظ والفلاسفة. فبعضهم يقتحمون أرضاً غريبة، يصولون فيها ويجولون، ويستمتعون بالتشفي، نعم، مثل هذه الأشياء موجودة في الحياة، ولكنها ليست جميلة. فمن الناحية الأخرى، كم من أناسٍ يبدون العطف والحنان، وكم من أناس لا يهمهم صعود وسقوط الغرباء ولا يسمعون بهما أصلاً وينسونهما بمنتهى السرعة.

سمة النسيان تحديداً مدهشة. والسيدة هانهاوس نفسها تملك أدلة عجيبة على فوائد هذه السمة، في حياتها الخاصة أيضاً. فهي ذاتها تنسى بأقصى سرعة، وخاصة الإهانات، بل إنها ليست بحاجة إلى نسيان هذه، لأنها أصلاً لا تعبأ بها.

إلا أنها عندما حان وقت جمع طاقم بعثة إنقاذ المهندس أندريه على ظهر سفينة هيلغولاند، اضطرت للحفر في ذاكرتها. رئيس التحرير شوبس صار في صفها تماماً، بل إنه بدأ يلح على الرحلة، كي لا يجد المهندس أندريه طريق العودة وحده، بينما هم يطيلون الجدال في الإعدادات، ويسهبون في إرهاق أذهانهم من دون جدوى. فكر السيد شوبس بداية، لأسباب معروفة، بأن يرسل محررين آخرين في جريدة برلين المحلية إلى أعالي البحار، بل وصب جل اهتمامه على إرسال

المصورين والرسامين، ليشبع رغبات المشتركين في الجريدة.

«إذا فسحنا المجال لكل هؤلاء المصورين والرسامين الواقعين تحت تأثير شوبس لركوب هيلغولاند، فإننا نفتح باب التمرد قبل أن تبدأ الرحلة. فكيف نشرح لهؤلاء الناس أن هدفنا الحقيقي هو جزيرة الدببة. فالمهندس العظيم أندريه، كما يعرف كل من قرأ جريدة في حياته، التهمته دببة القطب منذ زمن بعيد، أو أنه على الأقل منته، ولا يمكن إنقاذ الكثير منه». لحسن الحظ كان المصور المهيأ لمرافقة الرحلة، يدعى كنيشت، وكان غير قادر على ركوب البحر، فقد كان يقشعر بدنه لمجرد التفكير بقضاء أسابيع في التأرجح على الأمواج. زاحمه شخص اسمه مالكوفسكي، كي ينضم إلى طاقم السفينة، كما كانت الحال بين الزملاء في الجريدة، إلا أن شوبس لم يقتنع به.

«يظن مالكوفسكي أن القطب الشمالي يشبه الصحارى»، فقد قال شوبس باحتقار ناسياً أن كثيراً من المصورين، بل أغلبهم، يظنون هذا الظن، فالكثبان البيضاء، سواء أكانت من الثلج أم من الرمل، تتشابه كثيراً من بعيد ولا يمكن تمييزها عن بعضها إلا إذا كانت في الصور جمال أو كلاب تجر الزحافات. وهذه الغيرة غير المتوقعة بين العاملين في الجريدة كانت خيراً عليها. ففجأة شعر كل منهم بأنه لا غنى عنه في رحلة البحث عن المهندس أندريه. ولم تمنعهم قدراتهم على الكتابة، والتي تتجاوز قدرات لرنر كثيراً، من أن يضعوا الحواجز في وجوه بعضهم بعضاً بسبب تدافعهم وحسدهم. بالنهاية سعد رئيس التحرير بعدم سفر أحد من الجريدة في الرحلة، فلرنر لم يكن حتى محرراً، وهذه

كانت مهمة خاصة لا تتقاطع مع مهام هيئة تحريره في برلين. فإذا ما برهن لرنر على جدارته، فإنه سيفكر في تقرير مصيره، لكنه لم يعطه وعودا صريحة بشأن مستقبله في الجريدة.

مهمة التصوير ألقتها السيدة هانهاوس على عاتق عزب عابس، ثخين الشارب، تعرفت إليه عندما حاولت ذات مرة بيع مواد بعينها استخرِجت من المناجم البلجيكية في الكونغو. فقد عاش المهندس مولمان، سنوات عديدة في الكونغو وعاد منها خالي الوفاض اللهم من الإدمان على الكحول، ولا يتدفق بالكلام، معتكر المزاج طبعاً، إلا بعد أن يفرغ عدة زجاجات مهما كان محتواها. كان يحتمل الكثير، وكان قد التقط صورة للسيدة هانهاوس تبرزها في أحسن أوضاعها ومفاتنها وهي جالسة على كرسي من القش. من يشاهد صور مولمان يَرَ أن دافعه إلى التصوير ليس التقاط الصور، وإنما تلك اللحظة التقنية البحتة لعملية التصوير. حين يختفي رأسه تحت القماش الأسود ينسى العالم بأجمعه، ويدخل بئراً سوداء لا يضيئها سوى ضوء النهار الخافت عبر العدسة الصغيرة. ويبدو أنه لا يعبأ إطلاقاً بالصور التي تنطبع هناك.

بعد أن عرّفته السيدة هانهاوس إلى لرنَر في المقهى (منذ اللحظة الأولى تولدت الشكوك في قلب لرنَر نحو مولمان، أما مولمان فلم يبد أي اهتمام بشخص لرنر كما ظهر على الفور) قالت: «الصفقة المثالية في مولمان هي أنه مهندس مناجم، وقادر على التصوير. ونحن حين نلحقه بالرحلة، نوفر مكان رجل إضافي على ظهر سفينة هيلغولاند الصغيرة. بالإضافة إلى هذا فإنه حر وسعيد جداً بكسب بعض القروش». ولم

تقصر السيدة الموقرة في استخدام مرادفات أخرى للنقود الصغيرة، كالفرنك والمليم، لكنها استخدمتها في إحالة على المبالغ اللازمة للاستخدام اليومي الضروري، من دون تطرق إلى الثروات الطائلة التي تأتي بنهاية كل عمل عظيم. استبعد لرنر أن يسعد مولمان بأي شيء، واحتمل أن الشارب الكث، المقوس فوق شفته العليا، يمتص دفقات السعادة الممكنة من أنف مولمان كالإسفنج. في هذا الشارب المتخم لا تعلق قهوة الصباح فقط، بل انطباعات أخرى كثيرة لا تصل إلى وجه الرجل.

لكن من سيكون القبطان.. الرجل الأهم، الذي يجب أن يكون موضع الثقة وقادراً على إيجاد الحلول، إذا خرجت رحلة التمحيص في الآثار الدقيقة للمهندس اندريه عن مسارها، من دون الكثير من الاحتكاكات؟ في جعبة السيدة هانهاوس رجل، هو الصورة المعاكسة تماماً للمهندس مولمان. لم يكن للربان المحال على التقاعد، هوغو روديغَر، شارب، وإنما لحية كثة على جانبي وجهه، وشعار القيصر، والتاج هو وجه روديغَر قوي التعابير، والمهتاج دائماً. إذا كان مولمان صموتاً، فإن روديغر لا يتوقف عن الكلام. إذا كان مولمان متبلداً، فإن روديغر سريع الغضب. وهذا الغضب كان سبب إقالته، وإنهاء حياته العسكرية التي كان مولعاً بها أشد الولع. وحين أبعد عن مهنته، أطلقت كل خلية من خلايا جسده صرخة عالية تتقطع لها نياط القلب. لكن كيف صعد رجل أسقطه غضبه السريع من حضن سعادة حياته، السلمَ العسكري من أساسه؟ فثورات الغضب، نوبات الحنق، وفورات الحقد وغيرها من

الشطحات حائل شديد أمام وضع القدم على الدرجات الأولى من سلم الجندية، ومن يرد ارتقاءه يجب أن يتصف بالأثرة، والصمت المطبق، والانضباط، والموافقة التامة على الظلم أمام عينيه. ظهرت الفصاحة المتدفقة من فمه، والحساسية العالية لدرجة الثورة لدى القبطان روديغَر في وقت متأخر. في البيت أولاً، حتى هجرت امرأته بيت الزوجية، ولجأت إلى بيت أهلها، ثم تفاقمت شيئاً فشيئاً بين زملائه أيضاً. ادعت بعض الأصوات أن القبطان روديغر فقد الرشد. استلم قيادة هيلغولاند كمن يستلم إمارة الأسطول القيصري. هيجته العملية التي كشفت له حجبها السيدة هانهاوس برفق وحذر، والغريب أنه التزم الصمت وهي تتحدث إليه. لم يجد في لرنر شخصا عظيماً يحمله على محمل الجد. وعلى العكس أيقظ القبطان روديغر في نفس لرنر، ذلك الخوف الذي كان يشعر به في طفولته من بابا نويل.

-5-
التسالي أثناء الانتظار

«عمل رجال الأعمال هو الانتظار.. يدفع لنا على الانتظار.. رجل الأعمال صياد». قالت السيدة هانهاوس خلال أيام الانتظار المعذب للحظة إبحار الرحلة القادمة لا ريب، بينما السفينة واقفة على اليابسة. علموا أن السفينة أسوأ بكثير مما توقعوا. طلب القبطان روديغر، إجراء صيانة للخشب والحديد والدهان، وقد تمت على عجالة. ورغم رصانتها الأبدية، عبرت السيدة هانهاوس عن بعض فقدان الصبر، طبعاً بأسلوب غير مباشر. «يتصرف السادة وكأننا سنقضي الشتاء كله في بحر الجليد». إلا أنه كان من الضروري عدم التصريح بهذا الهدف علناً، بأي حال من الأحوال. ورغم هذا فقد بدأت خلال مرحلة «(التزويق)»، كما تقول، بلفت أنظار رجال المال إلى رحلتها وكأنها وضعت يدها على جزيرة الدببة. بناء على حساباتها، كانت عملية جزيرة الدببة، التي بدأت فكرتها توا، باهرة من حيث النتيجة، وقد صاغت انطباعها هذا في كلمات سلبت لب لرنر: «في الدنيا أكوام من المال المرمي على الطرقات، وما عليك سوى أن تنحني قليلاً لتلتقطه». لدى عبارة «أكوام المال المرمي»، تذكر لرنر قطعان الخنازير الساذجة التي تقاد إلى الحظائر بالعصا، وتستسلم بخجل، وطيب سريرة لكل ما يراد منها. اندهاشه أنساه مدى تبرمه من السيدة هانهاوس. من البديهي أن يروي لها عن ابن العم فالنتين نويكيرش، «صلة القرابة الفخرية» كما يسميها

الأخوان لرنر، مدير المناجم في تسفيكاو. ويقيناً لم تكن هناك حدود لقيمة مشورة ابن العم فالنتين بشأن إنتاج الفحم على جزيرة الدببة، لكنه قد يساهم في العملية بنفسه إذا اشتمّ منها رائحة المال. العائق أن لرنر لا يجرؤ على استشارة ابن العم بذاته، إلا بعد تقديم وقائع تقوم على أرض صلبة وليس مجرد خطط ونوايا. فخطة يتقدم بها ابن العم تيودور لرنر كانت بالنسبة لفالنتين نويكيرش منديلاً أحمر. وفعلاً قام ابن العم بإبداء ملاحظات مليئة بالسم، لمجرد أن ذكرت له السيدة هانهاوس اسم لرنر عندما اتصلت بنويكيرش في تسفيكاو دون أن تحيط شريكها علماً. كان اتصالها تشكيكاً وإنذاراً. مثل هذه العمليات التي تقوم بها على غير هدى لا تنبع من خبث في نفسها، فقد كانت في ذهنها آلاف المشاريع التي لن تجد من ينفذها على أرض الواقع. لكنها حين تجد أملاً في أحدهم، تريد أن تشحنه بأكثر ما يمكن مما يتلاطم في رأسها. لو كانت لهؤلاء الناس علاوة على أموالهم، بعض مواهب السيدة هانهاوس، لثار فيهم أيضاً عقلها وروحها، ولأدركوا قيمة ما تعرضه عليهم واستخدموا هذه الثروة المجدولة من التفكير والتركيب في مصلحتهم. حماقة المال تنتقل أيضاً إلى مالكيه. وللأسف لم يكونوا خنازير بطيئة وساذجة، وإنما نوعاً من الذباب والحرباء. فهم يتهربون لدى أدنى شك. الأغنياء يتفرقون لدى أصغر ملاحظة خاطئة، في جهات الأرض الأربع.. لا تقنعهم البراهين والتصورات الذكية، كما لا تقنع الذباب. وإذا أراد أحد أن يطردهم إلى الأبد، فما عليه سوى أن يوحي لهم بأنه في حد ذاته لا يملك الكثير من المال. وأحياناً لا يستطيع

المرء إخفاء هذا الانطباع. لم يشكُ لرنر من السيدة هانهاوس. فلا يمكن لأحد أن يكون وقوراً وواثقاً بالنفس مثلها. ربما دفع ذلك القلق الخفيف لمرأى الخطط التي يجب إنجازها في أقصر وقت، بعض الشكوك في نفوس الآخرين. فالسيدة هانهاوس تزعم: من المهم دائماً أن تضع الزبون تحت ضغط الوقت. من يُرد تحقيق هدفه فعلاً، فعليه استقبال الناس في غرفة الفندق في الساعة السابعة صباحاً وهو حازم حقائبه. والفن الأعظم هو القدرة على ترغيبهم في هذا الموعد. إن التعريض للضغط فكرة صحيحة لا ينوي لرنر انتقادها بأي شكل من الأشكال، لكنه يؤمن بأن الهدوء والترقب، وترك الأمور تأخذ مجراها، تأتي بنفس نتائج الضغط الدائم، إن لم يكن بأفضل منها.

«لا تتسرع في اتخاذ قرارك الآن.. نحن لسنا مستعجلين. وإذا لم نتفق اليوم فقد نتفق غداً»، لا بد من أن نكون قادرين على قول هذا أيضاً، وذلك في نبرة بالغة الهدوء، حتى وإن كانت رقابنا تحت المقصلة. والسيدة هانهاوس كانت تجيد هذا حق الإجادة، فقد كانت تحافظ على هدوئها منقطع النظير بينما يثور الناس من حولها. المشكلة أن أحداً لا يستولي عليها بالكامل. وكل من يعقد معها عقداً، لا يربط إلا جزءاً بسيطاً من عقلها، أما الأجزاء الأخرى فتبقى حرة وتئزّ مثل النحل.

أثناء الانتظار، لا يوجد مجتمع أحسن من مجتمع السيدة هانهاوس. فهي لا تشارك أحداً في الشكوى، ولا تقدر على الانتظار عاجزة. عقلها لا يعرف وقت الفراغ. حين تدرك أن أمراً ما لن يتقدم، تحول انتباهها في اللحظة ذاتها إلى شأن آخر. وإذا لم يكن لها شأن آخر تفعله،

فإنها تخلقه خلقاً لتشغل نفسها به. لم تفتح قط جريدة لا فائدة منها. لرنر كان يحل أحياناً الكلمات المتقاطعة. وهي تلومه على تضييع قواه الذهنية إيلاماً أشد من إيلامها لنسخ الجرائد عديمة النفع.

قرأت على أسماعه مقطبة الجبين: «قام الجيش بانقلاب في غواتيمالا. الرئيس غوميز وضع تحت الإقامة الجبرية في منزله.. معارك في الأقاليم».

نظر إليها لرنر. غواتيمالا بعيدة جداً. قال متذمراً: «وما شأني بما يجري في غواتيمالا؟». لكن الكسندر كان قد أرسل في مهمة جمع أرقام هواتف المطاعم الراقية في المدينة. نهضت السيدة هانهاوس، وأصدر ثوبها حفيفاً والمقعد صريراً. دارت بين الطاولات الصغيرة في نقلات قصيرة، وكأنها لا تحرك قدميها. رأسها ذو الشعر الأشيب الكث مرفوع قدر استطاعتها. ما كان أحد يتصور أن الخزانة الخشبية، التي تحوي الهاتف، قادرة على استيعاب السيدة هانهاوس بالكامل، أم أن هناك خلف الكبين باباً يؤدي إلى قاعة أخرى؟ أغلق الباب وراءها. عندما خرجت كانت وجنتاها محمرتين، فقد كانت الزنزانة خانقة.

وروت له ما فعلته.. سألت في الهاتف: هل أنا مع شركة شيبلر؟ هل عندكم أخبار عما يجري في غواتيمالا؟ ألم تقرؤوا الأخبار بعد؟ لقد أوقف تصدير البن مؤقتاً، فقد وضعت الحكومة الجديدة يدها على تجارة البن، وتريد أن تتحقق منها أولاً. وعلى السادة شيبلر ألا يصدقوا ما يقوله تاجر الجملة في بريمن، فهو لا يعلم بما يجري على وجه اليقين. لحسن الحظ أن تحت يدها شحنة سفينة من أفخر أنواع البن، والحبوب

الكبيرة، كانت مخصصة أصلاً للندن، ومن يحجز منذ الآن وبسرعة، سيحظى خلال أربعة أسابيع بتجارة رابحة. هكذا تكلمت السيدة هانهاوس من دون انقطاع، في خطبة متواترة، وتهللت أساريرها.

قال لرنر غير مصدق ما يسمعه: «وهل القهوة تحت يدك فعلا؟»

«عزيزي الطيب، قبل أن أشتري بضاعة، عليّ التأكد من بيعها أولا»، قالت مؤنبة ولم يعلم لرنر ما الذي آلت إليه تجارة القهوة المهربة من الثورة. أحياناً كانت مثل هذه الصفقات تؤتي أكلها، أما هذه الصفقة فقد قامت بها لمجرد تضييع الوقت. فقد كانت تتمرن على الهاتف. يجب أن يصبح الإقناع والثرثرة، فطرة ثانية، كما يجب مسح كلمة «لا» في نهاية الحديث من الذاكرة، فيجب ألا يعتاد الناس على فكرة أنهم قادرون على فرض إرادتهم؟ هذه كانت تسلية السيدة هانهاوس عندما تنتظر قراراً.

أما مع القبطان روديغر فقد تحول الانتظار إلى امتحان. زال الخوف من قلب لرنر، ثم زال الصبر أيضاً. بصوت فيه غنة، وبدقة لا تنسى أي تفصيل، أحصى القبطان، جميع الأخطار المهددة للرحلة من دون توقف، وكأنه يريد إضعاف الهمم. ابن السلك العسكري ببساطة ليس تاجراً. لغرابة الصدفة يفتقد ابن السلك روح المخاطرة والتهور. أين راحت خصال القراصنة، التي يفترض أن يتحلى بها البحّار أيضاً حتى وإن كان موقوفاً عن الخدمة؟ أبناء السلك مهووسون بالأمن والسلامة. قال لرنر هازئاً: تكون السفينة الحربية في مأمن كامل، عندما تكون في المرفأ. فرد روديغر: هذا خطأ، فأساطيل كثيرة دمرت وهي في

الأحواض.

سأل روديغر، بعد أن تناول بيضاته في الكأس: «ومن أين تعرف أن السادة أصحاب شركة غانزات وسي يعولون فعلاً على رحلتنا؟ هل سيتصل السادة بورخارد وكنور اليوم حقاً؟ ألم يكن من المفترض أن يتصلوا البارحة؟ ألم تقل إنكم اتفقتم على كل شيء مع القنصل الألماني في ترومسو؟ عندي، باعتباري ضابط بحرية، سمعة لا أريد أن أخسرها. أنا مستعد للتضحية بالغاًلي والنفيس في سبيل الوطن، لكنني مصر على أن تكون كل الأمور واضحة منذ البداية».

أقل خطورة، لكن على الدرجة نفسها من الثقل، كانت ذكريات روديغر التاريخية، من دون أن يأتي قط على سبب مغادرته البحرية. ففي هذا الحالة لا يبدي أي استعداد لاستعادة أمجاده الغابرة. ضابط متقاعد، لا مال لديه، ومع ذلك لا ديون عليه. لحيته الكثة تستلقي على حلة مدنية زرقاء، والرأس الأقرع دلالة واضحة على المكان الذي يجب أن تتخذه قبعة القبطان. وحين يكف عن طرح أسئلته المتهيبة، والمنذرة بعدم الولاء والمبررة له مستقبلا، يسرد حكايات عن وقائع حربية قديمة. معارك رأس الطرف وأبو قير، والآرمادا، وكوبنهاغن تجري من جديد على طاولة المقهى.

«هل تعرف وجه الشبه بين معركة سالاميس ومعركة ليبانتو؟»، يسأل روديغر بعد أن ينهك أعصاب لرنر بأسئلة لا يعرف أحد جواباً لها. «جرت المعركتان في اليونان. كلتاهما كانت حرباً بين الشرق والغرب. في المرتين قاتل الشرق حلفاً غربياً. وفي المعركتين احتمى

الغرب بالعذراء، وفي المعركتين شارك أهم شعراء العصر: اسخيليوس وسرفانتس. كان قادة الغرب في المعركتين أولاد زنا. تيميسوكل ودون خوان داوستريا. وبعد النصر عزل القائدان. أراد كل منهما تأسيس إمبراطورية في الشرق. وكلاهما مات بالسم». كلما أطال القبطان في الكلام، اتقدت حماسته أكثر، وشدد على كل نقطة أوردها بضربة قوية من يده على حافة الطاولة المرمرية، بحيث تتراقص الفناجين. الشفة العليا، الوردية، والرطبة، تحت شعر اللحية الكث، بدت خليعة. لم يكن لرنر يعرف أيا من الأسماء التي هرست على الطاولة. وعند هذا الحد بلغ سيله الزبى والقبطان ينظر إليه بتشوق.

«وماذا نستنتج؟»، خرج السؤال من فمه قاصماً. دهش القبطان. وأردف لرنر: «ماذا نستنتج من كل الحكي؟ طيب، آمنا بالله، كل هذه المتوافقات متوافرة، لكن ما هدفها؟ هل لكل ما اكتشفته الآن أي قيمة ملموسة؟» في هذه اللحظة تفجر كل الغل المكتوم في قلب لرنر. صمت القبطان محتاراً. كان منبهراً بما اكتشفه وأعزل في وجه هجوم لرنر.

قال هامسا: «لا أعرف».

-6-

على حافة صحراء الماء

عشية إبحار السفينة هيلغولاند، كان تيودور لرنر في نزل تسور هانزِه كوغِه في مرفأ غيستِه موينده مستلقيا على سرير صلب كالحجر، وكأن المواد الجامدة حوله تنذره للمرة الأخيرة بأن اليابسة صلبة، قبل أن ينطلق في رحلة تمتد عدة أسابيع في بلاد رطبة وباردة. ولكنه حالما تغلبت دورته الدموية الحارة على هذا الضيق في سرير النزل، أبعد كل علامات الشر والخير أيضاً من رأسه. كان لرنر مرهقاً، فالأحداث المثيرة في الفترة الأخيرة، سلبت النوم من عينيه، وها هو موعد الانطلاق قد حان. الإبحار إلى المجهول أنقذه من توتره وهيجانه. كأن «صحارى الماء والجليد»، كما كتب شوبس في مقالاته عن إرسال هيلغولاند في مهمتها الاستطلاعية، ملاذ آمن، ولو كان قارساً، من الوجوه المتلهفة حوله وجه السيدة هانهاوس، التي فتحت أمامه هذا الأفق المفاجئ، مع أنها فتحت في الآن ذاته مجال الرهبة والمخاطرة بحياته. انقلاب رئيس التحرير شوبس مذهل. فقد طار الرجل الحيوي، الميلانخولي والمندفع في قفزات واسعة على سلم الاحتقار المرير حتى وصل إلى أعلى درجات التقدير والاحترام في وقت قصير، وبذلك تحول لرنر في عينيه من حالة غباء مرَضية معدية، لا يجوز لمسها، إلى موطن إكبار وأمل هيئة التحرير.

وقف رئيس التحرير شوبس، من دون جاكيت، بسبب الحرارة

العالية المتولدة من احتكاك الأفكار في داخله، كما يفعل دائماً أثناء قراءة البيانات الحكومية، في غرفة المؤتمرات تحت صورة مؤسس الجريدة ف. ا. س. بفانكوخ، الذي يظهر في إطار ذهبي، مرتدياً ثياباً قاتمة السواد، ويحمل كتاباً ككاهن طبع كتاب مواعظه على نفقته الخاصة ويعرضه للبيع. صرح شوبس بحلول مرحلة تاريخية جديدة: لقد ازدادت قيمة الصحافة في ألمانيا، منذ تأسيس الإمبراطورية زيادة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، وبلغت حدا مرموقاً يمكن مقارنته بالقوى الصحافية الكبرى، إنجلترا وفرنسا، بل إن موقعها في ألمانيا أفضل في بعض النواحي من موقعها هناك. عن جدارة بدأ الناس يصفون الصحافة بالسلطة الرابعة، ومع أن اللحظة لا تسمح الآن بتكريس هذا الدور في الوثائق الدستورية، إلا أن هذه السلطة واقع لا مندوحة عنه. إن المواقف الدستورية لا تتوقف تاريخياً على قرارات، بل إنها تنز بقواها الذاتية ولا دور للدستور سوى الموافقة عليها.

«اعذروني أيها السادة»، أضاف رئيس التحرير تحت صورة المؤسس (كأن اللوحة الزيتية القاتمة هي التي تتكلم عبر شخص شوبس الذي يبلغ رأسه ركبة المؤسس وهو يطوح بيديه، ويقدم براهينه على آرائه) «اعذروني لأنني عشية إبحار هيلغولاند أحفر عميقاً في جذور التاريخ، وأنظاري متطلعة إلى المستقبل، شجاعاً مثل الطاقم المتواضع بإمرة زميلنا السيد تيودور لرنر، الذي ينوي تجاوز حدود الأرض المسكونة. وما هي دوافعهم؟ إنها دوافع إنسانية بحتة. لقد صار مصير المهندس أندريه في رحلته الجوية مصيرنا جميعاً. إن احتراق بيت جارك يضر بك أيضاً.

استخلص أسلافنا الرومان، الذين نقتدي بهم اليوم، هذه الحكمة من خبراتهم. ومن أراد المزيد من الخبرة وفتح أراضي جديدة بها، لن نتخلى عنه حين يخفق، فإخفاقه مؤقت. إن أسوار قلاع الجهل تهتز اليوم، كما أن الشبان الموجودين في هذه القاعة (وأنا أحسب نفسي بينهم، بالإذن منهم) سيدكونها دكاً. ولكن المنحى الثاني لرحلة السيد لرنر صحفي صرف، وخاصة في ما يتعلق بحرية الصحافة. لقد وصلنا إلى الحرية بفضل الضغط الخارجي. لم يسبق أن كانت الصحافة الألمانية بكل هذه الحرية. والوضع في الداخل يختلف وكلكم تعرفون هذا. في الداخل، تتعرض الصحافة للوساطات.. للحاجات اليومية، وتسيير الأمور من يوم ليوم، حيث إننا رأينا بأعيننا ثلاثمائة مشترك يسحبون اشتراكاتهم. إن الصحافة، من المفترض أن تكون حرة، ولكنها في الحقيقة عبد لليوم ومجرياته. كيف يمكننا وصف أحدهم بالحرية، وهو مرغم على انتظار إشارات خارجية لا يستطيع التأثير عليها كالمشلول كي يتفاعل معها؟ إن وصف زمننا هذا بزمن الخيار المخلل، مجرد إشارة فكهة إلى مخاطر تهددنا. أنا عن نفسي أحب الخيار المخلل. وهنا صدرت أصوات موافقة كثيرة من القاعة. «لكني تعلمت التوجس من عملية التخليل، من الموت، من فقدان الأمل الذي يقضي قضاء مبرماً على جهاز الصحافة القائم على قدم وساق».

والآن جاء دور الجديد، المتجسد في إبحار مركب الصيادين الصغير هيلغولاند، كبداية ستغير وجه التاريخ. فبواسطته تتحرر الصحافة من أغلال الأحداث اليومية وأهوائها وفوضاها، التي لا يمكن التنبؤ بها،

وتخلق بنفسها الأحداث التي تكتب عنها.

«القارئ يشارك في رحلة البحث عن المهندس أندريه، ويجلس في المركب، ويعايش الملابسات ومشاعر البحارة وآلامهم كأنه معهم. لقد قررنا الكف عن انتظار أن يحرر ذوبان الثلوج أو تحرر عاصفةٌ، المهندسَ أندريه من سجنه الجليدي، بل سنكتب تقارير عنا وعن رحلة البحث التي نقوم بها. إن أحداث ومسار رحلة هيلغولاند بالنسبة إلينا في هيئة التحرير رواية حية متسلسلة. يمكن القول: نعم، صحيح أننا بصدد البحث عن المهندس اندريه، ولكننا وجدنا ما بحثنا عنه طويلاً.. وجدنا الجديد».

في شبابه كان شوبس يعمد كثيراً إلى اقتباس أسلوب غوته في مراحله الأخيرة، ولم تبق من هذا الأسلوب لديه سوى عبارة «والآن إلى الأمام»، التي ينهي بها المؤتمرات، كما فعل اليوم أيضاً. ظهرت ملامح الود والبشر على وجوه السادة المؤتمرين.

إذا كانت العملية على كل هذه الأهمية لجريدة برلين المحلية والصحافة الألمانية عموماً، فلماذا لم يسافر رئيس التحرير إلى غيستِه موينده لكي يكون مع الملاحين، ويكتب عن هذا الحدث العظيم حين ترفع السفينة الياطر، وتشغل محركاتها البخارية؟ لم يكن لرنر يخشى أن يدخل رئيس التحرير إلى مخزن السفينة، ويكتشف أكداس الخشب المتراكمة، إلا أنه يفضل ألا ينظر في عيني الرجل الذي لا ينقطع عن الحديث عن المهندس أندريه. لا بد من وجود استقلالية شديدة وثقة عالية بالنفس، كي لا يحيد الطرف عن وجوه الناس، ليس من أجل ألاّ

يضطر إلى الكذب، وإنما ليتمكن من إخفاء النية الحقيقية للرحلة.

قالت السيدة هانهاوس: «إذا عثرت على المهندس أندريه في زاوية ما، ألن تحمله على ظهر السفينة؟ إذا وجدته على جزيرة الدببة، خائر القوى، ولا يحميه من وعثاء الطقس سوى منطاده المفرغ من الغاز، ألن تغذيه وتقويه وتلبسه وتنزله في قمرتك؟ يكفيك شكوى أننا في الحقيقة لا نريد إنقاذ أندريه. طبعاً نريد إنقاذه، شرط أن نلتقيه. إذا كان حكيماً بما فيه الكفاية، وسقط بمنطاده المنخول على طريق رحلتك، فإنك ستنقذه بشجاعة الأبطال. هل تعرف مساحة القطب الشمالي؟ بمساحة أمريكا ربما! وهل تعرف إلى أي مدى يمكنك الاقتراب في هيلغولاند من بحر الجليد؟ لن تقترب منه كثيراً، يا صديقي الطيب. وهذا ما يعرفه السيد شوبس في مكتبه البرليني».

لو أن شوبس رأى السفينة. لقد كانت صغيرة جداً، لدرجة أنها بثت الخوف في قلب لرنر، عندما تفكّر في أنه يتوجب عليه أن يقضي عدة أسابيع في أعالي البحار على قشرة الجوز هذه، في ظل وجود أربعة عشر رجلاً يقرفصون معاً ليلا نهارا على هذا الصندوق الخشبي وهو يتأرجح على الأمواج العالية تحت رحمة السماء، بينما تتحول قطرات المطر تدريجيا إلى كريات ثلج كلما تقدمت الرحلة أبعد.

لقد كانت السفن التي قطع بها ايريك الأحمر، المسافة من النرويج إلى أمريكا، أصغر بكثير من هيلغولاند، «كما أنه لم يكن فيها صالون دافئ»، علق القبطان روديغر بكل مرح كأسد البحر في وجه جرذ اليابسة. كان على لرنر أن يمسك بقبعته الكروية، بقوة كي لا تطير عن

كتفيه في ميناء الصيادين غيستِه موينده، حتى قبل الانطلاق. الرباط القوي من اللباد الخشن، الملتف على جبينه كالخوذة، كان سندا للرأس. لم يعد من مجال للتراجع. فقد توجهت أنظار كثيرة إلى العملية، ما يجعل التراجع فضيحة وإثماً لا يغتفر. كانت السيدة هانهاوس تعلم أن عليها ألا تضع الشاب، الذي اختارته ليصبح بطلاً، أمام امتحانات مبكرة وعسيرة. لم يعرف لرنر من هو الذي وفر عليه اللقاء بشوبس في الأيام الأخيرة. ولم يعلم قط أن إحدى زعيمات رحلة جزيرة الدببة، هي الآنسة بوبا شميديكِه. فهذه منعت على شوبس، السفر إلى غيستِه موينده من دون مبررات واضحة وألمحت بعواقب محتملة حال لم يطع أمرها. ولهذا اكتفى بإرسال برقية.

وفي تلك الأيام، أرسلت برقيات كثيرة. حتى أن الموظف المسؤول عن تلقي الرسائل وتسليمها، وجد نفسه فجأة في عين زوبعة تاريخية هوجاء. أقنعت السيدة هانهاوس لرنَر بالكتابة إلى مستشار الرايخ الألماني. فحسب كلامها يجب تنبيه الرأي العام والدوائر العليا، أعلى الدوائر، لأحداث قادمة لها أهمية سياسية لا تقارن، تتجاوز كثيراً مسألة مجرد عملية نبيلة لنجدة المهندس آندريه، الذي يتحمل بذاته بعض الذنب في ما جرى له. إن البحث عن أندريه يجري في منطقة غير مأهولة، إلا أنها ذات أهمية قصوى للرايخ الألماني لوجود أساطيل صيد الأسماك الألمانية هناك، بالإضافة إلى تطلعات قومية عليا. إن خير «استطلاع بحر القطب الأوروبي» وعملية البحث عن المهندس أندريه ونجدته، ستعم المطامع التجارية لرجل الأعمال الألماني. وحيث يحل البحارة

على البر، فمن حقهم أن يجنوا الثمار المتوافرة حسب الموروثات المحلية. وأي ثمار تُونع قرب الجليد الأبدي؟ أصرت السيدة هانهاوس على كتابة هذه الجملة تحديداً. رأى لرنر أن العبارات المقتضبة وعالية الطموح في الآن ذاته، تكاد تكون أوامر موجهة إلى سعادة المستشار، فكيف سيرد سعادته على هذه التحية النابية؟ لم يردّ إطلاقا، أو لم يرد على الأقل حتى موعد الانطلاق. وكأنها تتكفل بإيصال الوثيقة إلى المستشار حقا.. دفعتها السيدة هانهاوس من فورها إلى «الصحافة»، إلى أربعة من الصحفيين الذين تناهبوا الخبر، وأفادت أكثر من مرة بأن تخصص تصريحاتها لجريدة برلين المحلية.

أشد المخاطر على الرحلة، كانت متوقعة من ناحية القبطان روديغر. ما كان في وسع الرجل أن يسد فمه يوماً آخر. معرفته بسرّ لا يعرفه رئيس التحرير نفخته، كأنما بالغاز، ورآه لرنر سابحاً وراء المهندس أندريه إن لم ينفجر على الطريق إليه. بنظرات وحشية كان القبطان العجوز يتطلع حوله، مستعيداً شياطين شبابه، ويتبسم ابتسامات فاضحة ومهينة، حين تذكر أمامه أسماء المهندس أندريه، جزيرة الدببة، شبيتسبرِغن أو ما شابه. أثناء حفلة الوداع في نزل هانزِه كوغِه، التي لم تحضرها من النساء سوى السيدة هانهاوس والسيدة فريستفورست، زوجة رئيس بلدية غيستهِ موينده، كاد روديغر يقدم على إزالة كل الحواجز والروادع من خطابه، وهذا ما لاحظه كل من عِرفه، ولكنه قبل أن يرفع صيحة هورا ثلاث مرات على شرف جزيرة الدببة، توجست السيدة هانهاوس الجالسة بجواره، فقامت بحركة احتفالية موسعة بين ذراعيها، ودلقت

بيدها الطويلة كأس النبيذ الأحمر أمام القبطان، حيث سال حوله سائل بلون الدم. لم يعهد نزل تسور هانزِه كوغِه المتواضع، مثل هذه الصيحة الاحتفالية لأبناء المدينة الكبيرة منذ زمن بعيد.

بينما يرتعش بدن لرنر، ليتدفأ بين الأغطية الرطبة، ثم أغمض عينيه وغط في النوم. التقط حصاد الأيام الأخيرة، كما يحفظها له الحلم. رأى نفسه يتجول مع القبطان روديغر بين رمال الصحراء، التي تموجها نحوهم رياح عاصفة تلصق ثيابهم بأجسادهم. والسيدة هانهاوس التي لن تسافر معهم (فهي ستنطلق منذ الغد إلى هامبورغ لزيارة السيدين بورخارد وكنور، كي تدشن للمستقبل أساساً قوياً) تغرق حتى كاحلها في الرمل، ولا تتقدم خطوة واحدة، لكنها تظل قريبة منهما. تيقن أنهم يسيرون نحو القطب الشمالي، ولكنهم لا يستدلون على الطريق، ثم ظهرت في الأفق مدينة خراب، مجموعة من الأكواخ الخشبية مشرعة النوافذ. هل هذا هو القطب الشمالي؟ لم يرد عليه روديغر مع أنه يعرف الجواب، ما خيب أمل لرنر. ثم نهض في البعيد أناس كانوا مستلقين بين أمواج الرمل، وتقدموا نحوهم في سيل من البشر المرهقين، شائبي الشعر، يهتفون لهم: «لم يبق هنا شيء، لقد رحل الجميع».

بعد أن أقلعت سفينة هيلغولاند في الصباح التالي باكراً، وتقلص هيكل السيدة هانهاوس الملوحة بالمنديل شيئاً فشيئاً، مرت بهم سفينتا صيد محملتان بأكوام من سمك فضي يرتعش ويتلألأ تحت أشعة الشمس البيضاء. نظر إليهما لرنر متحسراً. فقد أنجزتا مهمتهما وهما في طريق العودة إلى الوطن.

-7-

خوابير بالأسود والأبيض والأحمر

من سفينة هيلغولاند، تبدو جزيرة الدببة أرخبيلاً صغيراً. هل هي ألسنة بحرية للجزر أم مجرد جُزَيرات ضئيلة؟ وضع القبطان روديغر أمامه خارطة البحر، آخر الخرائط المستحدثة. كانت بعثة سويدية قد مسحت المنطقة، وحددت مواقع المراسي على جزيرة الدببة. وإذا وضع أحدهم ثقته في الأرقام الصغيرة الموزعة على الخلجان، فيمكن إرساء هيلغولاند بكل هدوء، لكن روديغر لم يقنع بفنون المناورة، فمن يعلم إن كان السادة السويديون قد نسوا جرفاً ما أم لا!

«إذاً هذه هي جزيرة الدببة!» مرت هذه الفكرة في رأس لرنر، حين الوصول إلى المكان المحدد لمصيره، مرتدياً قفطاناً من اللباد لا يزعجه، رغم أنه في شهر حزيران. كم من الكتب قد استطلعها مع السيدة هانهاوس في مكتبات الجامعات، وقاعات القراءة المخصصة للنساء! وكم حلم بما سيفعله، حين وصوله إلى الجزيرة وكيف يتصرف. لحسن الحظ كان تأثير السيدة هانهاوس على روديغر قوياً جداً، فظل رهن إشارتها لا يحرك ساكناً حتى لحظة الإقلاع. لم يكن من السهولة البتة، ربط عقال ابن الشمال العنيد بروحه المتمردة. للأسف لم تشارك السيدة هانهاوس في الرحلة، بل انطلقت عقب إقلاع السفينة إلى هامبورغ، لتغزل خيوط الجبهة الداخلية، كما قالت، في عبارات نموذجية تجمع بين كلمات الرجال المحاربين، والنساء المسالمات، ولهذا فلتت روح

روديغر ما أن رأى جزيرة الدببة، وعاد إلى طبيعته القديمة، التي لا تأبه بأحد وتركب رأسها العنيد. ولرنر يعلم تماماً عجزه عن خرق طريقة تفكير القبطان روديغر. هل جرت هنا معركة بحرية لها قيمة، أم أن القبطان يستطلع المكان والزمان متوقعاً معركة؟

كان لرنر مهتاجا للرسو على الجزيرة، ولكنه في الآن ذاته متهيب من طموحه الباسل. وقف على طرف السفينة وبحث في داخلة المتجمد عن جواب للمنظر الذي يراه. ما شكل جزيرة الدببة؟ هل تختلف عن الجزر الكثيرة التي مروا بها؟ من المؤكد أنه لا توجد في هذه الأصقاع أشجار وزهور وأنهار ومنازل. وعدم وجودها هو في النهاية سبب انطلاقه نحو الشمال، فلا يمكن فتح مناطق مسكونة. بديهي.. هل يتوقع سلاسل جبال نمطية، جبالاً غريبة التشكيل، وصخوراً مغناطيسية كالتي تحطمت عليها سفينة سندباد؟ ربما رغب في سره بمثل هذه المعجزات: كهوف دببة، صخرة تشبه رأس الدب القطبي، خليج ينذر هدوؤه بالخطر، فوهة مغارة صناعية، مدخل يقود إلى العالم السفلي، تتلاطم عليه الأمواج وتصدر صخباً مرعباً.

وعوضاً عن كل هذا كانت الجزيرة التي رآها من أقل الجزر إثارة. صخورها رمادية كالحة، لكن العشيبات المتسلقة على الصخور بدت في عينيه رمادية. صحيح أن خطوط الأرض تعلو وتهبط قليلاً، ولكنها لا توحي بأي سر عظيم، ومن السهل جداً رؤية كامل عالم الجزر القميئة بنظرة واحدة. الخرائط السويدية ولدت بأساطيرها الشاردة انطباعا باحتمال وجود حضارة ما على الجزيرة، ما يعني أن البر قد يكون

مسكوناً، بخلاف التوقعات. الخرائط تذكر «مرفأ العمدة»، وتشير إلى كوخٍ ومرصدٍ على مرتفعٍ وقبرٍ على مسافة غير بعيدة عنه. إذاً فقد وصل بشر إلى الجزيرة قبلهم.. ماتوا عليها ودفنوا فيها. على هذه البقاع الجرداء المغتسلة بماء داكن، ستكون علامات الحياة الإنسانية مثل الآثار التي تتركها مناقير الطيور البحرية على الصخور. المرصد سيكون موقعاً مثالياً، ومرتفع القبر لا بد من أنه اندثر في المحيط الميت. هل كانت الرحلة إلى هذا المكان الموحش جنوناً، كما شعر حين بدأت السيدة هانهاوس بالتخطيط للمشروع؟ ما الذي ستقوله لو رأت هذا العدم؟

جعله الخوف، الذي دخل قلبه فجأة، فيلسوفاً. القحط واللاجدوى علامتان بيّنتان على العدم والفناء، حتى لو كانت الطبيعة تخفي أطناناً من الأحجار الكريمة.

«ليس لدينا ما نفعله هنا إطلاقاً»، قال روديغر، الذي يصر بإرادة حديدية على تناول وجباته الثلاث في مواعيدها المحددة. فقد بلغت الساعة السابعة مساء، رغم أن الدنيا منيرة كالظهر. وهذا الضياء الحليبي الدائم يساهم مساهمة فعالة في تفتيت حماسة وإرادة لرنر، فلم يكن قادراً على النوم من دون ظلام، ولم يكن اسكندنافياً يطير عقله فرحاً لمرأى نهر النور بعد أشهر طويلة من العتمة. حين اجتمعوا في الحجرة الخشبية الصغيرة، ذات الكوى الكثيرة («الصالون»، حسب تعبير أهل البحر) التزم لرنر الصمت، بينما أخذ روديغر يفرك يديه فرحاً بالإقدام على عمل ما. تكفل بصب الحساء، الذي يتصاعد منه البخار.

«بالنسبة لابن البحر الألماني، إن الاستيلاء على أرض جديدة وضمها

إلى أرض الوطن، لحظة استثنائية»، قال روديغر وهو يدس المغرفة في قِدر الحساء. منذ أن رأى هذه الأرض القاحلة، لم يعد الاستيلاء واجباً قابلاً للتحقيق في رأي لرنر. كيف يستولي أحد على شيء دون أن يشتريه أو يرثه أو أن يقدم له على سبيل الهدية؟ ألا يفترض وجود طرفين في عملية الاستيلاء، عدو على الطرف الآخر نقاتله ونسلبه ما يملك؟ القيصر المصروع ارتمى على الأرض في مصر.. مد ذراعيه فاقداً الوعي.. تشبث بالأرض بيديه، وهو يصيح: «أفريقيا، أنت لي». هذا ما جاء في درس اللغة اللاتينية. فهل تتضمن وقائع الرومان المندثرين، وصفات تقلب أحوال الدنيا؟ هل يتوجب على لرنر أن يستلقي غدا على جزيرة الدببة ويحتضن أسلابه بيديه كما فعل القيصر؟

هل تأخر وقت التراجع؟ أليس في الإمكان العودة إلى مسألة البحث عن المهندس أندريه، لضمان الإرادة الطيبة، والهدف النبيل على الأقل؟ حتى لو كان المهندس قد سقط على جزيرة الدببة، فإن مصيره لا يبشر بالخير، فهل يتغذى على الفحم؟ وماذا لو لم يكن الفحم متوافراً على الجزيرة إطلاقاً؟ لم يعرف لرنر من قبل، سطوة الشك هذه البتة. تحدث روديغر كرب أسرة جبار، يبهّر الطعام لصغاره بحكايات يرويها لهم على المائدة. أما بالنسبة للرجال، فلم يكن أسلوب روديغر العسكري مقبولاً في أسرة واحدة. فعلى سطح هيلغولاند لا تأخذ الحياة مجرى نظامياً. الربان صامت بجميع الأحوال.. لم يَرُد على تغيير مسار الرحلة سوى بإبداء الدهشة، فما دام قوته مضموناً، فالرجل مستعد للذهاب إلى آخر الدنيا. وقد أصغى بلامبالاة حتى حين روى روديغر وعيناه

مغرورقتان بالدموع، رحلة كريستوفر كولومبوس، الذي وضع قدمه على جزيرة إسبانيولا، وأمر كاهن السفينة بإقامة صلاة، ثم نصب صليباً في أرض غريبة، واستولى على الجزيرة، بإعلانٍ احتفالي تحت أشجار الغابات البدائية وصياح طيور الببغاء، بكل ما فيها من مرتفعات، وسهول، وطول وعرض، وثروات سطحية وباطنية، ومدن، وقرى، ودساكر، وأحرار وعبيد، في سبيل ملك وملكة إسبانيا. فبصرف النظر عن كل هذا، لم يكن على سطح هيلغولاند كاهن. وعوضاً عن صليب كولومبوس، أخرجت في الفترة الأخيرة الخوابير، التي أتوا بها وصبغوها بالأسود والأبيض والأحمر. أعد رجل له خبرة في الرسم لوحاً جميلاً، باللغة اللاتينية.. لغة العالم المتحضر، لا بلغة الدهماء، كما أمر لرنر. «ملكية خاصة لمواطني ألمانيا تيودور لرنر، وهوغو روديغر. 13 حزيران 1898». وكتب على لوح آخر: «يمكن الاطلاع على وثيقة ملكية هذه الأرض للألمان في كومة حجارة على الشاطئ، تُترَك لحماية كل الحقوق القانونية المترتبة».

كان هذا في منتهى الوضوح. ورأى تيودور لرنر أن لا شيء يقوم على إرادته وحده. كان له أن يترك الباقي في عهدة الجندي المطرود إلى حياة المدنيين. كانت غريزة السيدة هانهاوس سليمة، عندما قالت لهما، كلمات ضيّقت صدر لرنر: «أنتما فريق جيد».

لكن من يسيّر هذا الفريق. استلقى لرنر في قمرته، وترك مسألة الخطاب إلى مجتمع الطاولة لروديغر. ارتفعت الأصوات حوالي منتصف الليل. أدلى مولمان بكلمات حادة لم تنل رضا روديغر. كان الخارج لا

يزال منيراً. غفا لرنر، وفوت بذلك أجمل لحظات احمرار الشمس في الأفق، واستحمامها لدقائق عديدة في البحر. وهذا كان كل الليل، فقد أشرقت الشمس من جديد. الطيور البيضاء، المجتمعة في سرب عملاق على حجارة الجزيرة، دست رؤوسها تحت أجنحتها، ونفضت أجسامها فمرت بينها موجة خفيفة.

بعد هدوء ضعيف، جمع الفطور القوي، المؤلف من اللحم المشوي والقهوة، السادة في الصالون من جديد، ثم أُنزل قاربان إلى الماء. مُلأ أحدهما بالخوابير الملونة والمجذفين، وفي الآخر جلس لرنر، القبطان روديغر، مولمان وبحاران. وعندما وطأت أقدامهم البر، طارت الطيور، وارتفعت طقطقة مناقيرها في الفضاء.

على البر بدا لهم أن الجزيرة مختلفة كل الاختلاف عما شاهدوه من السفينة. فما ظنّوه سهلا بسيطاً أول الأمر كان سفحاً جارفاً، وفجأة بدت الجزيرة واسعة شاسعة. شعر لرنر بأن خضرتها الحجرية معطف آخر خشن فوق معطفه اللباد. ووراء المرتفع شاهدوا الكوخ المرسوم في الخارطة. لم يبق منه الكثير.. السطح متهدم، وكأن يداً هائلة هوت عليه. وكأن الكوخ الخشبي من خيال الأساطير في أحضان الطبيعة الجرداء، المتروكة لنفسها.

ببطء صعد لرنر المرتفع. من الأعلى تشكّل الجزر الصغيرة المبعثرة مرافئ حصينة. شاهد أسفله مرفأ طبيعياً برصيف صخري ضيق. إذا ربطت الجزيرتان المتطرفتان معاً، فمن الممكن تحميل سفن الشحن الكبيرة، وهو ما يشاهده الناظر من الأعلى فوراً.. لقد هيأت الطبيعة

نفسها بحنان الأم للتجارة.

حين تقف على جزيرة الدببة تراها تأخذ شكلاً محدداً. خلف لرنر مرتفعات أخرى. سطح الجزيرة يمتد مثل جلد مشدود، يخفي تحته سراً ما. سار وسمع تحت حذائه صرير الحجارة المتينة والمليئة بالبشرى. زال خوف الأمس من قلبه. لقد صارت جزيرة الدببة في ملكيته. إذاً فقد سمى السويديون البلهاء هذا الخليج باسم «مرفأ العمدة». وقريباً ستصبح الحاجة ماسة إلى عمدة حقيقي، بعد أن يعمل فيه خمسمائة رجل على الأقل. دق أول الخوابير على الشاطئ.. نقل الهواء إلى أذنيه طرقات الرجال بدقة جافة، وكأنها تصدر عن ألعاب مصمتة. لا، يجب ألا تستعمر الجزيرة كلها. هل يجدر حقاً تأسيس مستعمرة ألمانية في بحر الجليد، كما يتصور القبطان روديغر؟

مساء كتبوا في «الصالون» ما سموه «إعلان الملكية». «الحدود الجنوبية تقع على الحافة الجنوبية للمرفأ الجنوبي، وتمتد قليلاً نحو الغرب إلى المرتفع. من هذه النقطة الغربية للحدود الجنوبية، ذات الاتجاه المغناطيسي شرق غرب على وجه التقريب، تمتد الحدود الغربية إلى داخل الجزيرة باتجاه الشمال نحو 650 متراً تقريباً. الحدود الشمالية تمتد من هذه النقطة الشمالية للحدود الغربية نحو الشرق حتى حافة الجبل المنحدر بشدة نحو البحر. وبهذا فإن العقار على شكل متوازي أضلاع، ويتعلّق به في الجنوب الشرقي شبه مثلث. وتتراوح مساحته الإجمالية بعد حسابات تقديرية بين خمسين وستين هكتاراً».

حدد القبطان، بصعوبة، الموقع الجغرافي. اختفت الشمس، ولكن

الظلام لم يحل، وتلبدت السماء بغيوم داكنة. لفوا نسخة من الإعلان المشترك، عليها توقيع لرنر وروديغر، ووضعوها في زجاجة كونياك أفرغوها بمناسبة الفتح العظيم. ووضعت الزجاجة بين كومة حجارة على الشاطئ، نصب فيها خابور بالأسود والأبيض والأحمر وعليه لوح، حيث أخذ نورس مكانه. انتشرت الخوابير الملونة في كل مكان وعلى كل منها طير أبيض. ترنح السادة قليلاً.. لم يكن القبطان يتحمل الكثير من الشراب، ولم يكن الابتعاد عن المنظر المهيب سهلاً. جذفوا في البحر الفضي المتلألئ نحو سفينتهم، وعيونهم معلقة على جزيرة الدببة.

-8-

خطر المؤمنين بالقديم

الصباح التالي لفتح جزيرة الدببة.. وهل يجوز الكلام عن الصباح حين يسود الضياء الأبيض ذاته، كما في منتصف الليل ولا سبيل إلى معرفة الوقت المقتول بالنوم سوى من خلال دقات الساعة؟ ارتدى لرنَر معطفه اللبادي فوق ثياب النوم، فلهذه الدرجة كان متحفزاً وخرج إلى طرف السفينة بالخف، لينظر إلى الجزيرة المرتمية كقطعة معتمة في مرآة لامعة. كان شعب الجزيرة، سرب الطيور البيضاء، متجمهراً على طول الشاطئ بأعداد أكبر بكثير مما كانت في الأمس وينظر بآلاف العيون إلى الجهة ذاتها، ليس مباشرة إلى سفينة هيلغولاند، لكن بدا لتيودور لرنر أن الشعب بانتظاره ليعلنه حاكماً جديراً عليه. كأنه سمع دوياً (ولم يكن سوى الخرير الرتيب للماء والهواء) ارتفع السرب المحتشد وطار عالياً فوق الجزيرة، كشراع تنفخه الرياح، قبل أن ينتشر في شتى بقاع الأرض.

وبهذا بدت الخوابير بالأسود والأبيض والأحمر، واضحة للعيان، ترسم طريقاً تقود عميقاً إلى عمق الجزيرة، وتعود في نهايته القصية جداً عن منطلقه. الخوابير عنصر موضوعي، وضعه لرنر ورروديغر. لم تعد الحياة على الجزيرة كسابق عهدها. كل الكائنات التي تتحرك عليها وتنمو، وكل ما يرقد في جوفها وينتظر البعث، لم تعد موجوده لمجرد الوجود، بل صارت في عهدة تيودور لرنر، والقبطان هوغو روديغر،

نوعاً ما، مع أن هذا الأخير غير جدير بملكيتها، كما بدأ لرنر يظن.

اشتهى لرنر أن يضع قدمه مرة أخرى على أرضه الجديدة. فالخلاف واسع جداً بين استحواذ سبعين هكتاراً في بقعة ما من ألمانيا، قرب فرانكفورت أو فيتراو مثلاً، واستحواذ المساحة نفسها على جزيرة الدببة. الجزيرة مملكة متفردة، قائمة وحدها، معزولة عن كل ممالك العالم، وتحرسها روح البحر. لا تعدم جزيرة الدببة الأثر كما ظهرت له أمس. فقد أطال المكوث فيها، وصعد جبالها، وسمع صوت حصاها تحت حذائه، ونظر من جرف ساحلها إلى مياه بحرها. صارت الآن شيئاً خاصاً.. مكاناً لا يعوض بغيره، ولا بديل عنه. لمرتفعاته كثافة، لسفوحه خشونة، ولسهوله تحدبٌ خفيف كغطاء القِدر. يصدر منها أحياناً صوت يبشر بوجود مكامن ثمينة، حيث طرق بعكازه على بعض نتوءاتها. هذا إضافة إلى الفحم، الذي لم تكتشفه الجمعية الألمانية لصيد السمك في أعالي البحار وحدها، بل البعثة السويدية التي يعود لها الفضل في رسم الخارطة، وكذلك البعثة النرويجية التي قرأ تقاريرها، وكلهم سادة محترمون وضعوا جهودهم في خدمة العلم المجرد، والفحم يضيف إلى منظر الجزيرة شيئاً غير مرئي، لكن لرنر بدأ يراه بكل وضوح، وحلق بخياله بعيداً نحو أحلام لذيذة.

والفحم في النهاية ليس إلا خشباً تعرض للضغط على مدى آلاف السنين. وهذه الجزيرة ليست مجرد صخرة صماء في بلاد سائبة، بل لها تاريخ طويل.. تاريخ أعظم بكثير من تاريخ سلالة مشبوهة ما، ومرت عليها كوارث وكوارث أكبر من مجرد ثورات البراكين والمجاعات

والحروب. هنا نمت غابات استوائية بدائية، وهنا نبت نخيل عملاق وهفهف هواء دافئ.. هنا ارتفعت ذرى أشجار المانجو. وبواسطة النباتات المتسلقة، تشابكت جميع أصناف الشجر في هذا الغابة. ومشهد الجزيرة القاحل في العصر الراهن تعبير بليغ عن البسالة. فكل العواصف والأعاصير التي مرت على شبكة الغابات هنا، لم تستطع رغم جبروتها تدمير الحياة على الجزيرة نهائياً. لقد استمرت الغابة في عمق الجزيرة على شكل كريستالات لامعة أسمى من الخشب الوضيع وفوق هذا الكريستال، في عالم متقلب تحت سماء جليدية قارسة، نشرت النباتات الزاحفة، وذات الوريقات الإبرية، شبكة من المحلاق الرقيق على الصخور الجرداء. وإذا انحنى عليها المرء ودقق النظر فسوف يكتشف أن لأوراق هذه الأشجار بعض الصبغات اللونية أيضاً. فالأوراق القوية، الشبيهة بالفراء، رمادية اللون من بعيد، وتتألف في الواقع من وريقاتٍ سوداء كالفحم، حمراء كالأرجوان، صفراء كالزعفران وزرقاء قاتمة كالنفط. بل إن براعم دقيقة تتفتح بين الحين والآخر، وفي معايير الطبيعة ليس هذا سوى فرق نسبي لغابة الجزيرة عن الغابات الاستوائية المندثرة. لقد تفتحت على الجزيرة براعم النباتات العملاقة قديماً، كما تتفتح اليوم البريعمات الصغيرة. لا خلاف بينها من حيث المضمون، وما على المرء إلا أن يدقق النظر ليرى هذه الحقيقة. وإذا غاص في خط سلسلة الجبال على الجزيرة فسيجدها معمورة بالحياة، بالنوسان والذبذبات. فالآن مثلاً ينحلّ عنها جسم رمادي متحرك، كأنها تتمطى.

وفعلاً ابتعد شيء رمادي عن الجزيرة.. لم تكن جزيرة الدببة تتمطى

كما تصور لرنر، بل خرجت من ورائها مقدمة سفينة فولاذية.. خرجت من كواليس الجزيرة سفينة داكنة فولاذية، ترفع علماً عليه نسر مزدوج، وعلى مؤخرتها مدفع تلمع أجزاؤه النحاسية وعليها حركة شديدة. بحارة في ثياب بيضاء يتراكضون على سطحها.. انفصلت السفينة كلياً عن اليابسة، وسبحت بكامل أبهتها إلى جوار هيلغولاند. مع صيحات عالية، وصريرٍ قوي أنزل الياطر، الذي ارتطم بالماء المتجمد. من بعيد كانت أصوات الرجال تشبه أصوات طيور البحر لعلوها وخشونتها.

التحق القبطان روديغر بلرنر مرتدياً قبعة القبطان على رأسه الأصلع، وممشطاً شعر لحيته الكثة.. نظر من خلال منظاره وقطّب جبينه.

قال: «السفينة الحربية سفيتلانا. إنها من مونمارسك. حان وقت تجريد السيف».

لم تتنازل السفينة الفاخرة، للتواصل مباشرة مع سفينة الصيادين الوضيعة هيلغولاند، بل أنزلت زورقاً ركبه اثنا عشر رجلاً، بحساب روديغر، بينهم ضباط، أديت لهم التحية العسكرية.

قال روديغر: «احلق ذقنك، يجب أن نكون الآن على جزيرتنا.. هذا أوان الشد».

فكر لرنر: ربما كان رجال الجيش متقدمين بخطوات كبيرة في مجال الفتوحات والعمليات الحربية التي لا يفهمها المدني. وبدأت المسألة بالزي.. سيرتدي لرنر، في مواجهة الروس، حلته الرياضية البنية، وعلى الرغم من أن المعطف اللباد فيه إيحاء ضعيف بثياب الجنود، إلا أن القبعة الكروية، التي رافقته نحو الشمال القارس، تشكل تاجاً مدنياً بحتاً.

والروس يرتدون أزياء بيضاء ضيقة، وأحذية لماعة وقبعات بحارة. بلمح البصر نصبوا خيمة بناء على أوامر السادة، وبذلك سيضطر الغزاة إلى دخول منزل الأعداء. هذه الفكرة لم تعجب القبطان روديغر. فقد منحته لحيته الكثة هدوءاً داخلياً، ثم إنه كان عليماً بالجهاز العسكري.. هذه الخطوات الثقيلة معبرة عن الطاعة والقوة، وهذا السحر الهرمي، يمنح مظهر العظيم قوة قاصمة، كما كان روديغر يشعر بأن وراءه الأسطول الألماني الذي اضطر لمغادرته عندما بدأت الحياة تنبعث فيه. ألا يجدر بأن يطبق على الضباط المقالين قانون الكهان المطرودين من الكنيسة فيستعيدون بموجبه مكانتهم تدريجياً بمرور الزمن؟ قبالة العدو، رأى روديغر في نفسه بالدرجة الأولى ضابطاً من واجبه دفع الشرور عن المصالح الألمانية حتى وإن كانت بعيدة عن الوطن الأم.

استقبل القبطان الروسي السادة الألمان بمودة. نصب الكراسي أمام جدار الخيمة الرمادية، الذي يوقف الرياح المصفرة بعض الشيء. كما أن زجاجة الكونياك كانت جاهزة.. انتشر الجنود الروس على الجزيرة بيد أن القبطان التفت إلى ضيوفه باسم الوجه، وهادئاً. كان اسمه بوريس فيودوروفيتش آباكا، ونطق الاسم بنبرة ألمانية قحة، فقد كانت أمه ألمانية.

«القبطان روديغر، لرنر»، عرّف الألمان بأنفسهم.

«روديغر؟»، تساءل القبطان الروسي، وأضاف أن أمه كانت تنزل في بنسيون عند عائلة روديغر في مدينة شتيتين. فقال القبطان روديغر إن هؤلاء بيت جده.

«إذاً علينا شرب نخبهم»، قال القبطان الروسي، وفتح زجاجة الكونياك. كاد روديغر يرفض الدعوة ويبدأ بإعلان الحرب، لكن لرنر سبقه ومد يده إلى الكأس. فنظراً لتناسب القوى، فضل أن يدخل في المفاوضات أولاً. اضطر القبطان روديغر أن يتجاذب أطراف الحديث عن عائلته، سواء عن رغبة أم لا. القبطان الروسي، الرجل ضخم الجثة، عيناه حمراوان ومنتفختان، ومتعرق الشعر رغم البرد القارس، أصغى بمطلق الجدية والصبر إلى كل حرف، وأبدى شديد الأسف لوفاة روديغر الجد، معقباً، بعد برهة قضاها محدقاً في البعيد، أن أمه أيضاً توفيت. شعر لرنر ببعض القلق من أن ينفجر القبطان آباكا بثورة غضب إثر تذكر وفاة أمه.

لكن عوضاً عن هذا أشار الروسي بيده الثقيلة، وقصيرة الأصابع، إلى الهضبة وتنهد، ثم علق أن ما يرغم الإنسان على تحمله ثقيل جداً. فقبل مائتي عام رست هنا سفينة روسية قادمة من ساحل مورمان، ومنذ ذلك الوقت استوطن الروس جزيرة الدببة.

أدلى القبطان روديغر بملاحظة: «هذا مستحيل.. جزيرة الدببة غير مأهولة منذ الأزل».

نظر إليه القبطان آباكا، وظهرت الغطرسة على ملامحه الثقيلة: «أين سرحت جنودك، يا سيدي القبطان؟» سأل وفي نظرته بعض التهكم.

جاوب روديغر بفخر وإجلال أنه الآن لا يتكلم بصفته ضابطاً ألمانياً، بما أن هذه الصفة موقوفة هذه الأيام. أمس استحوذ مع السيد لرنر على سبعين هكتاراً من الجزيرة، وسور ملكية الرعايا الألمان بخوابير تحمل

ألوان السيادة الألمانية والسيد القبطان آباكا يرى أحد هذه الخوابير أمام عينيه مباشرة.

«نعم أراه»، أحنى آباكا رأسه متفكراً؟ ما الذي ستؤول إليه هذه الخوابير بعد رفع العلم الروسي؟ «خشب تدفئة؟». خرج هذا التعبير شعرياً وسوداوياً من فمه. لقد حرر آباكا نفسه من المسائل الخاصة وبدأ بعرض وجهة نظره حول الشؤون القانونية.

«اسمعوا، يا سادتي الموقرين، السيد القبطان والسيد النبيل (هذا اللقب وجه إلى لرنر)، حيث دفن روسي فإن الأرض روسية.. هذا قانون أزلي. طبعاً لا يسري هذا القانون، وأنا أتفهم اعتراضكما هنا، على درسدن وباريس، لكن هذا القانون جائز منذ الأبد على جميع مجالات سيادتنا المباشرة».

قال لرنر بمكر وهو يعلم أن العكس صحيح: «هنا لا توجد قبور» وأردف روديغر: «لا شك، أننا نعترض كل الاعتراض على هذا الرأي».

«كيف لا يكون هنا قبر إذا انطلقت عام 1687 سفينة محملة بالمؤمنين بالقديم إلى هذه الأنحاء؟» سأل القبطان آباكا بصبر وأناة، ثم عقب: «بالمؤمنين بالقديم إلى هذه الأنحاء، سفينة شهداء. أنتم سمعتم بهؤلاء الناس، أليس كذلك؟ لقد أحجموا عن قبول أي إصلاحات دينية وظلوا على عهد آبائهم في رسم إشارة الصليب بإصبعين عوضاً عن ثلاث، كما أمر جميع الأساقفة الصالحين في حركة الإصلاح. وفي سبيل هذا خلفوا وراء ظهرانيهم كل أملاكهم، قراهم، بيوتهم، وكنائسهم، فهم

لم يطيقوا كهنة الإصلاح.. تحملوا العقوبات المفروضة عليهم، وتحملوا السلب والنهب، كما تحملوا النفي، وكل هذا من أجل إصبع واحدة. يجلسون في الكنيسة، ولكنهم لا كاهن لهم.. يصلّون ويهفون إلى أن يخرج لهم ملاك من الأيقونة ويصلي كما في السابق، يرسم إشارة الصليب بإصبعين. يا لعنادهم، يا لحماقتهم».

«لكنهم لم يرسوا على جزيرة الدببة»، هتف لرنر.

«على العكس. نزلوا هنا تحديداً. هناك، في الأعلى يوجد قبر».

قبر! كان ذاك كومة حجارة كالتي دفنوا فيها زجاجة الكونياك بوثيقة الملكية ولم يكن عليها أي اسم.

أومأ القبطان آباكا عابساً: «هكذا هي قبور المؤمنين بالقديم ... كم كانوا عظماء. لقد عاقبتهم روسيا وركلتهم، لكنهم ضموا أرضاً جديدة إلى روسيا ولو بأجداثهم المعذبة».

سأل القبطان روديغر بحنق: «كيف ستبرهن على أن العظام المدفونة تحت هذه الحجارة، هذا إن كانت تحتها عظام، تتكلم بالروسية؟»

قال القبطان آباكا: «يا أخ، أمهاتنا كن يحببن بعضهن بعضاً».

حل الصمت. فقد شلت الدعوة إلى الحب الرجالَ دون أن تحل المشكلة. تصدى القبطان آباكا للنظرات المتحدية المتوجهة إليه. وخلال هذا لاحظ لرنر ملاحَين يقتربان من العمود الذي يحمل جملة «ملكية ألمانية». أمسكاه، ثم جثيا على ركبهما، راغبين في اقتلاعه بقواهما العضلية.

صاح لرنر: «قفا! بقواهما أيديكم».

لم يفهمه الجنود، ولكنهم نهضوا ونظروا إليه فاغري الأفواه. نهض القبطان روديغر، والشرر يتطاير من عينيه. قال: إن على ظهر هيلغولاند عشرين رجلاً (في الحقيقة كان العدد اثني عشر، ولم يكن القبطان يقصد الكذب، إلا أن العدد عشرين وازن حديثه أكثر) وسيكون على القبطان آباكا أن يقضي على قواهم الرادعة («وهم رعايا ألمان») قبل أن يأمر بمد اليد إلى هذه الخوابير. الصمت التالي لهذه الكلمات، لم يش بحب الأمهات والأخوات، وإنما كان أشبه ما يكون بالهدوء الذي يسبق اندلاع الحرب. رفع القبطان آباكا كأسه، لكنه لم يضعها بين شفتيه، نظراً لقوة التوتر السائد. أبعدت مدينة شتيتين وعائلة روديغر إلى مجال الحياة المدنية العاجزة في مثل هذه المواقف. نظر القبطان إلى هيلغولاند، التي تبدو في ضوء هذا الكابوس أكثر بؤساً. وضع كأسه ودس وجهه بين يديه. وعندما أخفض يديه من جديد، كان وجهه محمراً.

نهض قائلا: «سأنتظر توجيهات أخرى. وأستميح السادة عذراً حتى ذلك الأوان».

تشاور روديغر ولرنر همساً. قررا أن يعود لرنر إلى هيلغولاند ليرسل برقية إلى القنصل الألماني في ترومسو، بينما يظل روديغر حارساً على زجاجة الكونياك بين كومة الحجارة.

-9-
التوترات الدولية

جلس القبطان روديغر على الجمر، منذ أن غادر خيمة القبطان آباكا بتلك الانحناءة القصيرة المشهورة بالأدب واللطف، والتي يقوم بها مساعدو المتبارزين.

قال عندما ركب الزورق: «أقسم أن هذا اليوم لأعظم يوم في حياتي. لقد وصلنا والحق إلى نقطة لا عودة منها. إذا كنا سنضم إقليماً جديداً إلى الأراضي الألمانية، فإنك ترى كم كان مصيره قاب قوسين أو أدنى». ارتعش صوته، وعلى مضض تركه لرنر وحده، والتفت أثناء التجذيف إلى هيلغولاند مرات كثيرة جلس القبطان متصلباً ومعانداً على كومة الحجارة بما فيها من زجاجة الكونياك كملك يجلس في عرشه. ألم ينصّب السلوفينيون القدماء أميرهم الجديد في العراء على صخرة؟ ألم يحفظ لوحٌ مقدس في عرش ملوك إنجلترا تحت الكرسي؟ سيماء وجه القبطان روديغر لا تترك أي شك في مدى عظمة اللحظة التاريخية. سيهرق آخر قطرة من دمه على تراب جزيرة الدببة ليتشرب بروحه ويتعمد.

مساء، أمر لرنر بإحضار القبطان إلى السفينة. فقد أبرق القنصل الألماني في ترومسو، أنه بعث برسالة لرنر إلى وزارة الخارجية في برلين وعليه انتظار التوجيهات.

أنباء الوضع العصيب تصل إذاً إلى أعلى الدوائر الدبلوماسية

في الرايخ الألماني. كتبت الرسالة الخطيرة على ظهر سفينة صيادين متأرجحة وتحمل اسماً مغرياً. من كلماته، تهب ريح البحر المنعشة، وتصدح منها أصوات طيور البحر. وستغلف في ملف أخضر، يختم بختم العرش الذهبي ويرسل إلى أعلى مراكز السلطة حيث يعم الهدوء. الأصوات الخفيضة، الخبيرة في السياسات العالمية، ستبحث الوضع، وستمر على عبارات لرنر السلسة، المتقنة.. عيون كثيرة تقوي بصرها بنظارات مذهبة.

عبر لرنر بمروءة الرجال وجلدهم، عن تهديده بالدفاع عن جزيرة الدببة حتى آخر قطرة دم من دماء جنوده معتبراً هذا واجباً وطنياً بديهياً يحمله على عاتقه، وحقاً لن يتنازل عنه. وعندما أعاد قراءة كلماته شعر بالهيبة. فهو لم يخاطب البحارة، ويسألهم الرأي عن تجريد السلاح للدفاع عن جزيرة الدببة ولم تكن على السفينة سوى عدة بنادق صيد. ولن تبث حتى أقوى السواعد، الذعر في قلوب طاقم السفينة الحربية سفيتلانا. فحتى في حلقة «السادة»، كما عبر لرنر عن أفكاره، لم يجد من قد يعتمد عليه في القتال. مولمان لا طائل منه، والربان لا همّ له سوى الإشارة الملحاحة إلى واجباته المتفق عليها في العقد. وأصبح منى قلب لرنر أن تجد برلين حلاً سياسياً يحول دون وقوع الكارثة الرهيبة. فإنهم بالنهاية على عتبة القرن العشرين، والشعوب المتحضرة لا تحل نزاعاتها بالفأس، مهما كانت قوة تعابير وجه القبطان روديغر وهو جالس على كومة الحجارة.

ومع أن القبطان آباكا لم يتوجه مباشرة إلى نظيره الضابط، إلا أنه غادر

الخيمة والجزيرة بعد برهة ليذهب إلى سفينته، لكنه قبل هذا أرسل جنديا يعرف الألمانية إلى القبطان روديغر ليسأله إن كان راغباً في بعض الشراب وعرض عليه الكونياك والشاي أيضاً. وعلاوة على اجتماع أمهاتهم يوماً ما في بنسيون مدينة شتيتين كان دافعه لهذه التصرفات الرجولية الولاء لطبقة الضباط. بكل برود قال القبطان روديغر إنه لن يتناول منهم شيئاً، رغم أنه لا يشعر فقط بالبرد، بل إن أوصاله ترتجف. عندما أمر لرنر بإحضاره، نهض بالكاد من مكانه. تجمدت أعضاؤه رغم المعطف اللباد الثخين، بينما تقفز طيور البحر في ثوب الريش الخفيف في الماء البارد ويبدو عليها الفرح الشديد.

اقتنع روديغر بالذهاب إلى السفينة، لأن آخر جندي روسي غادر الجزيرة قبل ساعة وابتعد عن كومة الحجارة تحت أشعة الشمس البيضاء. ومن ناحية الزورق، كانت جزيرة الدببة تقع بين سفينتين: السفينة الحربية الضخمة سفيتلانا وسفينة الصيادين هيلغولاند الصغيرة.

اقتبس روديغر قصيدة حماسية، وألقى مساء خطبة على رؤوس السادة، قائلا إنه لم يستبشر خيراً بعملية جزيرة الدببة في البداية. كان أمل ألمانيا في هيلغولاند هو العثور على المهندس أندريه وهذا ما أعلم به مستشار الرايخ وما فهمه عموم الشعب الألماني من الأعمدة المطبوعة على صفحات جريدة برلين.

خبط لرنر على الطاولة تعبيراً عن غضبه من أن ضابطاً بحرياً لم يستوعب منذ البداية أن سفينة هيلغولاند لا عمل لها في بحر القطب.

مثل نبي رفع روديغر بصره إلى السقف الخشبي. رفع هامته وطعن

الهواء بلحيته المدببة.

«الرجال لا يقاطَعون».. هتف مستحلفاً، فهو بصدد أن يشرح لهم لماذا اقتنع الآن تماماً بهذه الرحلة. «المصلحة الخاصة لا يستهان بها، ولكن المصلحة الوطنية فوق الجميع». وهذا هو احتياطيه العقلاني المبدئي. منذ البداية كان هدفه الاستيلاء على جزيرة الدببة من أجل الرايخ الألماني وها هي الأمور قد وصلت إلى هذا المبلغ بمشيئة السماء. السفينة الحربية سفيتلانا شقت البحار لغايات استعمارية، ونظراً للمدافع الروسية فليس بيد الرايخ الألماني ما يفعله سوى الإصرار على حقه بالأقدمية.. حقّ أقدم بمقدار أربع وعشرين ساعة.

«إننا مجرد أدوات.. مجرد مسننات صغيرة، في هذا النزاع الهائل بين القوى العظمى. هل ستغامر روسيا بالحرب للتعدي على الحق الألماني؟»

أرجو أن يكون هذا السؤال بلاغياً لا أكثر. فكما عقدت بين أم القبطان روديغر وأم القبطان آباكا أواصر الصداقة، كان القياصرة الروس والألمان ملتحمين، وبما أن القبطان روديغر لم يفرط للقبطان آباكا بالمصالح الألمانية في سبيل العواطف الأسرية، فإن القيصر الألماني لن يفرط بها أيضاً لابن عمه الأكبر، القيصر الروسي.

«روابط الدم والصداقة على كل المستويات»، قال مولمان، ولكن ارتيابه جاء ضعيفاً جداً، فلم يخدش حماسة القبطان.

في الصباح الباكر، استيقظ لرنر على صوت خطى ثابتة على سطح السفينة. كان القبطان روديغر يذرع السفينة بخطواته القوية ليدفئ

أوصاله، ويفرك يديه كالمقدم على عمل عظيم. «يوم عمل مثل غيره»، صاح صيحة زهو محدقاً في وجه لرنر الغافي. كان متعجلاً الذهاب إلى الجزيرة، وقد اضطر لرنر ومولمان إلى شرب القهوة وقوفاً. السلم على السفينة سفيتلانا ظاهريّ فقط. فعلى ظهرها حركة، بحارة يكشطون الصدأ وينظفون السطح، لكن لا تبدو أي إمارات تدل على نوايا حاقدة.

«اليوم سنكون أول من يصل إليها»، قال القبطان المضطر إلى السير خطوتين في الماء على الساحل. الطيور المصوبة جميع عيونها الصغيرة إلى الناحية ذاتها، انتظرت حتى نزل من الزورق، ونهضت كغيمة كثيفة ناشرة الضجيج، والزعيق في الفضاء.

«كيف شعوركم؟»، هتف روديغر ورفع ركبته كأنه يريد صدم الأرض تحت قدميه، لتشعر بقوته الكاملة أو يعجنها لتلين له. «ما أحلى الأرض الألمانية». تكلم روديغر بصوت عال، بل كمن يصرخ، مع أن لرنر قريب منه. كان يريد إظهار أنه غير مرغم على مراعاة مشاعر أحد على جزيرة الدببة.

«نحن هنا على أرض الوطن».

هزّ أقرب خابور ملون بالأسود والأبيض والأحمر مغروز بقوة في الأرض. لم يهز الروس موقفه، وحقاً لم يلمسوا الخوابير حين لاحظوا بسالة السادة الألمان في خيمة قبطانهم. ببطء جثا روديغر على ركبتيه، وبحذر رفع بعض الحجارة من الكومة حتى لمح زجاجة الكونياك تتلألأ سليمة في داخلها. كان القبطان آباكا فارساً نبيلاً، لا يحبذ الطرق الملتوية

كي ينال أفضليات صغيرة قبل أن تصله تعليمات الوزير.

«أنا أجلّ خصومة مثل القبطان آباكا»، قال القبطان روديغر صائحاً وكأنه يريد إيصال صوته إلى قمرة القبطان على ظهر السفينة سفيتلانا. وهكذا لم يعد يوجد ما قد يعيقهم عن العمل. في يد لرنر ومولمان مازورة قياس. اتفقا على تحديد موقع، لبناء منزل كبير تقضي فيه البعثات التالية الشتاء. تبين أن موقع الكوخ، لا يوفر تحصيناً كافياً، كما أنه منحدر جداً. فلتشييد مبنى كبير في هذا المكان لا بد من وضع أساس متين وهذا يتطلب الكثير من الجهد لتسوية مستويات الأرض المختلفة. انتقلت حمى الحركات الاستعراضية إلى لرنر أيضاً. سار بخطوات واسعة، وواثقة فوق التراب، الذي يتقصف تحت قدميه. مد الرجال أياديهم مشيرين إلى الفضاء الرحب من حولهم، وصاحوا بوجه الريح التي تبتلع أصواتهم حتى وإن كانت رقيقة. وكأنهم يستعرضون عضلاتهم كي يشاهدها المراقبون في المنظار القائم على مقدمة السفينة سفيتلانا.

حوالي العاشرة أنزلت سفيتلانا زورقاً إلى البحر ركبه اثنا عشر رجلاً. وعندما دنوا لاحظ روديغر ولرنر أن بعض الروس مسلحون بالبنادق. كما كان القبطان برفقتهم. هنا توقف الألمان المستعمرون، وأسقط لرنر المازورة من يده.

«أنا أعترض»، قال القبطان روديغر بصوت خفيض استعداداً للعرض القادم، لكن الروس لم يأبهوا إطلاقا بالألمان. أدى القبطان آباكا التحية العسكرية من بعيد، ورد روديغر ولرنر على تحيته بما تقتضيه. سار الروس في الجزيرة على مسافة بعيدة عنهم. صعدوا المرتفع (صاح

روديغر محذراً: «قبر المؤمنين بالقديم»، ولكنهم لم يبدوا أي اهتمام بالضريح، بل ارتقوا الهضبة التالية ثم اختفوا وراءها فجأة. وبعدها سمع الألمان أصوات عيارات نارية.

«يا للعار»، قال روديغر إن السادة يقضون وقتهم في رحلة صيد.

«لن نجعلهم يستفزونا»، رد عليه لرنر. شعر فجأة بأن عليه الانتباه لروديغر والحيطة منه، فقد بدأت تلوح على هذا علامات المبالغة التي بات يعرفها قليلاً وشرع بالمزيد من العناد والفوران. لم يكن روديغر واثقاً من المسرحية التي يلعبها ولهذا تمرن على جميع الأدوار المحتملة، كما تصور لرنر. لكن القبطان صار يعرف منذ الأمس اسم المسرحية ودوره المحدد فيها: دور البطولة.

رجع الروس بعد ساعات وأربعة منهم يحملون على أكتافهم عصا طويلة، تبين أنها مجذاف ربطوا عليه قوائم دب قطبي. كان الحيوان يرتطم بالأرض لضخامة جثته وبين فرائه الأصفر، على الصدر تماماً، بقعة دم سوداء.

«أنثى»، قال القبطان روديغر. كيف عرف هذا؟

سار القبطان آباكا خلف غنيمته.. توقف عندما رأى الألمان وتوجه إليهم وحياهم التحية العسكرية كأنه يحيي أدميرالاً في استعراض عسكري.. قاسه القبطان روديغر شزراً وأدار وجهه.

-10-

برقيات من برلين وبطرسبورغ

في صبيحة اليوم الخامس والعشرين من تموز أعلن القبطان روديغر أثناء الفطور وهو يتظاهر بالبراءة أنه ينوي الذهاب إلى الصيد وسأل: من يريد مرافقتي؟

أنذره لرنر: «حذار، حذار»، فما معنى خروج جماعة مسلحة من سفينة هيلغولاند؟ تذكر القشعريرة التي سرت في أوصاله، عندما رأى سبطانات بنادق الروس عالية في السماء حين كانوا في زورقهم.

قال روديغر محرضاً زملاءه: « ألا يوجد على جزيرة الدببة مكان كاف لفريقي صيادين؟» جاء الرد حاداً وغير متوقع: جزيرة الدببة صغيرة جداً، ولا تحتمل فريقي صيادين، حيث يتوقع أن يشتبكا. لكن الجندي ذا اللحية المتفرقة إلى نصفين، كان يتحرق تحديداً لهذا الاشتباك. لم يكن روديغر صياداً وقد يوصف في أفضل الأحوال برجل المغانم. فهم لرنر تماماً أن الغنيمة التي يقصدها روديغر ليست الفحم أو فراء الدب، وإنما شيء خفي: هو استعادة شرفه العسكري المهان. الصخرة التي أوقعها الناس، ينوي أن يتحول إلى حجر زاوية لا غنى عنه. كالفارس الذي طرد من بلاط كارل الكبير، يريد أن يعود، ويجثو أمام القيصر، ليقدم له جزيرة الدببة ككعكة شوكولاته محلاة بالسكر. وأمس خسر يومه عبثاً في مسيرته، لأن الأمور لم تصل إلى درجة الاشتباك. إن ادعاء الحق في الصيد، ليس إلا ممارسة لحق السيد. فمن يقتل نورساً صغيراً على جزيرة

الدببة، إما أن يكون صياداً من دون ترخيص أو سيد الأرض. ربما لم يصد القبطان آباكا أنثى الدب من دون ترخيص إلا أنه أيضاً لم يصدها في مكان تسوده هدنة من دون حقوق، وهذا فعل ماكر يستحق العقاب. خلف حدود جبين القبطان روديغر الواضح، وإن كان منخفضاً، تمشي هذه الأفكار، التي برزت تماماً لتيودور لرنر. صرير خفيف يصدر عن احتكاك أسنانه. عيناه تشعان بالسعادة، والرغبة في الحرب. لم يتناول فطوراً عادياً، بل تقوى لحمل السلاح. ولرنر يدرك جيدا أن روديغر سيعديه. فقد دخل أمس في إساره برهة ولم يخرج منه، إلا بفضل تحية آباكا المسرحية التي أعادته إلى سحر الحيرة.

«كيف أوقف هذا الرجل العنيد عند حده؟» فكر لرنر. المقاومة تعني العصيان، والقبطان روديغر على سطح هيلغولاند ملك بينما الآخرون رعايا.

أثناء هذه التأملات المعذبة دخل عامل الإشارة حاملاً برقية من قنصلية الرايخ الألماني في ترومسو. كانت موجهة إلى لرنر، إلا أن روديغر، في هيجانه الذي لم يعد له رادع، اختطفها من يد العامل وقرأها بصوت احتفالي هادر بداية، ما لبث أن انخفض مع كل كلمة.

«إلى السيد تيودور لرنر، العنوان المدلى به: جزيرة الدببة. جاءتني اليوم البرقية التالية من مستشار الرايخ: يرجى إيصال التالي إلى السيد تيودور لرنر في أقرب فرصة: الإعلام الكتابيّ عن معطيات البرقية المؤرخة في الخامس والعشرين من الشهر، على الطريق. إلى ذلك الحين نعلمكم بعدم تكفل حمايتكم إذا شرعتم باستخدام القوة. بالتفويض

ريشتهوفن. نسخة إليه. التوقيع: ف. هولمكار، القنصل القيصري الألماني».

«ما هذا؟» سأل روديغر، وانخفضت يده كمن أصابه مس. ما تصور أهل برلين للوضع على الجبهة؟ جيوش روسية جرارة تغزو أرضاً ألمانية لتتصيد فيها. ما الذي سيقوله المستشار الألماني لو حدث هذا على جزيرة ميمِل أو في شرق بروسيا؟

«هذا الحقير ريشتهوفن، هو السبب»، دمدم روديغر. إنه يعرف ريشتهوفن الذي يقف عائقاً أمام الطموحين، والبارون ريشتهوفن له مداخل إلى السلطات ويدافع عن مداخله بكل قواه. نعم، لو أن ريشتهوفن كان هنا على جزيرة الدببة، لو أن ريشتهوفن اكتشف جزيرة الدببة، لكان الأسطول الألماني قد أقلع على الفور من ميناء كيل. من الذي استحوذ بقعة أرض من دون إراقة الدماء؟

«لا أعتبر الخبر مخيبا كثيراً للآمال»، قال لرنر. فالبرقية لا تذكر إطلاقاً ما ينويه المستشار بشأن جزيرة الدببة. وتفاصيل قرارات برلين قادمة على الطريق. وخلال هذا ينوي المستشار («ليس المستشار، وإنما ريشتهوفن»، قاطعه روديغر) حماية البعثة الصغيرة مما قد تتعرض له. وهذا ليس قليلاً. لقد خلقت هيلغولاند، وقائع على الأرض لا يمكن مسحها بعد. الخوابير الملونة بالأسود والأبيض والأحمر تلمع زاهية تحت شمس الجزيرة. وحتى القبطان آباكا اعترف بها ولم يلمسها بعد محاولته الأولى التي أفشلاها.

رجع عامل الإشارة معلناً أن الروس نزلوا على الجزيرة، ونصبوا

خيمتهم من جديد. «تعقدت أكثر»، هتف روديغر؟ زعم أن هناك تجارة وضيعة تجري على حساب الشرفاء. «أنا لم أفكر بالسياسة قط» قال، وأضاف أن السياسة لا تهمه إطلاقاً. إن السياسة لا تقترب إلا نادراً من المصالح اليومية للشعب، وإذا اقتربت فإنها تعيقها في أفضل الأحوال. والآن يفهم لماذا لم يدخل سلك السياسة. تابع الصياح حتى وهو ينزل إلى الزورق.

اقتربت الجزيرة. حشد طيور البحر كان قد تفرق عند قدوم الروس، ويجلس على المرتفعات المنتشرة على الجزيرة.. أبيض كثلج انهمر توا. في المنظار ظهر هيكل ضخم يجلس في كرسي، هسهس روديغر: «المحافظ الروسي لجزيرة الدببة».

حياهما آباكا بود ولطف، كما في الأيام الأخيرة. بجانبه كراسة فارغة. كما أن علامة حسن الضيافة.. قنينة الكريستال المعبأة بالكونياك، معدة للضيوف.

«مرحباً يا أخ، مرحباً أيها السيد النبيل»، هتف محتفياً بهما ثم قال: إن الأمور اتضحت الآن تماماً، وسارت على خير ما يرام. هل يحل الرجل الحق ضيفاً على العدو في مثل هذه المواقف؟ تساءل روديغر بينما لرنر جالس ينظر إلى آباكا بفضول. والفضول أقوى سماته. واضح أن القبطان يعرف ما لا يعرفان. تردد روديغر، فالجلوس موقف لا يطاق. الجالس ينفّس، بتوزيع العبء على المؤخرة غير المحاربة، عن كل ما قد يشق الريح في وضع آخر. إلا أن نظرة آباكا الثقيلة، والعطوفة جذبته بالنهاية إلى الجلوس على مؤخرته.

مدح آباكا سرعة التوصل إلى تفاهم بين الكبار فوق. بين برلين وبطرسبورغ تنسيق وتناغم يقارنان باوركسترا كبيرة. وحين تصدر نغمة شاذة، يصغي قائد الجوقة، وينبه عازف التشيللو أو الكلارينيت، وتأخذ الموسيقى إيقاعها الحي السليم. وقائد الجوقة هم أبناء السلك الدبلوماسي. لم يسمحوا بالنشاز في سيمفونية صداقة أمتين. وهذا النشاز كان جزيرة الدببة عديمة القيمة، التي لا يسكن عليها البشر، هذا بصرف النظر عن المؤمن بالقديم في قبره. «وحتى روح المؤمن بالقديم لم تعد هنا، لقد صعدت بعيداً. إنه يعرف الآن إن كانت علامة الصليب ترسم في السماء بإصبعين أم ثلاث». أخفض القبطان أجفانه، ثم دمدم بعدة كلمات غامضة، وأخذ رقعة مبسطة من يد الجندي. دمدمة أخرى أخرجت من جيب الشاب النشيط نظارة رقيقة هشة، يخاف الناظر إليها أن تتهشم على صدغي القبطان لضخامة رأسه.

بسلاسة أكثر، قال آباكا بعد أن وضع النظارة: «أرجوكم، قليلاً من الصبر. لن أترجم فحوى الرسالة كلها، إنما أهم ما ورد فيها. بناء على برقيتي اتصلت وزارة الخارجية الروسية في بطرسبورغ بمستشار الرايخ الألماني في برلين. أعلم المستشار الألماني وزارة الخارجية الروسية أن الرايخ الألماني لا نوايا له ولا مطامع على جزيرة الدببة. شددت ألمانيا وروسيا على الاتفاق الدولي على الاحتفاظ بحياد دول القطب وبناء على إرادة الألمان والروس تظل جزيرة الدببة من دون سيادة». ركز بقوة على هذه الكلمة. فجأة استيقظت في القبطان آباكا روح غاضبة. كأن عينيه المدورتين تخرجان من محجريهما وتعودان إليهما. تابع القراءة

من وثيقته مترجماً. بصوت خفيض في البداية، إلا أنه ارتفع هادراً لدى قراءة التوجيهات النهائية، بحيث اقشعر لرنر وروديغر.

«ولكن إذا خرقت جهة ما هذا الاتفاق الدولي، فإن روسيا تقول (هنا كان القبطان آباكا صوت روسيا القوي والمنفلت) إنها لي».

خلال الصمت القاتل، الذي حل بعد هذا القول الصاعق، أضاف آباكا ممازحاً من جديد: «الألمان مدهشون.. هذه الثقة العمياء التي يضعونها في مؤسساتهم. يضعون حقوقهم المزعومة في زجاجة كونياك فارغة، ويظنون أنهم خلقوا بذلك وقائع على الأرض. هذا جنون، لكنه جنون مخيف. لقد أطلنا الحديث.. لقد اتفقنا. ما رأيكم أن نقوم عدة أيام برحلة صيد مشتركة؟ الصيد هنا رائع.. هنا كلاب البحر، والحيتان، والأيائل، والدببة القطبية. الحيوانات تأتي وحدها في المرمى. يا أخ، يا قبطان، قم باصطياد فرو جميل لزوجتك».

ربما أيقظ ذكر الزوجة، روديغر من خدره. السيدة روديغر كانت تحتقر زوجها. انفصلت عنه قبل طرده من البحرية ولكنها وفرت عليه الطلاق، طالما ظل في الخدمة. الشيء الوحيد الذي كان القبطان يرسله لها، هو الرسائل التي كانت تقطر شراً، والتي لم ترد على أي منها. إن فكرة إهداء تلك المرأة فرو دب لا تتعدى كونها سخرية لا تطاق. لا. لن يقوموا برحلة صيد مشتركة.

أبدى القبطان آباكا أسفه لهذا الرفض. لكن لرنر مازال محافظاً على بعض الوعي، كي يشير إلى أن رسالة المستشار الألماني لم تصله بعد، معبراً عن إحساسه بأن تفاصيلها قد تختلف عما قرئ عليهم توا. رفع

آباكا كتفيه، مؤكداً احتمال وجود فروقات طفيفة، فالدبلوماسيون لن يكونوا دبلوماسيين، إذا لم يجدوا حتى في أشد الأسوار مناعة ثغرة حتى وإن كانت صغيرة. وإلى ذلك الحين فإنه سيستمتع بالصيد.

صامتين، جلس روديغر ولرنر في الزورق.. صامتين صعدا سفينة هيلغولاند. أليس من الأفضل لهما الآن أن يرفعا الياطر؟ مولمان يلعب البوكر مع الربان.. البحارة يشعرون بالملل. ألا يجب على الأقل إرسال الرجال في رحلة الصيد؟ روديغر متحجر الوجه، ولا يرد على مساءلات لرنر. أطال لرنر التفكير، إلا أن أفكاره عادت إلى نقطة البداية. لو أن السيدة هانهاوس معهما. شعارها كان: لكل مشكلة حل. وما كان يزعجها أن بعض الحلول قد تكون مهينة.

وبينما كانا على حافة السفينة، جاء عامل الإشارة حاملاً بيده رزمة أوراق. لدهشتهما وصل جواب السيد ريشتهوفن من برلين على وجه السرعة. لا بد من أنهم فوق يعطون الوضع قيمة عليا.

«لا، أنا سأقرؤها لك»، قال لرنر وهو يبعد يد روديغر عن الأوراق. كان يخشى أن يمزق الأوراق في نوبة غضب ويرميها في البحر. وكان روديغر يحبذ هذا دون أن يطلع عليها.

كتب السيد ريشتهوفن: «أولاً، أود أن أوضح لكم أنكم مخطئون في ظنكم أنكم استملكتم عقاراً، سواء لشخصكم أو لمن أرسلكم، على جزيرة الدببة، لأنكم سيّجتموه، فما بالكم بوضع خوابير لتحديده، من دون وثائق ملكية وما تتطلبه من تراخيص كما هو مدرج في قانون الملكية الألماني. بل على العكس، لا يسري على جزيرة الدببة قانون

يسمح بالاستملاك. فإذا دخل طرف ثالث إلى العقار، الذي سيّجتموه ولم يخرج منه بناء على الحظر الذي فرضتموه من ذاتكم، فلا يحق لكم انتظار حماية الحكومة القيصرية من دون قيد أو شرط».

إلى هنا لم يعد القبطان روديغر يطيق: «هل سمع أحد بمثل هذا الغباء؟ هذه نهاية النظام، انتصار الفوضى. كأن هناك قانوناً على جزيرة الدببة، يشترط حقنا في امتلاك عقار! كأنه لا يوجد في الطبيعة، خارج حدود الدولة، حق في الملكية! كأن جميع الحقوق إيجابية! وكأن قانون الطبيعة مستمد من الحق الإيجابي وليس العكس! عندما خرج موسى إلى الصحراء، ألم يكن هناك حق الملكية؟ ألم يستملك روبنسون كروزو كهفه؟ ألم يستحوذ كريستوفر كولومبوس على كوبا، من أجل التاج الإسباني؟ يا ريشتهوفن، أنت لست محقاً، أنت لست اسماً على مسمى[1]. إذا لم يتوسع الرايخ فكيف ينعم بالمزيد من الثروة؟ ودببة القطب التي يصيدها آباكا، لمن هي؟ كانت ملك نفسها مادامت تتنفس. وهل ذلك القبر ملك المؤمن بالقديم، أم أنه راقد في تراب يغطيه، يتغذى عليه، يفتته، مع أنه لا يملكه قط؟ اصمت لرنر، اصمت. من هذا لن تتعلم أكثر من الجنون، الذي يستولي على الرؤوس الواقعية التي لا تفعل شيئاً سوى إيجاد قوانين جافة».

(1) اسم ريشتهوفهن من كلمة ريشت وريشتهوف، ريشت: الحق والقانون، ريشتهوف: المحكمة

-11-
لماذا ليس الملك هوغو؟

منكبين على إرسالية ترومسو، التي دخلت في تفاصيل برقية برلين جلس لرنر وموليان في الصالون. للمرة الأولى يشارك لرنر المهندس الصموت في شؤون البعثة، لأنه يخشى أن يتفحص الوثائق المرعبة وحده.. يخشى أن تعميه مصلحته الذاتية عن كل ما سواها، عن إيحاءات الجمل والسطور الثانوية التي قد تحوي معاني سامية بدورها. ففي هذه اللحظة لا يمكن الاعتماد على القبطان الغاضب روديغر، الذي يتحدث إلى نفسه في قمرته، وكأنه يتعارك مع أرضيتها. جاءت شتائمه طارقة، وكأنه يصلح عطباً في جوف السفينة. ثم ارتفع الصخب، شق الباب ودخل القبطان روديغر كرجل مخدوع يضبط زوجته في سرير الزوجية.

«وماذا لو»، صاح روديغر صيحة أرعبت لرنر: «ماذا لو كانت جزيرة الدببة مكاناً لا يخضع لقانون، مع أنني أعترض بملء فمي على وجود مكان من دون قانون في قلب أوروبا، فهذا في حد ذاته تناقض صارخ، أوروبا هي القارة التي تقوم أصلاً على القانون، ولا يوجد تفسير آخر لها وإلا لكانت اسماً فارغاً لا معنى له، لنأخذ الرسالة الجنونية، الجاهلة بالحق، والقادمة من قلب مستشارية الرايخ، حيث يغزل العنكبوت ريشتهوفن خيوطه، لنأخذها بحرفيتها، جزيرة الدببة، مكان لا يخضع لأي قانون، ألا يفترض بنا، كما هو عهد تاريخ الطبيعة،

ونحن الآن في مجال طبيعي، إذا كانت جزيرة الدببة فعلاً لا تخضع لأي قانون، ألا يجدر بنا أن نثير زوبعة في هذا الفراغ القانوني؟ إن نتائج هذا الفراغ القانوني عاصفة قانونية. وله الآن أيضاً هذه النتائج». هنا انتفخ الوعاء الدموي على جبينه المحمر. «روسيا تقول: إنها لي». الاستيلاء على الأرض شيء يحدث منذ مطلع التاريخ، تماماً مثل سبي النساء. هنا، في أقصى الشمال تجمد التاريخ وقد بلغ بدايته الآن: «إذاً سآخذها. هكذا ينطق صوت الإمبراطورية. وعلى العكس من هذا يأتي من قفص ريشتهوفن صوت ضعيف مفاده عدم استخدام العنف، وعدم المساس بمصالح الرايخ. لا حماية من طرف الرايخ في الوضع الراهن.. مسخرة»

سد الباب بقوة، اهتز لها زجاجه، وأحدثت شرخاً مثل علامة تعجب في اللوحة الصفراء. وبينما القبطان روديغر يتابع الحديث في قمرته، كأنه خلف جدران كاتمة للصوت، انحنى السادة من جديد على رسالة برلين.

بهدوء تام، وشبه دمدمة في انشغاله العملي على الرسالة، سأل لرنر من دون أن يرفع رأسه: «مولمان كيف تفهم أنت هذه الملاحظة: الحكومة القيصرية تتدخل حسب إمكاناتها لحماية المصالح الألمانية على جزيرة الدببة، كما في جميع أنحاء العالم طالما أرسيت هذه على دعامات ثابتة وحددت بالمرافق المناسبة. ولهذا اتصلت الحكومة القيصرية بالحكومة القيصرية الروسية بهذا الصدد وهذه بدورها لا تعمد إلى وضع العوائق في وجه الأعمال الاقتصادية الخاصة على الجزيرة. الحكومة القيصرية

الروسية لا تمانع الاستغلال السلمي والمناسب للجزيرة من ناحيتكم بما لا يستبعد نشاطات أخرى عليها».

«أرسيت على دعامات ثابتة، وحددت بالمرافق المناسبة. أليس تحديد العقار بالخوابير الملونة بالأسود والأبيض والأحمر «دعامات ثابتة»؟ ألا تسمى العقارات المسيجة في المدن أيضاً «مرافق»؟ ما رأيك؟»

«لا أظن أن مستشارية الرايخ تقصد المساحات الخضراء»، قال مولمان مستغرقا بدوره في أفكاره الخاصة؟

«فما هو قصدها إذاً؟ ما المرافق المناسبة؟» سأل لرنر وهو يوشك أن يفقد صبره.

«تابع القراءة. فالرسالة تأتي على ذكر جميع التفاصيل». ذهب مولمان إلى النملية ثم قال: «البارحة كانت فيها زجاجتا كونياك».

قال لرنر: «أظن أن القبطان روديغر نقلهما إلى قمرته». غادر مولمان الصالون صامتاً.

«يحظر استخدام العنف من طرفكم ضد الأسطول القيصري الروسي .. لا تقتضيه مصلحتكم، ولا مصلحة ألمانيا القومية. الحكومة القيصرية تجد نفسها مضطرة إلى إعلان عدم مسؤوليتها عن كل العواقب المترتبة عليه ...»

كان يدرك هذا سلفاً، لكن يؤلمه جداً أن يراه مكتوباً. لحسن الحظ خرج مولمان. لا يرغب لرنر في تذكر قسماته الحربية. فإنه بتأسيسه مستعمرة جزيرة الدببة لم يكن يضع نصب عينيه سوى المصلحة القومية العليا (كما آمن وأبرق هذا الخبر إلى جريدة برلين على أمل تخفيف

نوبة غضب السيد شوبس رئيس التحرير) وها هو يقرأ رسالة لا يطالها الشك، تتضمن إنذاراً واضحاً بعدم المساس بهذه المصلحة القومية.

«إذا كنتم، خلافاً لمعلوماتي، قادرين على تقديم دليل على قيام اعتداء أو تخريب للمرافق الاقتصادية التي استحوذتم عليها، فلكم مطلق الحرية في التوجه بشكوى في هذا الشأن إلى الحكومة القيصرية التي قد تتدخل للدفاع عن مصالحكم، إذا وجدت هذا ضرورياً. لكني لا أرى نفسي مفوضاً بمنحكم توكيلاً يخولكم حظر دخول أو استخدام العقار والأرض التي سورتموها، ولا مد يد العون إليكم في هذا الصدد. مستشار الرايخ. بالتفويض: توقيع ريشتهوفن. إلى تيودور لرنر، جزيرة الدببة».

وفي هذه الكلمات الأخيرة جل العزاء. فعنوان لرنر القانوني كما كتبه مستشار الرايخ الألماني هو جزيرة الدببة، وحتى الدوائر الحكومية الحريصة جداً في تعابيرها والحذرة من دعم المبادرات الخاصة، لا تستطيع إنكار هذا العنوان.

رجع مولمان وفي يده زجاجة كونياك لم تعد مليئة على آخرها وقال كالح الوجه: «هذا لا يجوز. لا توجد على هذه السفينة هيئة من حقها احتكار هذه الزجاجة. يحق لكل إنسان مسالم أن يستخدمها إذا أراد، من دون أية موانع».

«كلمة مرافق لا ترد في أسفل الرسالة مترافقة مع صفة مناسبة، بل مع صفة اقتصادية. ما معنى هذا برأيك؟» سأله لرنر.

«المرافق الاقتصادية هي الشوارع، السكك الحديدية، الورشات

الصناعية، المستودعات، المباني الحكومية، والمناجم».

بعينين لامعتين بالفرح نظر لرنر إلى مولمان، وهو يتابع إحصاء قائمته من دون رغبة وهتف: «إذاً عندنا ضمان. فروسيا لا تمانع هذه المرافق، وألمانيا مستعدة لحمايتها. هذا هو المدهش في لغة الوثائق الرسمية. بالنهاية نستخلص منها شيئاً مخالفاً لبدايتها». فهل طلب من الرايخ الألماني وغيره من الإمبراطوريات العالمية سوى عدم التعرض للكوخ الذي سيبنيه على جزيرة الدببة؟ فهو لا يأبه بالوصفات الحقوقية التي تثير غضب روديغر، ويجب ألاّ يأبه بها روديغر أيضاً، فالجندي العجوز لا يفهم منها شيئاً ويزداد غضباً عندما يحاول فهمها. أما في الواقع فالحياة على منتهى البساطة. من حق لرنر أن يستخرج ما يشاء من الفحم من جزيرة الدببة. يحق له تحميله على سفن، وبيعه لكل من يطلب ولن يعيقه أحد. والمستقبل وحده سيعيّن ضمن أي دولة تقع جزيرة الدببة. وحتى ذلك الأجل ستتفق وتتعامل معه الأمة التي استولت على جزيرة الدببة، رفعت عليها راياتها، ويختم موظفو جماركها، العاملون في كوخ رسمي، أختامهم على أوراقها.

شعر لرنر بالغبطة.

قال لمولمان وهو يدفع إليه برقية المستشار الألماني، كما يفعل المارشالات في اللوحات التاريخية، وهم يعرضون على أعدائهم توقيع إعلان الاستسلام: «تفضل يا سيدي، هذه البرقية تسلمنا جزيرة الدببة.»

رد عليه مولمان: «إذاً لم يخطئ ظنك، فإنها تعطي، لحد ما، إلى يديك

المباني والأنفاق التي ستقيمها هنا. الخوابير التي زرعتها هناك لا معنى لها على الإطلاق. كان يمكننا توفيرها. احسب أن قدمك لم تطأ الجزيرة إذا لم تعمرها». تحركت شفتاه بهدوء بالغ وصوت أجش تحت دغل الشارب. ثقل لسانه قليلاً، لكن ما أدلى به ليس حديث السكارى. عاد لرنر للجلوس.

«إذاً علينا البدء بالحفر والبناء». كانت في عبارته نبرة تصميم، لكن صوته خائر ومرتعش.

قال مولمان: «لحفر نفق تجريبي أحتاج إلى اثني عشر رجلاً، بينهم مفتشا مناجم، عاملان خبيران، وليكن الباقي من العمال العاديين».

«ولماذا لم تتفضل بقول هذا قبلاً؟ لقد اصطحبتك بصفتك مهندس مناجم».

«اصطحبتني بصفتي مصوراً». وبهذه الصفة أدى واجباته على خير وجه. فكثيراً ما اختفى وحيداً خلف القماش الأسود، وحبس على ألواحه حجارة رملية رمادية تحتلها طيور بحرية بيضاء، طويلة المناقير، ومستلقية في الماء الرصاصي، وكذلك مجموعة رجال يتحركون تحت قبة سماء أبدية البياض على القشرة الأرضية الكالحة ويتراقصون ويترنحون بين خوابير ملونة.

اتضح المشهد كماء البحر الجامد أمام عيني لرنر. فكل إنسان يستطيع استخراج الفحم من جزيرة الدببة. كان على بعثته أن تبدأ بداية أخرى. فقد كان من الواجب تأمين المال لحفر المناجم وتعمير المنازل والمجيء في سفينة محملة بالعمال ليحفروا ويبنوا. وكان هذا مستحيلاً على لرنر

وحتى على السيدة هانهاوس رغم مواهبها الخلاقة. وما كان له أن يبدأ الرحلة بطريقة مختلفة عما بدأها.

وما الذي بلغه؟ إنه على جزيرة الدببة. لفت انتباه القوى الأوروبية العظمى إلى جزيرة الكنز وعليه الآن أن ينسحب منها دون أن يكنز شيئاً. وفي ألمانيا ينتظره رئيس تحرير يشتط غضباً. هيلغولاند تهتز هادئة. مثل حيوان كبير في حديقة الحيوان يهز المهندس والمصور مولمان رأسه. ولرنر أيضاً يشعر بالحاجة الماسة إلى من يهزه، إلى أن يرقد في مكان يهتز.

الطاقم على الجزيرة. الرجال يصطادون مع الروس. أصوات المفرقات مرحة. القبطان روديغر فاقد الأعصاب وغير قابل للخطاب. لو كان لرنر مطلعاً على الشعر الحديث، لكان له وصف هيلغولاند في برقية إلى جريدة برلين بـ«القارب السكران».

على سطح هيلغولاند، دوار وسكون لا يوحيان بالهيجان، الذي أثاره فتح جزيرة الدببة في الوطن الأم. هيج التصريح المختصر من طرف مستشار الرايخ، والمشابه للرسالة التي أعلم بها القبطان آباكا (وخاصة ذكر الاتفاق الدولي على حياد دول القطب) صفحات الجرائد. ومرة أخرى، وكما حدث أثناء حريق تريبتوف، لم تكن جريدة برلين المحلية سباقة. نشرت أخبار تغيير وجهة هيلغولاند، التي «قطعت الأمل في البحث عن المهندس أندريه» بانشراح يشي بالتشفي. وجاءت من روسيا أنباء الصدام مع القبطان آباكا. على صفحات جريدة ميكلنبورغ جاء بكثير من الاهتمام والشعور بالمسؤولية أن «لرنر انتفض، وأقسم أنه

سيحبط كل محاولات رسو القوارب، بغرض رفع رايات أجنبية حتى آخر رجل». وفي برلين كتبت الصحف أنباء مشابهة، لكنها أبدت استنكارها الصريح لتغيير مسار هيلغولاند، وسهولة تغيير برنامجها ضد مصلحة المهندس أندريه. وصدرت العبارات المشينة فعلاً على صفحات جريدة بفورتسهايم: «تبادل آراء سريع بين برلين وسانت بطرسبورغ ينجز التفاهم التام. صرحت ألمانيا لنهر النيفا في إعلان ملزم، أن تيودور لرنر تمكن من خداع مالك جريدة برلين، ولكن الرايخ الألماني لا مصلحة له معه. ولهذا أشرقت الوجوه في وزارة الخارجية الروسية أيضاً وأعلنت من ناحيتها، أنها لا تنوي كسر لوحة لرنر المنذرة من باب المزاح». كان عنوان الخبر: «الملك تيودور آل لرنر».

وهذا المقال تحديداً أبرقته أفضل قارئات الجرائد في العالم الغربي، السيدة هانهاوس، إلى سطح هيلغولاند مرفقاً بتحياتها القلبية وتهانيها: «أهنئكم من القلب لتيسر أمركم الخارق. الصحافة الألمانية مقلوبة على رأسها.. بدأت النقاشات حول جزيرة الدببة.. أقيم علاقات مع رجال أبدوا اهتماماً كبيراً.. أنتظر عودتكم بأقصى سرعة. القتال على جزيرة الدببة يجري داخل الأراضي الألمانية». مع أحر التحيات. الوفية لكم: السيدة هانهاوس». هذا النص كان يشبه الشقشقة، التي تصدر عن خفاش، قبل أن يدونه عامل الإشارة بيد نظيفة، لا خصال لها، على الورق. وبينما هو منكب على العمل، ألقت السيد هانهاوس بظلها على كتفيه. ومن دون أي توقع ظهر القبطان روديغر على السطح. وثورته العارمة تدعوه إلى ارتكاب جريمة.

«الملك تيودور آل لرنر! لي الشرف، أيها الملك تيودور. لماذا لم يذكر اسمي، لماذا ليس الملك هوغو؟ هذه مؤامرة وليست خطأً بسيطاً. عن عمد يذكرون الملك تيودور.. ليس في تاريخ أوروبا كلها سوى ملك واحد اسمه تيودور، ملك يلعق المؤخرات، الملك تيودور من كورسيكا. مغامر ألماني (هنا أشار بدلالة واضحة إلى لرنر)، مرتزق إنجلترا، قال: أيها الملك تيودور، ماذا يفعل ابن عمك آليون؟ هل خدعت الألمان الشرفاء لتلعب لعبة الإنجليز على جزيرة الدببة؟ الآن اتضح لي كل شيء، هذا الظهور السريع للروس، خدم الإنجليز منذ مطلع التاريخ ....»

لم تعد كلماته مفهومة، فقد سلبه الذهول ما بقي من رشده. تقدم نحو لرنر مادا ذراعيه.. قفز لرنر، وركض حول الطاولة والقبطان يتعقبه.. سقطت الكراسي. وصل لرنر إلى الباب، ثم لحقه القبطان. تعثر بالعتبة العالية وسقط على السلم الملبس بالحديد إلى جوف السفينة. أربعا وعشرين مرة ارتطم رأسه الأقرع والعنيد بحواف السلم الملبس بالحديد نحو أربع وعشرين مرة ولم يتمكن حتى الطبيب في ترومسو من تحديد الخبطة التي أودت بحياته.

-12-
ولادة لقب

المحرر في صحيفة «كاسل» اليومية، كروزِنْشتيرن، لا يكتب كثيراً، فمهمته منحصرة في التدقيق اللغوي وكتابة العناوين. لم يكن سعيداً بعمله في الصحافة، لكن بما أنه يكسب رزقه منه، فليس بوسعه تجنب هذه الأحوال لحزنه الشديد. من يحاول وهو واقع في برميل مطلي بشحم مقزز أخذ مسافة، يتراجع وهو بذلك يتسخ أكثر. هكذا كانت حال كروزِنشتيرن أيضاً أثناء سعيه إلى عدم تلطيخ جوهره النقي وتحويل ذاته العميقة إلى ذات صحفية. كما أنه لم يكن من أهل «كاسل» ويكثر من ذكر هذه الواقعة حرداً، كأن اعتباره ابناً لهذه العاصمة الحضارية، عار لا يمحى، وكأن منفاه في «كاسل» تعبير فاضح عن كل عذابات حياته. بناء على بشرته النضرة والصقيلة وشعره الأسود الفاحم، يصعب تخمين إن كان في الثلاثين من عمره أم في الأربعين أم في السادسة والأربعين. أحياناً تكون عيناه ذابلتين كزبيب متغضن، وأحياناً تبدوان حادتين وثاقبتين مثل عينيّ فأرة في مطلع العمر. هل كان كروزنشتيرن مغروراً؟ في أضيق الحدود: فحلته السوداء ضيقة جداً، وتشبه في الآن ذاته ماسورة مدخنة، كأن فلاحاً قلب معطفه اللبادي ثلاث مرات. لربطة العنق عقدة دبقة، وعليها بقعة صغيرة، لكن كروزِنشتيرن لا يأبه بها. إلا أنه يعني بذقنه تحت الشفة السفلى أشد العناية، ويشذبها بالمشط والشمع والمقص والملقط. وإذا كان الآخرون لا يميزون بين ذقن

وأخرى، فإن اهتمامه منصب عليها. فبهذه الذقن المدببة التي لا تخفي وجهه المعذب، الشاب، وغير المنتعش رغم هذا، كان قادراً على تحدي عين العالم الذي لا يعرف الرحمة. يداه جميلتان، مع أنهما، وخاصة الأظافر، غير نظيفتين دائماً، وهذا كان مصابه الأكبر. فهو يغسلهما، ولكن الوسخ يتجمع تحت الأظافر وعليها، مع أنه لا يعمل أعمالاً يدوية. ولهذا يضره إبراز سبابته اليمنى بواسطة خاتم من العقيق الأصفر، كبير مثل خاتم الأسقف، وهو في الحقيقة خاتم أسقف. وبهذا الخاتم يتميز، كما تتميز حمامة يوضع في قائمتها خاتم. وهكذا يبرهن على أنه طار من البعيد إلى خساسة مدينة «كاسل» المدنسة، حيث لا يشهد أحد على درجة اختلافه الوجودي.

وحين يأتي الحديث عنه في هيئة التحرير، يوصف في الخفاء وببعض الهزء بأنه «من معجبي أوسكار وايلد وموريس ماترلينك». ما كان لأحد أن يأخذ عليه عيباً. سيرته نقية مثل الماء، وأداؤه الواجب يتم بملل، لكن في منتهى الشرف، وعدم ذهابه مع السادة الزملاء إلى الحانات، حق مشروع. وبما أنهم ليسوا قراء مطلعين، فهم لا يعرفون قدره. لا يعترض كروزنشتيرن على أوسكار وايلد، وموريس ماترلينك. في حوزته كل ما نشرته «صحف الفن» من أعمالهما، وسبب ملكيته لها هو تحديداً أنها ظهرت في هذه الدار. فهو راغب في معرفة جميع حلقات دار النشر هذه ومن هذا المنطلق تحول إلى جامع للكتب، وهو الذي لا يملك في غرفته المؤثثة في الفندق أي احتياجات شخصية.

كما قد يلتمع ريش ملون على أطراف جناحي طائر أسود نادر، كانت

صور أوسكار وايلد وتوماس ماترلينك في مركز دار النشر بين شسع الظواهر الرائعة التي لا تقارن. كان كروزنشتيرن قد شاهد المعلم مرة وحيدة من بعيد في ميونيخ، في ثوبه الأسود كثوب الرهبان، بصديري عال فوقه الرأس محدد الملامح والشعر الغزير. كطير سريع الحركات، وبذقن مرفوعة، وجه الرجل العظيم، رأسه فجأة نحو كروزِنْشتيرن ونظر إليه مشتت البال، وربما نظر إلى جاره، ربما لم يلحظه. ومنذ هذا اليوم لم يعد كروزنشتيرن يغادر الدار من دون أحد كتب الشاعر الذي غدت قصائده نديماً له، ليس أثناء النزهات في ممرات الحديقة المعزولة فحسب، إنما في غرف هيئة التحرير أيضاً. أراد الشاعر أن تطبع قصائده في خط مستقبلي تصعب قراءته. حين يفتح كروزنشتيرن صفحات الكتب، يشعر بأن الأبيات تقفز منها، وتنطبع على جبينه. وهو يفتحها لأجل هذا الإحساس ليس إلا، فهو لا يحتاج إلى إعادة قراءتها، لأنه حفظ القصائد كلها منذ زمن بعيد.

هكذا كان تناقض حياته، والذي يضطر إلى تحمله: أمامه «أغاني الحلم والموت» ذات السطور الداكنة الكئيبة وعليه في الآن ذاته أن يصحح مقالا ينعكس فيه كل عار المرحلة الراهنة، حيث «يجلس المتزلفون على العروش، بقسمات متبدلة وضجيج وضيع». ودولة أسرة هوهِنتسولار العملية والحرة، تتضمن كل ما يحتقره الشاعر كروزنشتيرن. فيها تسمي الأذهان الساذجة، ذلك الشقي الذي وضع يده على جزيرة قاحلة في بحر القطب، بالفاتح. ألم يعد أحد يعرف معنى الفاتح حقاً؟ هل هو غاز مجرم، لا يعرف شرعاً، ولا يشعر بألم، مسعور. هذه الشخصيات

الضائعة، شقت طريقها إلى أراض بعيدة، من دون اتصال مع الوطن، ومن دون إمدادات، إلى المجهول، كأنهم ليسوا على الأرض، إنما على القمر.. هذه الشخصيات دفعها جشع قوي، ومرعب، لكن ما هذا الجشع؟ جشع المال؟ لا ليس المال تحديداً، بل الذهب. والذهب يختلف اختلافاً جذرياً عن المال. الذهب بالنهاية عنصر غير مادي. وفي اسبانيا الخسيسة، التي انطلق منها كل أولئك الأبطال، لم يكن بالإمكان شراء أي شيء بذلك الذهب الأمريكي الطائل. ففيها لا شيء يعادل الذهب. ومن الناحية الاقتصادية كان الذهب كارثة حلت على إسبانيا. الذهب دفع اسبانيا إلى هاوية الفقر. ذهب الفاتحين كان حلماً، خيالاً، نعم خيالا مصطنعاً. الذهب كان شعراً صافياً، وإن إراقة الدماء من أجل هذا الشعر، أمر يشجبه، ويشكوه، بل يلعنه من أراد، إلا أنه ليس مبتذلا. لم يلعب المال دوراً في غزوات الفتح، ولم يلعب الاقتصاد بمعناه الحديث دوراً، بل لعب جنونٌ، تحول لدى العباقرة الذين رافقوا الغزاة، إلى طاقات مبدعة لبناء أهرامات روحية لا تقل عظمة عن أهرامات الهنود الحمر التي نهبت، مع كل الأسف عليها.

لكن هذا الفاتح الذي يثور عليه المصدومون، رغم أن لهم نصيباً في طبيعة عمله، هذا لم يفكر فعلاً في الذهب، إنما في الفحم، والفحم في المفاهيم المصطلحة لا يختلف أبداً عن المال. زعم أنه سينجد المهندس العظيم أندريه، الذي لم يفكر هو الآخر في وسيلة يتغلب بها على مخاطر العواصف القطبية الجبارة سوى المنطاد. بهذه الطريقة كان له أن يقفز إلى الماغما في جوف بركان أيضاً. ولكن همّ المنجدين كان

منصباً على المال منذ انطلاقتهم الصاخبة إلى الشمال الأبيض.. على «المصالح». هذه الكلمة تمثل لعين كروزنشتيرن أقذع الشتائم، التي يتصورها وتماثل عنده الاغتصاب، وانتهاك الشرف. وفوق كل هذا، كان الرجل المسمى لرنر عن غش وخداع، والذي تخرج منذ زمن بعيد من مدرسة فنون الكذب وأحابيل وسطه(1)، يعمل في حقل الصحافة، أي أنه زميل لكروزِنشتيرن. هل يحق له الاستهجان؟ فهو يعيش في الحظيرة نفسها.

يضع المنجمون تلاقي قوة تحمل الآلام مع المصائب المؤلمة في برج الحوت. ومع هذا يتلاءم تماماً سواد الأظافر. لكن كروزنشتيرن من مواليد كانون الأول، كما أنه لا يعتبر حياته كلها عذاباً، فقد عرف الانتصارات أيضاً. وحين انتهى من تصفح المقال عن رحلة تيودور لرنر، مشتت الذهن ثم طرحه جانباً، شدت انتباهه المجموعة الشعرية المفتوحة أمامه. «في شعابك سيشرعون بما تبقى من هدير صوتك؟ هل هذه بلاد الشكوى، الدموع والأيمان؟ أيها العمق الضحل. وليهزأ أحدهم: أهذه ذرى الهضاب الممدوحة عالياً بمنظرها المهيب وأرضها الخرافية؟ أهذه الأمواج التي تزيد فساداً؟ أصابعنا تصل إلى الرمل». هنا عبر الشاعر من دون مواربة عن رأيه في الحلقة المحيطة به. هذا المحيط المختار، الذي لم يقبل به كروزنشتيرن، سيقطع ذات يوم، ربما قريباً جداً، حبل الوفاء. هدير صوت الشاعر الذي بث فيه الذعر والرهبة، قد زال الآن، والظاهرة الصوتية تفصّل على مقاس معين. العمق لم

(1) الاسم لرنَر يعني المتعلم، الطالب

يعد عمقاً بعد أن زالت غشاوة السحر. الهضاب المسطحة، وأمواج الكلمات خرير ضعيف في بحر الطين، في المستنقع. هذه الحقائق ستراها الحلقة القريبة أيضاً. أما هو، فلا، فهو لم يكن جديراً، كصحفي، بالاقتراب من الشاعر، ولكن هذا الهدير لن يزول عن أذنه أبداً.. لن يزول السحر أبداً، ولن تعتم أبداً النظرة إلى الأرض الخرافية. الهازئ موجود داخل الحلقة الضيقة، لا خارجها، وهذه هي الأحجية الممضة في حياة الشاعر. يبحث عن العزاء والقدوة بين عظماء القرون الخالية. ومع أنه غير مخطئ هنا، لكنه لو تطلع حوله في الحاضر أيضاً، خلف حدود محيطه الغيور، لوجد بين أبناء عهده أيضاً من يواسيه، وإن لم يكن قدوة. «المعلمون العظام عزاء لك وقدوة، خدام الإله الأنقى، الأسمى، أمير الأرواح الكالح على جزر الضباب». هدير الصوت المحبوب قوي جداً في هذه السطور، يدفع القشعريرة في جسم كروزنشتيرن في حجرة التحرير الحارة. «أمير الأرواح الكالح على جزر الضباب». كان هذا السطر قد فقد قوته، عندما علم أن المقصود به هو شكسبير، لكنه استعاد الآن النغمة الأصيلة للقراءة الأولى. أطل ساعي هيئة التحرير برأسه من الباب.

«خلصت؟»

مرة أخرى قرأ كروزنشتيرن المقالة عن تيودور لرنر بسرعة، وكتب فوقها بخط صغير: «أمير الضباب». عندما وطأت قدما لرنر الأرض الألمانية، كان هذا اللقب منتشراً على جميع الألسنة.

-13-

اشتهار الرجل العظيم

لم يلتفت أبداً تيودور لرنر إلى سفينة هيلغولاند، التي كانت ملجأه ووطنه خمسة أسابيع، منذ أن رست على رصيف غيستهِ موينده، وغادرها كحيوان بري حبس طويلاً في صندوق خشبي، واكتشف فجأة غطاء الصندوق وهرب منه إلى الحرية. فكر: «أرض صلبة تحت القدمين، هل يقدر شاعر على وصف هذه المشاعر بعد خمسة أسابيع في البحر. هذه المشاعر هي التحدي الحقيقي أمام كاتب الرحلات. لحسن حظي أنني غير مضطر إلى مثل هذه الأشياء المعقدة». وصلت هيلغولاند إلى غيستهِ موينده بعد تأخرٍ دام يومين عن موعدها المحدد. ومن جديد صدمت لرنر رائحة السمك، عندما دخلوا حوض الميناء. لقد ظلت الحياة في البر كما كانت، أما حياته هو فقد شهدت تقلبات كثيرة. وبفضل تأخرها لم يكن أحد في استقبال هيلغولاند، ولم يطرح عليه فضولي سؤالاً. وبالمقابل كانت في انتظاره رسالة من السيدة هانهاوس في بنسيون هانزِه كوغِه، تعلمه فيها بضرورة السفر إلى فرانكفورت فور وصوله، لأنها فكت كل ارتباطاتها ببرلين. هل فسخت أيضاً عقد غرفته في بنسيون تانِنتسابفِن؟ حين تغيب هذه المرأة عن العيون تحضر مفاجآت كثيرة.

الجميل في فرانكفورت أنها بعيدة جداً عن يد شوبس. فشوبس صار عدوه الأول، وإلا فماذا يكون؟ صحيح أن السيدة هانهاوس

هدّأت من روعه قائلة: إن شوبس، رغم ذكره لرنر بالسوء، إلا أنه لا يحمل ضغينة في قلبه أو رغبة في الثأر، كما لا ينوي ملاحقته. من أين تعلم هذا؟ لم تحتر السيدة هانهاوس لدى إجابتها عن سؤاله.

في هذه الأثناء كانت بوبا شميديكِه قد أنجزت مهام عظيمة، وأدت كل الواجبات التي كلفتها بها السيدة هانهاوس.. كأنها تعمل لمصلحتها. خلال الأسابيع الخمسة لغياب لرنر، أحيل شوبس إلى منتجع قضى فيه على مشاعر الذل والهوان والسخرية التي تعرض لها، بسبب خراقة لرنر والعار الذي جرّه على جريدته، التي أشاعت للعامة أنه ذاهب في رحلة للبحث عن المهندس أندريه.

يقال: إن لأصفاد الشهوة أثراً مدمراً على الأخلاق، ولكن هذه الأصفاد هي التي حصنت رئيس التحرير شوبس (من يعلم إلى متى سيحمل هذا اللقب) من الدمار الأخلاقي. فحتى في أشد لحظات غضبه، بدا رقيق الطرف، لم يسمعه أحد يصرخ متوعداً بتحطيم لرنر.. هذا التهديد القبيح الذي يخرج عادة ببالغ السرعة من بين شفتيه. كل ما أعلنه على رؤوس الأشهاد كان: «أنا لم أنته بعد من لرنر». ما كان هجوماً حاداً تحول إلى حزن، ومكان المرارة حل القنوط. «أرجو أن يسعد بجزيرته». هل نطق شوبس هذه الجملة جاداً؟ يقسم بعضهم أنه كان جاداً. ما كان على لرنر أن يبتعد كل تلك المسافة القصية عن برلين.

ولكن دواعي ذهابه إلى فرانكفورت، كانت على مبلغ عظيم من الأهمية. فهناك يتشكل اتحاد المؤسسات المساهمة، ويجب أن يكون

رئيسه على رأسه، كما كتبت السيدة هانهاوس.

امتلأت مقصورة الدرجة الأولى التي ركبها لرنر في لوبِك («عليك أن تسافر بالدرجة الأولى مهما كانت الظروف.. من يعلم من سيكون في استقبالك في المحطة»، هكذا كانت تعليمات السيدة هانهاوس الصارمة). اتخذ زوجان وقوران، المقاعد المخملية ذات الغطاء الأبيض الذي يحمل شعار خطوط السكك الحديدية القيصرية، برفقة فتاة شابة، لا يبدو أنها ابنتهما، بل بالأحرى نديمة، وعلى كل حال فإن زينتها متواضعة جداً، مقارنة بزينة السيدة العجوز. عندما خلعت هذه المعطف فاتح اللون والواقي من الغبار، كانت كأنها ترفع الشراشف البيضاء عن كنبة فاخرة في الصالون. تدفقت ألوان ريش الطاووس الفاقعة مثل الماء على ثوبها الحريري الفاتح. كانت مكتنزة، ولكنها مشدودة كالنحلة. الكتل اللحمية الثقيلة تجدد شبابها في استدارات أنيقة، ثم تعود لتنتفخ من جديد، في نزول وطلوع متناسقين، وحين تتحرك في مقعدها المخملي، وهو ما لم تتوقف عنه طوال الرحلة (تلتفت وتغير جلستها وترفع يدها إلى شعرها وتشير إلى الخارج)، تصدر عنها خشخشة عالية، تضيع فيها الهمسات. هل رأت لرنر وهي تقتعد وتستعد لجلسة طويلة؟ إن فعلت هذا، فإنها فعلته بنظرات خفية. ما كان عليها أن تبحلق فيه لترى الشاب قوي البنية، مسمرّ البشرة، بشعره الغزير ومفرقه المستقيم وبعينيه الزرقاوين البريئتين. وجبة دسمة حلوة قبالتها، فقد لاحظت هذا بنظرات مختلسة من زوايا عينيها. «انظري دائماً نظرات مختلسة من زوايا العينين»، طالما أوصت ابنتها إِرنا، التي تبدو طفلة صغيرة، مقارنة

بعمرها، فبنات الفلاحين ينجبن عادة طفلهن الثاني في عمرها، الثامنة عشرة. كانت نظرات الأم، درساً جيداً للبنت في مادة «كيف أشبع فضولي من دون لفت الأنظار؟» لو أنها تراقب أمها وهي تمر بعينيها على لرنر يميناً ويساراً.. تلقي نظرة سريعة كالبرق على وجهه العريض، وتترك منطقة الخطر قبل أن يتمكن لرنر من الرد على نظراتها رداً جريئاً.

كانت السيدة تشعر بمطلق الراحة، كأنها وحدها مع عائلتها ولا وجود للشاب الذي لوحه هواء البحر قبالتها.. كانت بينهما فجوة عريضة. هل تنظر إليه أم لا؟ حسم لرنر أمره على أنها لا تنظر إليه. ولهذا استدار نحو النافذة، حيث تجلس الفتاة، وعلم أن اسمها ايلزه، فقد ذكر الاسم كثيراً، وكثيراً ما وجب عليها تقديم شيء ما.. إمساك شيء ما وإخراج شيء ما من حقيبة جلد التمساح.. من الحقيبة الصغيرة التي على الرف أو وضع شيء ما فيها. لقد قامت بكل ما طلب منها بسرعة وحيوية، دون أن تثير رضاً عميقاً في قلب سيدتها، كما فهم لرنر. بينما كانت عينا الزوج مسلطتين على حركات إيلزه الرشيقة. ومعه حق، فمنظرها ممتع حقاً في المقصورة الضيقة، حيث لا يستطيع الإنسان أن يتحرك بحرية. كثعبان قوي جميل، تلتف إيلزه على محورها برشاقة، حين تنهض لتطال حقيبة.. ترفع رأسها وتخفضه، وتبرز القسم العلوي من جسمها الشاب في بلوزة زرقاء، بكل مفاتنه وحركاته التي يطلبها رسام مهووس بجسم المرأة من موديلاته: نصف الوجه، وجه مختف، كتفان دائريتان ذقن ترتفع وتنخفض، ألعاب الظلال، ضوء في الظل الساقط على الوجنة الشبيهة بالخوخ، وكل هذه الحركات تظهر على إيلزه بتعاقب سريع. لم ير لرنر خلال خمسة أسابيع إلا

أنثى واحدة.. أنثى الدب التي اصطادها القبطان آباكا، وكانت مربوطة القوائم على المجذاف، كجثة مسكينة. لقد طغى على أحاسيسه ما يعرض الآن أمام عينيه، ويظهر كمسرحية تتغير مشاهدها بسرعة. هذا بغض النظر عن الرائحة. من حفيف الفراشات على ثياب السيدة، تنبعث رائحة رقيقة، بل مزيج من رائحة الشاي والصمغ يضمخ الحجرة بكل ما فيها من بورسلان فاخر. من دون تفكير مد لرنر يده إلى علبة السكائر، لكنه سرعان ما أعادها إلى جيب الجاكيت. فقد بدا له أن خلط عبير العطر برائحة التبغ عمل شنيع.

حين توقفت العائلة الموقرة لحظة عن طلباتها أخذت إيلزه تنظر في عيني لرنر بكل صفاقة من دون رادع. شعرها المرفوع، الذي لا يثبته إلا مشطان من عظم السلحفاة، يوشك أن ينسدل على وجهها. وهذا تناقض صارخ مع الدقة والكمال اللذين صعدت بهما العائلة القطار. دون أن تحيل بصرها عن لرنر، رفعت يدها إلى رأسها لترفع الخصلات السابلة على جبينها، ثم وضعت إصبعين على شفتيها وهي ترمقه بنظرات جريئة.

دهش من سرعة استيقاظه من ذهوله. ابتسم على حين غرة فرحاً. رأت السيدة ابتسامته. كانت سيدة المصادفات العابرة. ردت على الابتسامة بابتسامة، ولكنها ابتسمت شاردة، كأنما مرت في رأسها فكرة مسلية.

لرنر يقف في الممر، على بعد سبع مقصورات.. واثق مما سيحدث وعليه الانتظار سبع دقائق. سبع دقائق قد تطول دهراً، لتقف إيلزه بجانبه. وبنفس الأريحية والجرأة اللتين حدقت بهما في عينيه وهما في المقصورة، قالت له: «لحسن الحظ أنك فهمتني. أنا أجن إذا لم أدخن». أخذت

سيكارة من علبته. نظرت إليه بحميمية، ثم أخذت سيكارتين أخريين، ثم أخريين دستهما في بلوزتها.

قالت وفي صوتها استهجان شديد: «ما معي قرش واحد. هؤلاء الناس يرغمونني على السفر دون أن يعطوني قرشاً واحداً». دخنت سيكارتها كالأطفال. كانت تزرر عينيها على الجمر حين تمج السيكارة. لم تتقدم بكلمة شكر واحدة.

حين دخل لرنر المقصورة (انتظر سبع دقائق بعد أن ذهبت إيلزه) بدأت المحادثات فوراً. بدأ الجميع بالحديث فجأة. ثم رفع رب الأسرة الموقر يده وطلب الهدوء: «اسمح لنا أن نعرفك على أنفسنا. اسمي كورس. هذه هي السيدة كورس، زوجتي. وهذه الآنسة كورس، ابنة أخي. إننا على الطريق إلى فيسبادن». أعلن لرنر أنه مسافر إلى فرانكفورت.

«إذاً سنقضي معظم الرحلة معاً»، هتفت السيدة كورس ووجهت إليه للمرة الأولى نظرات مباشرة مكشوفة، بكل ثقل شخصها.

«معظم الرحلة، يا سيدتي المحترمة، خلفته ورائي»، قال لرنر هذا وهو ينحني انحناءة خفيفة. استمعت العائلة إلى حكايته مفتونة. قادها بكلمات قليلة إلى أقاصي الشمال وراء شبيتسبرِغِن إلى قفار العدم. وعاد من هذه الرحلة الخطيرة سليماً معافى رغم كل الصعاب؟

رد لرنر بنبرة واثقة: «أنا نعم، عدت سليماً، لكن آخرين ظلوا هناك. لقد فقدنا قبطان رحلتنا هناك في الأعالي، ودفنّاه في قبر يليق بالبحّار، على مقربة من جزيرة الدببة».

سألت إيلزه: «قبر يليق بالبحّار. ليس على الجزيرة؟ هل يرمى

الموتى بكل بساطة في البحر؟» اضطر لرنر إلى مزيد من الشروح. وقد تدفق الكلام بحيوية وإسهاب. لم ينس ذكر الخوابير بالأسود والأبيض والأحمر، وثيقة الملكية في زجاجة الكونياك، القبطان آباكا وقبر المؤمن بالقديم. لم تكن عائلة كورس قد سمعت بأن طائفة المؤمنين بالقديم ترسم علامة الصليب بإصبعين وهزا رأسيهما مستنكرين. بعد الحادث الأليم (هنا اقتبس لرنر من إخطاره إلى القنصل الألماني في ترومسو، حيث ذكر فيه كلمة «الحادث الأليم») تجلت حقيقة الصراع المرير على جزيرة الدببة بأسطع وجوهها. اعترض الروس على دفن جثمان القبطان روديغر على جزيرة الدببة، محتجين بقبر المؤمن بالقديم. فجسد الميت علامة على توسع ألماني لا يطيقه القبطان آباكا، مع أنه كان عدواً نبيلاً والحق يقال، فعندما أُنزِل جثمان القبطان روديغر من سطح هيلغولاند إلى «قبره البارد»، كما عبر لرنر متأثراً (قاطعته إيلزه بالقول: «عندما رميتم الجثة في البحر»)، أمر القبطان آباكا جنوده بتأبين الميت على ظهر السفينة الحربية سفيتلانا. في ذلك الفراغ الرمادي وقف الجنود وقفة استعداد في ثيابهم البيضاء وأنشدوا نشيداً هز مشاعر لرنر. حاول أن يدندنه لمستمعيه بالروسيه، ثم علا صوته: «هنا لم أتمالك نفسي من ذرف دموع لم أخجل منها. ثم أنزلت الراية بالنسر المزدوج حداداً وفي الآن ذاته ارتفعت الطيور في غيمة بحرية، فقد أطلقت المدافع، ولكن الطيور سمعتها قبلنا، فقد تدحرج صوتها على الماء وامتزج بالنشيد وعويل الطيور. وهناك في الأعالي كنا وحيدين تماماً».

هذه الجملة الأخيرة أثارت استغرابه أكثر من استغراب الآخرين.

«إذاً فأنت أمير الضباب»، هتف السيد كورس فجأة. أُمِرت إيلزه بصب الشاي، وأحضرَت ترمساً فضياً مغطى بالمناديل البيضاء. حل الغسق. لاحظ لرنر أن عيني السيد كورس لا تفارقان يدي ابنة أخيه، كأن عليه مراقبة كل حركاتها وسكناتها.

طال أمد الرحلة.. حل الظلام، وأخذ الركاب يتناوبون الحديث. كان السيد كورس مالك مصرف، وأبدى اهتماماً بالنواحي الاقتصادية لجزيرة الدببة. هزّ رأسه عندما أتى لرنر على ذكر «المرافق المناسبة». عندما خرج مع ابنة أخيه ليحرك دمه قليلاً، استقامت السيدة كورس في جلستها وقالت وهي تنظر من خلال زجاج النافذة إلى البراري: «وطبعاً في انتظارك زوجتك المحترمة في فرانكفورت؟»

«سيدتي الموقرة، أنا لست متزوجاً»، رد لرنر وفي صوته نبرة الإجهاد.

«وقلبك مازال فارغاً؟»

ولدى هذا السؤال أيضاً لم تنظر إليه، كما أنه لم يتمكن من الرد عليها، فقد دخل السيد كورس وقال: خلي البال على السيد لرنر أن يعدني بشيء، فأنا أريد أن أهدي ابنتي إِرنا صورة لأمير الضباب، فهل سيرضى بإرسال صورته إليها؟ وافقت السيدة كورس على رجاء زوجها.

«نعم، هذا من دواعي سروري»، قال لرنر، وأخيراً.. ألقت عليه السيدة كورس نظرة طويلة، أخذت تحتجب شيئاً فشيئاً.

-14-
التقاط صورة شخصية

غالباً لم يكن قرار نقل السكن في يد تيودور لرنر ذاته. فمن سوء قدره أنه لا يتفق مع المؤجرين، وخاصة مؤجرات غرف العزاب، إلا إذا دفع لهم أجراً عالياً. كان معتاداً على غموض مستقبله المالي، ولكن هذا الغموض يولد في نفوس المؤجرات الغطرسة والغضب والعدوانية. كان له آنذاك قميصان أبيضان جميلان، يرتدي أحدهما منذ يومين، والآخر في المغسلة. من المفترض أن تنتهي المؤجرة من كويه في الساعة الثانية ظهراً. وهو واثق بأن الياقة لن تكون مرفوعة ومنشاة كما ينبغي. سمع أصواتاً في الغرفة المجاورة. كأن مكواة قد ارتطمت بمسندها الحديدي. وفي هذه الغرفة حوض استحمام، في زاوية يمكن تغطيتها بستارة، لكن تيودور لرنر دخول الحمام، جاءت المؤجرة في هذا الوقت تحديداً من أجل القيام بالكوي أو أي عمل من أعمالها التافهة. هل كان الذنب ذنبه، لأنه لا يستيقظ قبل الحادية عشرة؟ أين ذهبت جاذبيته المحبوبة، المهيبة والساخرة في التعامل مع هذه المرأة؟ كيف يتحمل أن تستقبله دائماً بالشكوى منذ أيامه الأولى لديها؟ المؤجرة درس جيد في التربية. تحتار عندما تنفد مادة الشتيمة من يديها. ألا يجدر به أن يوقفها عند حدها؟

في الثالثة جاءت أخيراً بالقميص، مباغتة مؤجرها المستلقي على الصوفا المترجرجة، والمغطاة لحسن الحظ بشرشف مهترئ، مرتدياً

حذاءه. لم يوفرا على بعضهما الشكاوى. وعلاوة على هذا الظرف المقيت، دخلت الغرفة رائحة قدر الطعام الذي أكل منه مساء الأمس شاكراً حامداً. أما الآن فبدا له هذا الطعام مقززاً. كان لرنر يملك زجاجة عطر غالية، يسميها «حلتي الأفضل» وتحوي خليطاً نفّاذاً من خلاصات خشب الصندل والجلد والمسك، لا يمكن استخدامه خارج غرفة النوم. صب منه كمية كافية على يديه، ورش الماء المعطر على خديه. دخل قدر الطعام في شجار مرير مع الروائح العربية. شعر لرنر بأنه ينتفش وينتعش. جدل حول ربطة عنق سوداء منقطة بالأبيض. وفي الخلف تتذمر المؤجرة، مثل غراب يحادث نفسه وهو يحوم على تلة قمامة.

فكر: «قد أفسخ عقد إيجار هذه الغرفة منذ الغد».. لاح له كل محيطه بنياً، كذا الأقمشة التي تحمل ألواناً أخرى. «هذه الغرفة مثل جوف سيكارة ضيقة ومعتمة». تحت بخار العطر، تنازل عن أن تكون الكلمة الأخيرة في الشجار له، عليه التركيز. الأفكار التافهة، والحانقة تترك أثراً على الوجه، فتظهر عليه ملامح الزعزعة والتهشم. وإذا ترسخت هذه فقد تذهب كل الجهود هباء.

تيودور لرنر يريد التقاط صورة. وخلافاً لعادته ذهب سيراً على الأقدام. أما كان عليه أن يستأجر دروشكا حرصاً على الحذاء الملمع؟ لا، فقد ظنّ أن من الأفضل له أن يسير ليدخل مزاجاً مناسباً للتصوير. صحيح أن لون الوجه الوردي لا يظهر تماماً على الصورة، ولكن الانطباع الذي يولده الوجه يتألف من مؤثرات كثيرة. ما تذكره البطاقة الشخصية عن الصورة، هو أقل ما يمكن قوله عن صاحبها.

كان النزل الذي اتخذه لرنر موقتاً، يقع في حي بورنهايم. في الطابق الأرضي لوحة ذهبية تشير إلى ملحمة. وهذا ليس عنواناً جديراً برجل يخطط للتعامل مع كبار رجال المال والأعمال، الوزراء، أصحاب المصارف، وربما مع شخصيات كبيرة.. كبيرة جداً. لكنه يشعر بامتعاض لا يغلب من فكرة السكن مع السيدة هانهاوس تحت سقفٍ واحدٍ. فعلى الرغم من ثقته بأنه ما كان له أن يخطو خطوة واحدة في مسألة جزيرة الدببة من دونها، إلا أنه في الآن ذاته نمت فيه الرغبة في عدم كشف كل شيء أمامها. للرنر أسرار شخصية يخفيها عليها. فقد سكت مثلاً على معرفته بصاحب المصرف كورس. سيأمر بإرسال المكاتيب الموجهة إليه إلى عنوان أخيه فرديناند. منزل الأخ لن يصبح وطناً له، بل عنواناً. ولأن زوجة الأخ، ايزولده، تحتقره، فلن تفتح رسائله، لأنها لا تراقب سوى الذين يهمها أمرهم، وعلى رأسهم فرديناند.

الطريق إلى محل التصوير طويلة، فهو يقع في وسط المدينة. وكلما ابتعد خطوة واحدة عن مدار المؤجرة، ازداد لرنر قوة. الجو بارد، ومع هذا لا يرتدي معطفاً، بل إن البرد يشجعه أكثر.. يبعث فيه دفئاً داخلياً يورد وجنتيه. الطريق نحو وسط المدينة يرتفع قليلاً، ولهذا يسرّع خطواته، وتتوارد جميع الأفكار والمشاعر بسرعة أعلى.. تحول لرنر إلى كتلة من الطاقة.

على الطريق، لوحة فارهة تدل على محل التصوير الواقع في فناء خلفي زري لمبنى من الحجر الرملي الأحمر، الواهي. على عوارض خشبية يصل الزائر إلى ورشة صناعية بنيت في الفناء الواسع. يؤدي الباب إلى

صالة صغيرة غير مريحة، وغرفة انتظار، تثقلان عبء الانتظار. لكن لرنر لم يضطر للانتظار طويلاً، فما أن وضع قبعته على المشجب، حتى استقبله المصور في مريول فضفاض، لا تظهر تحته سوى الياقة وأنشوطة خفاقة، ورجاه الدخول. دخل تيودور لرنر غرفة التصوير. السقف الصفيحي، الذي تدعمه عوارض حديدية، لا يقل ارتفاعه عن سبعة أمتار، ومن نوافذ كثيرة في السقف يشع ضوء حليبي ساطع. وفي هذا الضوء لم ير لرنر، جهاز التصوير الكبير من الخشب اللماع، فقد أخذ فوراً باللوحة الخلفية. سفن شحن في نهر الراين، خلفها المدينة القديمة وبرج الكاتدرائية، في البعيد التلال الممتدة برفق إلى جبال تاونوس، سلسلة فيلدبِرغ وآلت كونيغِن، إطلالة من شرفة رائعة عليها أعمدة من الصخر الرملي، تمثال طفل صغير ولبلاب معرش. على المنصة تمثال فرس، وعلى مقعد حديدي آلة كمان وعلى مساحة مشذبة عروس مصفوفة الشعر.

قال لرنر: «منظر مهيب، لكن ما رأيك لو أبعدنا الألعاب؟ ثم إنني لا أعزف الكمان، إنما الاكورديون». «هذا المنظر ليس لأجلك»، قال المصور الجلف. كان مصاباً بالزكام، وكانت أجفانه ملتهبة فبدا بردانًا. تخيل لرنر الإصبع الجامدة، البيضاء من شدة البرد، وهي تضغط على زر العدسة. منذ لحظة الاستقبال والترحيب، افتقد المصور ذلاقة اللسان التي يتمتع بها أصحاب الدكاكين عادة. لم ينظر إلى لرنر، بل سار أمامه كصبي محل عابس خافضاً رأسه. ولما رفع بصره إليه الآن، تخيل لرنر أن مظهره لم يعجب الرجل. هل أثارت حبات الغبار الأبيض على الحذاء

امتعاض الفنان؟

ربما لم يثر امتعاضه أي شيء، وربما كان ساخطاً على نفسه، لأنه لا يعرف ماذا يفعل للرجل الواقف أمامه. كان المصور فناناً حقاً. كان بارداً لأنه يخطط لعمل سيستمر طوال اليوم. وهو مشغول الآن بالحبال المشدودة إلى زجاجات كبيرة معلقة بالسقف الصفيحي. بدا أن هناك خطأ ما. ففجأة ارتفعت لوحة نهر الماين، وكان اختفاؤها طعنة في قلب لرنر. أما كانت العلامات على الثروة الطائلة لملاك الأراضي في لوحة المدينة ستخدم أهدافه؟

في مكان المدينة نزلت صورة مكتبة. كرة أرضية كالتي قسم عليها البابا الكسندر السادس أمريكا الجنوبية بجانب طاولة مغطاة، تصطف عليها مجلدات مهترئة، مشكلة رواقاً من الكتب. خلفها خزائن هائلة تقارن بأهرامات مصر. بسرعة استعاد لرنر وعيه. هذه الصورة أفضل من منظر الماين. أمامه، على طاولة صغيرة، رأى كتاباً حقيقياً، غير ملون، في مخمل أزرق فاتح، مجموعة «كتاب الأغاني» لهاينريش هاينه. حمل الكتاب وتصفحه غارقاً في أفكاره، وآملاً أن يلتقط المصور هذه اللحظة.

«ولا منظر مناسب»، قال المصور وشد الحبال من جديد. هنا ظهرت مصر الحقيقية: الأهرامات في الخلفية، الرمل الأصفر في المقدمة، يبدو حقيقياً ويثير العطاس، عليه سرج جمل مزين. «لا هذا لا يناسبك»، قال المصور، وتتالت اللوحات في النزول من السماء والصعود إليها: جسر البندقية، سلة رمل وحصن رملي وأعلام ألمانية، كوخ على جبال الألب،

عريشة في حديقة، دكان على مضيق البوسفور. ذكّره المصور المحتد في البحث عن خلفية مناسبة بذلك العريف في مستودع الملابس، والذي بحث له عن زي ملائم أثناء الالتحاق بالخدمة العسكرية ولم ينظر إليه إلا بالكاد ثم التفت إلى تلة الجاكيتات والبناطيل، ينقب فيها، يرفع ثياباً ثم يصرخ فيه: «لا يناسبك».

رأى لرنر طوفان صور لا مثيل له، ولكنه من الناحية التقنية مرتب في أحسن صورة. بينها أيضاً صورة لمنزل محفور في الجليد أمامه زحافة كلاب. للحظة قصيرة شعر بإغراء شديد ليهتف حازماً: «قف». أليس هو الزبون؟ أليس له الحق في اختيار ما سيدفع ثمنه؟ عندما رفع رأسه وملأ صدره بالهواء، كي يكون له إيحاء أقوى، إيحاء رجل يعرف تماماً ماذا يريد، قاطعه المصور بأن نظر إليه للمرة الأولى نظرة جادة.

«أعرف ما الذي تريد قوله. هذه كلها لا تناسبك. سنأخذ صورة عادية جداً. رجاء مشط شعرك.. المرآة هناك. رجاء ادفع المنديل في جيب الجاكيت أعمق.. رطب الشفتين. رجاء توجّه قليلاً نحو اليسار، ثم انظر إليّ.. رجاء قف هكذا.. عد حتى العشرة».

العد حتى العشرة يجري بسرعة، ولكن كل عدد كان يسقط على رأس لرنر كقطرة من قبة هائلة. أرخى عضلات وجهه، ولكن ملامحه توترت مع كل رقم. توقف الزمن برهة، ضاع بين الأفلاك.. لم يعد له وجه. أدرك أن ملامحه لا توحي في هذه اللحظة بأي انطباع، كعلقة ميتة. احترقت عيناه.

قال المصور: «شكراً جزيلا.. أظن أن الصورة ستثير الإعجاب. كم

نسخة تحتاج؟»

تذكر لرنر السيدة كورس، السيد كورس، إِرنا وإيلزه، ثم قال: «اثنتين»، فقد كان ينوي الاحتفاظ بنسخة لنفسه.

-15-
باكورة الصباح في فندق مونوبول

ما الذي يحتكره فندق «مونوبول»، قرب القبة الزجاجية العملاقة لمحطة القطارات؟ غرفه واسعة، إلا أنها ليست مريحة، فأغلبها يطل على الواجهة، حيث تقرقع عربات الخيول وتدور العربات الآلية منذ الصباح الباكر. بالنسبة للمسافر يبدأ تشوش السفر الحقيقي منذ لحظة خروجه من قبة المحطة إلى الساحة أمامها. أما الغرف المطلة على الفناء الخلفي فهي ضعيفة الإنارة، وتقوم فوق مخبز يبدأ النهار فيه ليلاً. كما كانت أبخرة الأضاحي النابعة من أعواد البخور، ولحوم الحيوانات المحترقة ترتقي إلى الآلهة القديمة في أعاليها النقية.. تصعد رائحة الطحين والخميرة والعجين من هذا الفناء الخلفي إلى نوافذ غرف نزلاء فندق «مونوبول»، الذين يشعرون بعد قليل من إقامتهم بالتخمة مهما دخلوا أسرّتهم جائعين. كان ورق الجدران قد تم تجديده. فالجدران مغطاة بالورود والبراعم كأن احتفالاً أبدياً سيقام للحصاد ضمن الغرف. في الغرفة التي تحمل الرقم ثمانية وعشرين ألصق ورق قيقب ذابل بكؤيسات غبار الطلع البنية الجافة في أعذاق كاملة متعاقبة مع غصينات السوسن التي تصب من أقماعها لوناً بنفسجياً. في هذا الطوفان اللوني لم يكن هناك داع لمزيد من الصور، ولكنهم لم يبخلوا بها، بل وضعت على الجدران لوحات تمثل مارتين لوثر مطلاً على الشعب، غوته الشاب يختطف قبلة من فريدريكه فون زيزنهايم، لتكون أقطاب استراحة بالأبيض والأسود

في الغابة الكثيفة. الغرفة ذات الرقم ثمانية وعشرين من الغرف التي لا ينزل فيها أحد عن رضا. وكأن نافذتها تخجل من إطلالتها، فإنها تنحني بتواضع في أقصى زاوية. وحين يدخل النزيل إلى الغرفة لا يرى نافذتها في البداية، حيث يخفيها جدار نقال، عليه رسومات فراشات. خلف الجدار النقال تشاهد كرة نحاس على قائمة سرير. قرب الباب سرير آخر. دفع السكان الجدد أثاث الغرفة هنا وهناك، حتى لم يعد بالإمكان ترتيبها بشكل أفضل، ولكنهم لم يتمكنوا من منحها انطباعاً يوحي بالتناغم بأي حال من الأحوال. لا يمكن سد باب الخزانة، ذي المرآة البيضاوية، لأنها حشيت بالثياب. ثياب على كل كرسي، ثياب على الخزانة الأرضية، ثياب على الجدار النقال، ثياب على الحقائب. كما وضع على لوح الخزانة الأرضية صندوق خياطة يعج بالمعدات، وهو المنظر الوحيد الجميل في الغرفة.

كم كانت الساعة؟ يصعب تخمين هذا في الظلام. العمال يصدرون صخباً عالياً في المخبز منذ زمن بعيد. تغلبت رائحة الخبز على رائحة الرطوبة التي كانت مستديمة في الغرفة، قبل أن ينزل فيها السكان الجدد. من خلف الجدار النقال، لاح ضوء أصفر مشتت، حبيب إلى القلب كأنه نابع من شمعة، إلا أنه ضوء المصباح الكهربائي تحت مظلة تشبه التنورة ومثقوبة بالسكائر. والآن قال صوت أجوف، أجش، كأنه صوت ببغاء: «اللعنة، هذا يكفي».

وهذه هي الخصلة التي يتفرد بها فندق «مونوبول»: ليست النظافة العابرة، ولا البقع على الشراشف وطبقات الغبار في الخزانات، ليست

طريقة تقديم الحساب إلى بعض الزبائن يومياً، قلقاً منهم أو شكاً فيهم، إنما طريقة تركيب أنابيب التدفئة، التي تأتي بالأصوات من الغرف البعيدة وكأن سكانها في الغرفة رقم ثمانية وعشرين.

نطق صوت نسائي دافئ خلف الجدار النقال: «هذا هو الوكيل الأصلع من دوسلدورف». ففي تلك الغرفة كانت الإنارة جيدة، وسكانها كانوا مستيقظين في أسرتهم منذ ساعات، ومشغولين بأفكار حالمة. هل تحدثت إلى نفسها أم إلى الرجل الشاب أم إلى الشاب العجوز المستلقي في السرير قرب الباب؟ الحرارة عالية في الغرفة رقم ثمانية وعشرين، ولكن نوافذها ظلت مغلقة، بسبب رائحة الخبز الطازج في الأسفل. كان الشاب قد أبعد الغطاء الأحمر المتلألئ ليخفف من أثر الحرارة على جسمه البض. نصف عار، صدر ناهد، بطن مرتفعة قليلاً كبطن الرضيع، ويرتدي سروالاً داخلياً خفيفاً. مازال وجهه ناعساً، ولا تعابير فيه. شعره الغزير الصقيل، بلا لون محدد، ويغطي جبينه وعينيه كقبعة. لا ذقن في وجهه مع أن الولد طويل، بحيث تمتد قدماه من خلال قضبان حافة السرير. مد يده متلمساً علبة الصفيح على الخزانة الأرضية ذات اللوح المرمري. دس سيكارة في الوجه الذي مازال مغلقاً. اختلطت رائحة الخبز بخليط نفاذ تموج في موجات زرقاء في الضوء الأصفر كألوان ريمبرانت إلى خلف الجدار النقال.

«أنت تدخن»، قال الصوت الدافئ.

قال الفتى الطويل وكأنه يحلم: «فطور الجندي، الكونياك والسيكارة».

«ممنوعان ما دمت تعيش تحت سقفي»، لكن هذا لم يكن تهديداً أو رغبة في الشجار. فهذا الحوار القصير لا يجري للمرة الأولى في الهواء الخانق فجراً.

ملأ الفجرَ غناءٌ معدني.. تحركت الستارة اللبادية، ودخل الغرفة ضوء باهت سلط على قطع الثياب المتناثرة والمتكومة. أغمض الفتى عينيه، ولكن أمه أشارت إلى أن الصباح قد حل وليست أمامه سوى مهلة قصيرة. كما يلملم السجين فراشه نهاراً ويضعه في الخزانة، لن يسمح له أيضاً بالمزيد من الكسل.

تأرجح الجدار النقال.. من خلفه ظهرت السيدة هانهاوس في ثوب النوم، وكان وجهها الشاحب محاطاً بشعر غزير شائب، لُفّ ليلا على لفافات الشعر. كان الفتى قد ورث الشعر من أمه، وهذا يعني أنه لا يصعب التكهن أي منهما الكائن الأنضر، والأشد، رغم الشبه الشديد بين الأم والابن، الذي تجاوز حدود الجنس. حول عين الشاب ظلال بنية فاتحة، ولشحمه الفتي الأنثوي تلك التكورات الخفيفة التي تفزع منها النساء. بينما الأم تشبه إجاصة قشرت للتو. على جبينها وشفتها العليا عرق خفيف. داخل هذه الجدران الحارة تنضج الأجسام «على نار هادئة» كما يعبّر الطهاة. أمام الخزانة الأرضية، التي تقوم عليها قصعة الغسيل، نزعت الأم قميصها بضربة واحدة فلم تعد على جسمها سوى الجوارب الطويلة، التي تربطها أنشوطة على جذعها.

«أدر وجهك»، قالت له دون أن تلتفت إليه. لم يتحرك الفتى وراقب منظر الظهر الذي ألفه منذ زمن بعيد، توأم التلال المرتفع على جانبي

العمود الفقري للأم. لجسمها من دون ثياب تعبير مختلف كلياً عن في مشد الجسم. القرب من المخبز يقرب تشبيه هذا المشد بقالب نحاسي تصب فيه عجينة البسكويت المختمرة، فما أن يرفع الخباز القالب حتى تنتفخ وتمتط. وجسم الأم ينتفخ، يمتلئ، ينبسط في الآن ذاته. صدر خرير، وتصفيق، وغرغرة، بينما هي تنحني على حوض الغسيل. دخلت في مزيج روائح الغرفة رائحة الورد والقرفة المنبعثة من الصابون الممنوع على الابن. تجمعت على الأرضية قرب الخزانة بركة ماء. قفزت المرأة شبه عارية، وهي تخفي صدرها بمنديل رطب عائدة وراء الجدار النقال. وهذا لا يناسبها. فلم تكن متصابية ولا غمضة رمش. عندما شاهدها الابن من جديد كانت ترتدي قميصاً مكشكشاً نظيفاً، مع أنه بال.

«علينا في أول يوم فراغ لنا، أن نجد حلاً للكشكيش»، كانت تكرر هذه الجملة كل صباح، وهي تنظر إلى أشباح الخيوط المتهدلة من ثيابها في المرآة البيضاوية. وفي هذه اللحظة تنتهي مهلة الولد، الغشيم، العجل، كما تسميه عندما لا تناديه باسمه الحقيقي، الكسندر، المناسب تماماً لطوله. ففي هذه اللحظة عليه أن ينهض من السرير القصير على طوله، وينجز أقسى أعمال نهاره، ربط مشد جسم أمه بكل ما فيه من طاقة.

«أقوى».. تصيح السيدة هانهاوس وهي تستند بيديها المكورتين إلى اللوح المرمري المبلل للخزانة الأرضية، كأنها تطالب جلادا بأن يذيقها أشد العذاب. والكسندر يشد الأربطة حتى تشي حركة من يدها بأنه قد

وصل حدوداً لا يمكن تجاوزها. لأن من يتجاوزها سيقصم ظهر المرأة.

الأعمال التالية تمتد دهراً. لا تظهر الحاجة إلى الكسندر مرة أخرى إلا حين إعادة ترتيب شعرها. وبعدها تأتي أخيراً اللحظة المتكررة كل صباح، حيث تكون السيدة هانهاوس في أبهى حلتها.

في هذا الصباح ارتدت ثوب التافتا البني بالأشرطة البنفسجية. صففت شعرها على شكل مخدة تخرج منها ضفيرة طويلة. لم تتبرج. شفتاها تلمعان باللون الوردي. على جبينها ووجنتيها خطوط رقيقة تشبه الخدوش المتشابكة على البورسلان الأبيض.

قالت: «سأذهب للبحث عن تيو؟ تيو يظن أنني لن أجده إذا انتقل من برلين. فعلاً، ما عنده خبرة بالحياة». حافة التنورة تغطي على قدميها. من يرها خارجة من الغرفة يظن أنها تتدحرج ببطء. استلقى الكسندر في السرير، ورأى من جديد الهيئة الغريبة في المرآة البيضاوية.. هيئة أمه.

-16-

تزويق جزيرة الدببة

مقهى الشطرنج «بنت البستوني» لا يبعد كثيراً عن فندق «مونوبول». يفتح أبوابه منذ التاسعة صباحاً، لكن لا يؤمه كثير من الزوار قبل العصر. الموائد مرصعة برقع الشطرنج في رتل طويل أمام كنبات مغطاة بالقماش المشمع. فمن يجلس على الكنبة ومن يجلس على الكرسي الخشبي المزخرف؟ أحد اللاعبين مستغرق في أفكاره ولا يقوم سوى بطرد الذباب عن ظاهر يده، في حين نجد آخر يفكر بكامل جسمه، والأفكار المتقدة فيه تجعل أعضاءه ترتجف كضفدع يتعرض لصعقات كهربائية. إن الدخول في مفاوضات صاخبة على إحدى هذه الطاولات، يشي بقلة الذوق. لوحات كثيرة تطلب «الهدوء التام»، في إشارة إلى المستوى الثقافي للزوار خليقي الثياب في معظمهم. في المقهى ممر طويل، وآخر قصير ينحرف في نهايته بزاوية قائمة. تفصل الفرع الطويل بطاولات الشطرنج الكثيرة، ستارة سوداء عن الفرع القصير الذي يحوي طاولتين فقط، وفي هذا الفرع المنعزل يلعب الزوار بالورق والدومينو وألعاب أخرى أكثر تواضعاً من الشطرنج. الأصل في اسم المقهى هو هذا الفرع الثاني، فالمقهى لم يدخل نظام الشطرنج المتشدد على برنامجه إلا بعد ظهور مشاكل مستديمة بين الشرطة، ولاعبي الورق، ولكن هؤلاء انتقموا لشرفهم ولم يعودوا يمارسون هوايتهم في القسم المعزول فقط. أما السيدة هانهاوس فوجدت فيه مكانا لا يضاهى لمواعيدها، فهنا يثق

الضيف بأن أحداً لن يزعجه، فلا يدخله سوى المهووسين بالشطرنج.

«هنا أشعر بنفسي وكأنني في بيتي»، قالت برضا ساطع، كغبار الذهب الذي يغطي على يوم كئيب. وهذا في حد ذاته تصور عجيب: السيدة هانهاوس تسكن في بيت! هل ستعلق في هذا البيت أيضاً لوحات «الهدوء التام»؟

«أيها الشاب، لقد انتهت أيام الإجازة الطويلة، وحان الآن وقت العمل»، قالت لتيودور لرنر الجالس قبالتها ببشرته الملوحة بهواء الشمال والتي لا تتوافق البتة مع ياقته البيضاء، ثم أعلنت له عن مفاجأة مفادها أنه مكتشف جزيرة الدببة، مع أنها تعي تماماً ما الذي سيعترض به بطهارة يديه وعفته: لقد اكتُشِفت الجزيرة منذ مئات السنين ورسمها الرحالة فيلِم بارينتس في خرائطه القديمة، وحدد مقاساتها وصفاتها. لقد استخدمها الصيادون في أعالي البحار من مختلف الأمم كمرسى ومستودع، كما تفاوضت عليها الدول المجاورة لها، في مؤتمراتها الدبلوماسية منذ زمن بعيد. كل هذا صحيح وغير صحيح. ففي جميع صالات القراءة المخصصة للنساء (لا تني السيدة هانهاوس تكرر: «إن ما يعنيه الموقد لأي ربة بيت، يتجسد لي في صالات القراءة المخصصة للنساء») في كل المدن، وفي فرانكفورت أيضاً، اكتشفت في مقالات رائعة عن كولومبوس سبقاً مشابهاً لعملية جزيرة الدببة. المكتشِف ليس من يعثر على شيء.. يفحصه ثم يرميه، بل المكتشف الحقيقي هو من يسمو به إلى مستوى الواقع. حتى اليوم الراهن لم يكن أحد يعرف أن كنزاً سرياً مدفون هناك، في الشمال، تحت الصخور الصماء والأعشاب

الضعيفة وزعيق طيور البحر. فقد كانت الجزيرة «من دون سيادة»، لكن ما معنى «من دون سيادة» معناه عديمة القيمة. الاكتشاف ليس سوى إضفاء قيمة على شيء لم تكن له قيمة في الأصل. تشوشت أفكار لرنر. ما الذي كانته جزيرة الدبة أصلاً؟

أوشكت السيدة هانهاوس أن تفقد الصبر، بسبب ذهوله. وعلى الرغم من فراغ الفرع الرئيسي لمقهى «بنت البستوني» من الزوار، فقد حذرت شديد الحذر من رفع صوتها، إلا أن الهمس منح كلماتها نفوذية عالية.

أردفت أن البشرية في العالم المعاصر، الذي تعيش فيه لحسن حظها، تمكنت أخيراً من صياغة جميع عوامل الحياة: كل الحوادث السياسية والتاريخية والاجتماعية، وجميع أنواع الإنتاج البشري والطبيعي، في صيغة وحيدة سهلة الفهم والتطبيق. وبفضل هذه الصيغة زال عن العالم كل ما هو غير متوافق جوهرياً. أخيراً.. تخطينا الحاجز الذي كان يمنعنا حتى اليوم من تشبيه الآخرين بأنفسنا، كما يقال. إن حقيقة الحياة الجديدة تقوم على أساس التشابه والتلاحم بين جميع الموجودات. إن الاقتصاد بثورته الهادئة، لكن الجارفة من حيث طبيعتها، هو الذي جعل المساواة التي طالبت بها السياسة، واقعاً. من وجهة نظر الفاتحين الجدد في عالم الاقتصاد، وهذا بفضل الصيغة السحرية التي يحفظونها عن ظهر قلب، فإن كل الأشياء قابلة للتشابه: قدر الطعام، قصيدة لايمانويل غاليك، قاطرة، تاج ملك، وأيضاً جزيرة الدبة، وذلك كلاً حسب سعره. ولا بد أن الأستاذ لرنر أيضاً بدأ يفهم هذا. ما لا سعر له لا يناسب هذا النظام

الرائع، لا مكان له فيه، ولهذا لا يمكنه دخول العلاقة الشاملة بين الأشياء حول العالم أجمع. وهو لهذا عديم القيمة ولا وجود له أصلاً.

أحياناً، كانت السيدة هانهاوس تعدّ من ثمار قراءاتها سَلَطة غريبة نوعاً ما. «هل فهمت الآن لماذا أنت مكتشف جزيرة الدببة الحقيقي وعليه تلقب بأمير الضباب؟ بفطرته استوعب المحرر في جريدة كاسِل الحقيقة الكاملة. الضباب! يجوز أن تكون الجزيرة محاطة بالضباب، لكن أمير!؟ هذا هو الاعتراف الواقعي بحقيقة جلية كعين الشمس. وبينما أنت تكتشف الجزيرة، وتعرض نفسك هناك لمخاطر شتى، بغرز الخوابير (أنا فعلاً مسحورة بكل نقلة من نقلاتك)، كنت أنا في ألمانيا الحارة، والبعيدة مئات الكيلومترات عن الجزيرة، جالسة في الأريكة، على أرض صلبة نوعاً ما، اكتشف الجزيرة بشكل آخر. لقد خلقت مقدمات دخول الجزيرة في مدار حقيقي، تصبح فيه بضاعة بذاتها، أخيراً وبعد تأخير مديد».

لا تصبح كل الأشياء الخارجة عن حركة المقايضة الحضارية، بضاعة بهذه السهولة. ففي البدء شيء روحي، غير مادي، قرار. مثل هذه الجزيرة تنتظر قراراً يتخذه رجل أعمال، أو مستثمر، فيعطيها قيمة ما. المستثمر يجلس في مكتبه الفاخر محاطاً بالقيم الواقعية ويجب دفعه دفعاً ليجود بهذه القيم التي استحوذها بالألم أو الخديعة أو الجهد، مقابل شيء لم تكن له حتى الآن قيمة، لكنه اكتسب فجأة شكلاً واسماً ووزناً بفضل التضحيات التي قدمت في سبيله. والآن فجزيرة الدببة موجودة مرتين: مرة ككومة حجارة تحت أضواء الشمال، على مسافة أربعة

عشر يوماً شمال شبيتسبرغِن، ومرة أخرى، وبنفس الواقعية، إن لم تكن بواقعية أشد، على الورق بصيغة «الهيئة الألمانية لجزيرة الدببة»، وهي شركة قيد التسجيل بمساهمة مستثمرين متمكنين، ورئيسها هو تيودور لرنر. كانت السيدة هانهاوس قد رجعت إلى دفاترها القديمة، باحثة عن علاقات انقطعت، فعثرت على شركة بورخارد وكنور لنقل وبيع الفحم بالجملة ذات التاريخ العريق. فقد كانت، عندما ولدت ابنها الكسندر، في نفس غرفة ربيبة السيد كنور، وهذه الشراكة تؤدي إلى علاقات متينة. وتعرفت إلى السيد اوتو منذ اشتغالها باستيراد القنب على جزيرة جيرسي، هذه التجارة الخشنة، لكنها المتميزة والساحرة بخبراتها. والسيدان مأخوذان، على ذمتها، بمنافع جزيرة الدببة. ولحسن الحظ لعبت الصحافة دوراً لصالحهما، طبعاً تحت قيادة السيدة هانهاوس.

أصغى لرنر غير مصدق أذنيه. فقد كادت نتائج بعثته تتسرب من بين أصابعه خلال الأسابيع الأخيرة التي قضاها في الفراغ، بل لقد لاح له أحياناً أن عملية الجزيرة بمجملها كانت عبثاً. وكلما ابتعد عن ذلك الجبل الكئيب القائم وسط مياه كئيبة، تجمعت قطرات العملية إلى بعضها بعضاً. عندما وصف للزوجين كورس وإيلزه في القطار، رحلته الشاقة إلى الجزيرة وذكر «المرافق المناسبة»، التي يجب تشييدها هناك، تصور صورة مثيرة أكثر كمالاً.

«اقرأ هنا ما تكتبه جريدة دارمشتات العامة. هذا كان سبب اقتناع بورخارد وكنور بالقضية: «حسب برقيات تيودور لرنر، فقد حفر المهندس مولمان برفقة عاملي مناجم ألمان نفقاً يبلغ طوله عشرة أمتار

تقريباً، واستخرج خلال هذه الفترة خمسين طناً من الفحم الممتاز، القابل للاستخدام في القاطرات وأكوار الحدادين والتدفئة المنزلية. بعد الانتهاء من التجارب على سطح هيلغولاند، أرسلت السفينة إلى ترومسو بفحم من إنتاج الجزيرة. على الإجمال، شيد لرنر منزلين كبيرين، انتهى من المنزل الواقع على المرفأ الجنوبي، أما الثاني، القريب من المنجم، فقد وضعت أسسه الحجرية. كما شيد مستودعاً يستوعب نحو ألف طن سيوضع قيد الاستعمال في الثامن من آب، وشيد كذلك أربعة أكواخ، اثنان منها تم تجهيزهما، والآخران قيد البناء. وبسبب حلول الشتاء، سيتم اتخاذ القرار النهائي حول سير الأعمال في أواسط آب».

«من يدعي هذا؟» سأل لرنر. سمع صوته كأنه قادم من البعيد. وفي الآن ذاته طنت أذناه. خشي من الدوخة، وتشبث بمسند الكرسي الخشبي، لا كالمبحر في عاصفة هوجاء.

«هذا ما قصقصتُه من برقياتك»، ردت السيدة هانهاوس، ودست المقالة بين الأوراق الكثيرة في ملفها.

«لكني لم أزعم أبداً ...». وكانت هذه الجملة صرخة مدوية في مملكة الصمت الأبدي. لحسن الحظ لم يبدأ الزبائن باللعب وإلا لكان صبي المقهى قد أنهى مؤتمر هيئة جزيرة الدببة بطرد المساهمين إلى الخارج. دهشت السيدة هانهاوس: «إذا صح ما أتذكره، فإنك تحدثت عن أعمال تأسيسه على المرفأ الجنوبي».

كان تيودور لرنر قد تجاوز لحظة الرعب الأولى. بدأ الحديث بغضب مسيطر عليه، وأردف أنه لم يقل قط إنه بنى منازل.. كل ما فعله مع

مولمان هو إجراء بعض القياسات لتحديد موقع منزل قد يبنى. كل من يرى هيلغولاند، يعرف على الفور استحالة تحميل السفينة بالخشب الكافي لمنزلين وأربعة أكواخ. ومولمان لم يحفر نفقاً طوله عشرة أمتار في الصخور، وكل ما فعله هو أنه عثر على الموقع الذي كشفه مهندسو الجمعية الألمانية لصيد السمك في أعالي البحار، وهناك استخرج عدة قطع فحم («بيديه العاريتين»)، لكن لا أحد ذكر خمسين طناً من الفحم. أي تشويه للكلمات هذا، أي تزوير للحقائق، وأي احتيال؟

احتيال؟ حظرت عليه السيدة هانهاوس استخدام هذه الكلمة، قائلة: إن الاحتيال ليس من شيمها.

«الآن نسير في خطوتين. أولاً هدئ نفسك، وثانيا سأشرح لك مقاصدي».

هل فكر بما استفاده من الرحلة؟ لا شيء، إذا كان الإنسان واقعياً. «المرافق المناسبة»، التي قد يدافع عنها الرايخ الألماني، لم تشيد، وعوضاً عن هذا عرفت كل الدنيا خبر الجزيرة. بورخارد وكنور وغيرهما يمكنهم الذهاب الآن إلى الجزيرة، غير مبالين بلرنر يبنوا ويحفروا وبذلك يستفيدون. عليه أن يفهم أن جمع المال لاستثماره في جزيرة الدببة، أوجب إيهام الناس بأن الأعمال بدأت هناك فعلاً. هل سيقبل السادة بورخارد وكنور واوتو فال أن يكونوا شركاء للأستاذ لرنر وهو لا يملك ذرة تراب على الجزيرة؟ لماذا؟ ثم ألم يقم بمسح العقار؟ أليس هذا بحد ذاته عملاً تأسيسيا؟ وما الفرق بين حجر الأساس والمنزل الكامل؟ ثم ألم تتوقف كل الأعمال لحلول الشتاء؟ وهل يمكن فعلاً أن

يرسل السادة بورخارد وكنور واوتو فال جواسيسهم ليقوموا بتعداد المنازل على الجزيرة؟

ثم أضافت معنفة: «لا تضج بالشكوى الآن. لقد أقمت لك مجتمعاً راقياً. سيكون لك الفخر بمعرفة هؤلاء الناس. مازال بورخارد وكنور مترددين في دفع مستحقاتهما مقدماً، ولكن السيد اوتو سيضع في خدمتنا عشرين ألف مارك في الأسبوع القادم. وحتى ابن عمك، السيد نويكيرش مدير المناجم، الذي أحبذ وجود اسمه ولقبه معنا في الشركة، يفكر في أن ينضم إلينا. وأخوك فرديناند سلمني اثني عشر ألف مارك».

«هل اقترضت المال من فرديناند؟!»، دفع فيه الحنق القوة والعنف من جديد.

«ومن أين نعيش؟ مصاريفنا كثيرة. وإذا كانت الجريدة قد مولت الرحلة، فهذا ليس من شأن أحد».

«وما الذي سيحدث الآن؟»

«الآن عندنا رأس مال للبحث. فشركة بهذا الجمال، لا بد من أن تعثر على شارٍ».

-17-

الغدو والرواح في فندق مونوبول

ذهبت السيدة هانهاوس إلى المحطة.. لرحلتها القصيرة استعارت حقيبة من تيودور لرنر، حملها الكسندر وراءها. «أحسب حسابي لأن تعتني به في غيابي»، قالت وهي تضع يدها بالأظافر الملونة الحادة على ذراعه. لم يسر لرنر بالمهمة.. كان يعز عليه أن يقوم بشيء يفوح برائحة الأواصر الأسرية. ويبدأ هذا من عائلته. فمنذ زواج أخيه فرديناند، صارت الزيارات لا تطاق. لم يستقبح ايزولده، لكنها مفزعة كزوجة أخ وأم وربة بيت لأخيه. إن تعاظم السلطة لا يليق بكل الناس. فبما أن أجدادها من ناحية الأم كانوا من النبلاء، خلعت ايزولده على نفسها ثوب الأبهة والرهبة ووقع فرديناند تحته. كلما زار لرنر بيت أخيه فرديناند، شعر بالحاجة إلى طقوس طهارة ليغسل الدبق الذي يعلق به. ثم إن فرديناند وضع شمعاً في أذنه منذ أن تزوج ولا يرد على أخيه حين يحدثه عن الأعمال. فقد جاء في جوابه حرفيا «عندي عائلة» ولا يريد الآن سوى سماع أخبار النجاح ولا يكف عن السؤال عن «المصير الحالي للاثني عشر ألف مارك»، التي غررت به السيدة هانهاوس ليوظفها مقابل فائدة كبيرة. كان لرنر واثقاً بأن ايزولده لا تعلم بهذا الاستثمار. ربما حفظ فرديناند هذا السر كبرهان قاطع على حريته من زوجته ولرنر سيفعل كل ما في وسعه كي لا يتزعزع هذا الإيمان. أليس ملزماً من الناحية الأخلاقية بعدم رد هذا المال، قهراً لايزولده؟

كما أن السيدة هانهاوس تنأى بنفسها كثيراً عن العواطف والشجون العائلية، وحين تبدي أمومتها أمام الآخرين، فإنها تستغلها سلاحاً في معاركها العملية. لم يجرؤ تيودور لرنر على طرح السؤال عن زوج محتمل لها. فهما لا يتبادلان قط أحاديث عن الماضي. على كل حال سمع الكسندر يقول أمام المستخدمين على باب فندق راينيشَر هوف في كولونيا إن «السيد لرنر» والده، كما ذكره مرة بصفة العراب. وكل هذا يثير اشمئزاز لرنر. وبقدر سمو مكانة ونشاطات السيدة هانهاوس، يبدو له ابنها مستغرباً بليداً. ثم إن طريقة حياة الشاب الحالية غير سليمة ولا تبشر بمستقبل زاهر. فهو من ناحية في أغلال فولاذية، ومعتاد على الطاعة والخضوع. وشاهد لرنر بأم عينيه ما الذي يحدث حين لا يمتثل للأوامر. فمرة أرسلته السيدة هانهاوس ببطاقة إلى بورخارد وكنور. وعندما عادت إلى غرفتها مرهقة من المؤتمر الذي عقدته مع المستثمرين المحتملين في صالون فندق آخر وسألت الولد العملاق وهي تنزع الدبابيس من شعرها عما إذا كان قد جاء بجواب وعلمت أنه نسي المهمة، توتر جو الغرفة، وكانت أقصى أماني لرنر أن يهرب منها. كالمجنون قام الكسندر، تستحوذ عليه مشاعر الخوف والذنب، وتلقى على وجهه العالي صفعتين، دست فيهما أمه كل قوة ذراعها. مال رأسه. احمر الوجه الشاحب. كأنها تضرب حيواناً مروضاً لا يدرك قواه الذاتية. ولكن الكسندر كان يعرف قواه. فهو يكسر الجوز بأسنانه وينزع مقبض الباب إذا هزه. لكنه شل الآن، حتى أنه لم يرفع يده ليتقي الصفعات.

فهو خادمها الطيع.. ساعيها الخنوع، وحارسها الأمين. كانت تسرحه ثم تشده بحبل لا تنفصم عراه. وأحياناً تنفصل عنه. رآها لرنر مرة وهي تعطي الولد عشرين ماركا، اختفى بعدها لمدة أسبوع. وخلال هذا الأسبوع لم تذكر اسمه مرة واحدة. لغياب الكسندر فوائد عظمى، ففي تلك الأيام بدأت المحادثات مع السيد فال. والسيدة هانهاوس أكثر رزانة في غياب الكسندر. هناك رجال تفضحهم زوجاتهم، ورجال تفضحهم أمهاتهم، أما السيدة هانهاوس فيفضحها ابنها. فالشبه الشديد بينهما لا يترك أي مجال للشك بالرباط الذي يربطهما. الرزانة، القسمات العملية الجادة، والغطرسة التي تشع من السيدة هانهاوس عادة، تصبح موضع التساؤل في حضور ابنها في حلته التي تتفق على جسمه، كما عبر لرنر. ورغم كل شدتها عليه وتعنيفها له، فإنها لا تقاوم إغراء مسح شعره، جره إلى حضنها والحدب عليه. حين لا توجد أوامر يطيعها، تكون له الحرية في التسكع. وأحياناً يلتحق بأعمال ما، فقد تعلم من أمه الكثير. شن يوافق طبقه. وهذا ما يزعج لرنر أكثر من غيره.

«لا يعجبني أن يكون للأولاد رأيهم الخاص، وينفشوا نفسهم به»، سمع لرنر في طفولته العم هانس، ابن عم أبيه، ذا الشارب الأبيض الكث يقول وهو حانق: آنذاك جرح هذا مشاعر تيودور الفتي عميقاً، لكنه الآن يفهم العم، فهو ذاته صار عماً.

«المشروبات على حساب عمي»، كان الكسندر يقول على المدخل قبل أن يختفي عن عينيه. لم يعانِ لرنر أي مصاعب في أداء واجب العناية بالولد، الذي كلفته به السيدة هانهاوس.

بقدر خضوعه لأمه، كان الولد وقحاً مع الآخرين. كان لرنر حريصاً كل الحرص على ألا تبدر بادرة غزل بينه وبين السيدة هانهاوس، وهي أيضاً تتصرف معه على هذا الأساس. كانت ترفع الكلفة لحد الإدهاش وتحافظ في الآن ذاته على الخصوصية. فهما أبناء سوق، وحافظا على هذا الدور حتى في لحظات الاسترخاء. إلا أنها تسمح لنفسها بإبداء بعض الأمومة الهازئة.

«عليك الذهاب الآن إلى السرير»، تقول له مثلاً عندما يحلق أمامه شارداً، يكاد الملل يقتله. كانت تعلم أن الحالة النفسية لمواليها ضعيفة نوعاً ما.

إلا أن ابنها يشعر بحقه في الجلوس إلى الأبد. تقوم على خدمتهم نادلة شابة، تنحني أمامهم، تظهر ذراعها بينما هي تبدل الفناجين، لها يد جميلة، تنبعث من جسمها رائحة زكية. غرق لرنر في هذا الوحي، غاب طوال غمضة عين. حتى أنه لم يرفع بصره ليشاهد الفتاة. لن يكون أحد قد لاحظ هذه الثانية المسحورة، فهي عبّرت عن نفسها بالجمود فقط، بالغيبة. لا أحد؟

«العم لرنر يبصبص»، قال الولد بصوت عال، يحتمل أن الفتاة سمعته وهي تسرع في الذهاب. وفي هذه الحالات تعاتب السيدة هانهاوس برفق وحنو. فجأة صار الاثنان فريقاً متلاحماً.

راحت أيام الطفولة والبراءة. فبين يدي لرنر أعمال كثيرة. عليه أن يعيد نسخ جداول الحسابات الجديدة التي سيرسلها إلى السيد اوتو فال في هامبورغ، أغنى المساهمين في أعماله وأكثرهم حذرا وعنادا.

أمنت السيدة هانهاوس رجلاً اسمه د. شرايينر ليعمل على إعادة صياغة تقرير مولمان على أحسن وجه، ويدعمه بالعبارات الاقتصادية السليمة والمناسبة. وطبعاً لم يفهم الرجل ما هو المطلوب منه. ومع أن تقريره لم يضرهم كثيراً، إلا أنه لم يعد عليهم بأي فائدة. فقد خمن في تقريره أن احتياطي الفحم على جزيرة الدببة أقل بكثير من التوقعات (حوالي عشرين ألف طن). من أين له أن يعرف هذا؟ فهو لم يقف على أرض الجزيرة مقشعراً من البرد. وصف الرجل تقريره بـ«المتحفظ»، وهنا نقطة الغدر والخيانة. ألا يدعو هذا إلى إثارة الشكوك حول أي تقدير أعلى لحجم الاحتياطي؟ فالمهندس السويدي أندرسون، الذي اعتمد بدوره على معطيات المهندس مولمان وحدها، خمّن حجم الاحتياطي بسبعين مليون طن. وبما أنه يوجد سبعون مليون طن، فمن المحتمل وجود مائة مليون أيضاً، ما ينطبق على النقود أيضاً. كما أن هناك أسئلة أخرى تقض مضجع لرنر، ولا يجد لها جواباً. وكل ما قد يؤثر أدنى تأثير على حماسته، يشكل خطراً عليه.

منذ أن سلمه المحامي درين، ممثل شركة السيد فال، أول الأقساط المتفق عليها، انتقل لرنر بدوره إلى السكن في فندق «مونوبول»، رغم أنه لا يعجبه وتوجسه من القرب الشديد من السيدة هانهاوس لا يهدأ. لكنه شعر في الآن ذاته بنعمة الراحة والرفاهية. ثم إن حي المحطة جديد، ليس فيه ما يذكر بالمباني المتضعضعة في مركز المدينة، بالكوى القبيحة، والأعشاش الصغيرة التي تسمم الأفكار الخلاقة وتخنقها. في حي المحطة منازل رحبة بساحات واسعة، مازال بعضها قيد البناء،

والإطلالة على القبة الزجاجية الهائلة للمحطة تبشر بالسفر، بالانطلاقة، وبالحركة والحيوية.

كان الفندق قد خطط ليكون وجيهاً، إلا أنه بعد إفلاس الشركة مرتين، وضعت عليه أيد كثيرة، وأحياناً لا تتقدم أعمال البناء إلا بالكاد. في صالة الاستقبال الفارهة يجلس لرنر إلى طاولة صغيرة تحت نخلة، وأمامه استمارات كثيرة من ورق رسمي بلون العاج. النسخ ليس وظيفة تشغل ذهنه.. القاعة منيرة، والحركة في الخارج مزدحمة، والغدو والرواح في الصالة كثيران. على مسافة قريبة ينظف أحد العمال النوافذ. جاء النادل مرات كثيرة ليسأل عن الطلبات. ولرنر يشعر بأنه في الشارع.. بين الغبار والريح. يدس الريشة في الدواة الصغيرة، فتلمع سوداء كأنها مطلية. انتشرت قطرة حبر على الورقة، بل دمعة سوداء محدبة مثل الخرز. من مكتب الاستقبال تأتي أصوات كثيرة، بينها صوت فتي صاف، ينطق بالفرنسية.

نظر لرنر هناك، فكل طارئ قد يصرف انتباهه عن عمله. أمام الطاولة العالية رجل وامرأة. الرجل نحيف، طويل القامة، أشقر الشعر، في حلة مقلمة، تجعله يبدو أنحف، ويشبه إلى حد ما سلكا ملفوفا. وبجانبه امرأة مختمرة في فستان كثير القماش والزينة، عليه مربعات زرقاء فاتحة. خصرها مشدود بالقماش. تصور لرنر أنه قادر على أن يزنر الخصر الرقيق بكفيه العريضتين نسبياً. هذا الخصر ظاهرة متفردة، يجسم المرأة الشابة. وكل ما عداه محجوب، مستور خلف سر الكشكش. الأيدي الناعمة الصغيرة ملبسة بقفازات حمراء عليها أزرار كثيرة. قالت شيئاً.

إيقاع الفرنسية من فمها يختلف عن إيقاع الآخرين. شاهدت شيئاً متع نظرها. ضحكت. ارتفع رأسها بالخمار الخفيف المربوط تحت الذقن. اهتزت أزهار الخشخاش واللؤلؤية على قبعة القش. توجه الرجل والمرأة إلى المصعد. لاحظ لرنر أن للمرأة مشية عريضة فريدة. حذاؤها مختف كلياً تحت حافة التنورة، ولكن خطوها مغناج وراقص. تذكر أن الكسندر وشوش له مرة أن بعض الأزواج ينزلون في الفندق لساعات معدودة فقط.

أخذ العمل الكتابي مجراه. ورغم أن نسخ كل هذه المسودات عمل لا يليق برئيس هيئة استثمارات أو مدير شركة أو أكبر المساهمين أو مهما كانت صفته فيها، إلا أنه جنى من عمله ثمرة. فهو يحب خط يده. يفرح كثيراً حين يرى فجأة ورقة مكتوبة بخطه. خطه واضح وبسيط، لكنه ليس كخط تلاميذ المدارس، بل فيه استهتار متمرس، ومتناغم. حين يكتب يكون كمن يجيد الرقص ويتمتع به. وبينما هو ينسخ الأوراق غفا مرة كما يحدث أثناء عمل ممل لا يعكر صفوه أحد. لمس النادل كتفه برفق. فلم يكونوا يسرون برؤية أحدهم يضع رأسه على طاولة في صالون الاستقبال.. استيقظ لرنر.

فتح باب المصعد بقوة.. خرج منه الشاب الفرنسي النحيل، والمرأة المطواعة في الثوب الأزرق الفاتح. الجو حار. وقفت المرأة، فكت عقدة الخمار الخفيف، الكتيم نوعاً ما، ورفعته فوق قبعتها. وقعت عينا لرنر المستيقظ على نظرتها تماماً. كانت تلعق شفتيها برأس لسانها الوردي، لسان أرق من الورد، وكان وجهها أسود.

-18-

في مسرح شومان

لرنر لا يحب المسرح البتة.. يريد أن يكون بذاته مخرجاً لخياله الخصب حين يدخن بهدوء على صوفا في مقهى، أمامه ورقة، وبيده القلم المذهب. حين يستغرق في عالمه، ويترجم أفكاره في زخرفات، وكبب خيطان ونظم طبقات معقدة، يستمتع من يبدو عليه الهدوء والسكينة بعالم الصور الملونة في داخله.

«يمكن»، يقول هامساً، لكنه يعني: «يجب». يرى بعين خياله، جزيرة الدببة تنتعش في وقت قصير، عندما تدخل تيار مال الدول الواقعة جنوبها، ويعيش لحظات اللون والاجتمار، التي لا تستطيع قصة حب تافهة، يعرضها ممثلون مبالغون قليلاً في المشاعر والتبرج بأصواتهم الخفيفة المرتعشة، أن تقدمها لها. الجزيرة راقدة في يوم مشمس تحت لمعان سماوي لجبل جليد دخل مرفأ العمدة وخلجانها الفياضة بالضوء. لا يستطيع أي منجم ألماس إظهار مثل هذه المعركة بين ألوف السكاكين الضوئية. الألماس الخام بالنهاية حجارة لا تلمع، يستخرجها عبيد سود مساكين في أفريقيا من التراب. وكذلك وجوه العمال النرويجيين، الذين سيأتون للعمل على الجزيرة، ستسودّ، لكن من غبار الفحم النبيل، ومن خلاله تلمع العيون الزرقاء الحالمة للعمالقة العدوانيين حين يسكرون، لكنهم مسالمون وطيبو السريرة عادة. ينتشر الغبار الصاعد من العربات القلابة على يمين ويسار السكك المؤدية إلى المرفأ خلال الثلج. تتشكل

طبيعة كجلد حمار الوحش.. عالم كرقعة شطرنج.. طاولة فولاذية بثلاثة أبعاد. كيف يعرض أحدهم الفحم على الثلج على طاولة فولاذية؟ هؤلاء هم المصورون والرسامون القادمون بكثرة إلى الجزيرة. بينما لرنر ذاته مشغول بالمنزل الخشبي، الذي سيشيده للصيادين والسياح. مبنى بسيط في البداية، ولكنه سرعان ما يتحول إلى مبنى على غرار الداتشا الروسية أو البيوت السويسرية التي يبنيها أهل فرانكفورت في حي كونيغسشتاين، وتشتهر بغناها بالنقوش، وبشرفاتها الرحبة، وتتقدمها الأعمدة وأكوام خشب التدفئة، التي تتناوب مع أكوام الجليد اللماعة. الداخل مزين بدب القطب، وقطا الثلج، وثعالب القطب، والذئاب الفضية، مرتبة في لوحات رائعة من الفرو والريش. الأرضية مغطاة بالفراء السميك. بيانو عليه شمعدانات نحاسية.. الكراسي في غرفة التدخين من قرون الأيائل.. على قرون الوعول مصابيح زيتية، وعلى زجاج النوافذ تتشكل زهيرات ثلجية. يأخذ قطعة نقد فضية، يدفئها في يديه، ثم يضعها على الزجاج، فتتشكل دائرة يذوب عنها الثلج، تفتح مجالاً لرؤية عالم البشر الصغير، والنشط بين كتل الصخور والجليد الميتة. من البعيد، من الغرفة الأمامية، يصدر رنين جرس. يأتي النادل ويعلمه بصوت مهذب عن اتصال هاتفي.

اتصال هاتفي! لم لا. طبعاً سيكون على الجزيرة هاتف عندما تبلغ الأمور هذا المبلغ. فهي تجري بسرعة عالية، وسيأتي من صيد قطا الثلج، ليأخذ حماماً ساخناً في الحوض الذي يدفئه فحم كثير من الإنتاج الذاتي ويتحدث بعد ذلك هاتفياً مع كولونيا أو برلين وهو في المناشف

الناعمة الثخينة. العصر الجديد سيصالح الحضارة مع الوحشية الفاحشة والمعادية للإنسانية. على الخارطة الجديدة للعالم، ستكون البلاد ذات الكميات الفاحشة من الفحم والنفط والنيكل والنحاس والحيوانات الوحشية التي تكلل المناطق المتحضرة بحكم الطبيعة، سهلة الزيارة، سهلة الاستغلال، مفتوحة للاقتصاد الحضاري، وساحة لراحة أبناء الوطن الأم وسكينتهم. المستفيد من هذا بالدرجة الأولى هو المناطق الوحشية ذاتها، فالاقتصاد الحقيقي يحمل ثماراً يانعة إذا ازدهرت مقايضة حقيقية. وإلا كيف ستحصل جزيرة الدببة بخلاف هذا على هاتف وبيانو؟

تيودور لرنر يستمتع برؤية أحلام يقظته. يتصور أنه يروي للعائلة المندهشة في القطار، السيد كورس مدير المصرف، وعقيلته المبهرجة كالطاووس والآنسة إيلزه بحبها السري للسكائر. الصور تتخاطر كلما دعاها. بعضها يتراجع إلى الكواليس، إذا لم تكن جميلة كما ينبغي، ثم تعود إلى المنصة حين يكتمل جمالها وغناها. وعَرَضاً يجري حوار داخلي يسير على هداه. فهل يسير متهادياً أيضاً في خطبه الدعائية! هنا يتلعثم، واللعثمة غير مقبولة سوى في إنجلترا، حيث لم يكن قط أو ربما كان مرة أو ربما سيكون قريباً. ثم تستعيد الشعلة الداخلية، التي يلحف عليها بالكثير، حيويتها وآليتها من جديد. وتقرر ذاتياً ماهية الصورة التي يجب ظهورها على شاشة العقل، وليس بيده ما يوقفها.

ظهرت قفازات صغيرة حمراء، عليها أزرار كثيرة، ورفعت خماراً كتيماً بلون حليبي. في الوجه تحته كل الأعضاء كبيرة: العينان تدوران

في محجريهما مثل كرتين، الأنف الأفطس واسع المناخير، الفم الكبير غليظ الشفتين، والأسنان بيضاء. وحده رأس اللسان رقيق مثل لسان القطة. عندما تلتقي نظرتها بعينيه، تتوقف العيون الباحثة فجأة.

«ما ذنب الأسوَد إذا لم يكن أبيض مثلها؟» هكذا يقول شاعر من فرانكفورت. ورغم هذا لا يحدث إلا نادراً.. بالأحرى لا يحدث أبداً، أن يمر زنجي «أسود كالغراب أمام الباب». وهذه لم تكن زنجياً، إنما زنجية. بداية طفَت في الصالة كخصر، ثم كشفت عن وجهها، باللون الوردي المغري في الفم. ما الذي تفعله هنا؟ ثيابها أنيقة، لكنها كثيرة المؤثرات. المربعات الزرقاء الفاتحة، تبرز الوجه الأسود بصورة أفضل. واضح أنها تعرف ما يليق بها. أم أن ذلك الفرنسي الجلف اختار فستانها؟ حسب المعلومات الواردة يتدخل الفرنسيون في شؤون زينة نسائهم. ما علاقته بالمرأة السوداء؟ الآن يسير الفرنسي وحده في الصالة. إنه مشعث الشعر قليلاً. خرج البواب من قفصه الخشبي، وأشار إلى يسار الواجهة المنحنية بجوار الباب الدوار.

seulement trois pas، فهم لرنر الجملة. اختفى الشعر المشعث، خلف الفرو البني. عندما عبر الفرنسي الباب الدوار، كان كمن يخوض في زوبعة؟ بدا أنه مستمتع جداً بأنه لا يأخذ حيزاً كبيراً، بخلاف لرنر الذي يفضل المرور بالأبواب المشرعة.

همس صوت في أذن لرنر. كان أحدهم وقف خلف كرسيه.

«هذا صديق الآنسة لولوبو التي ستقدم عروضاً راقصة على مسرح شومان طوال الأسبوع».. اقشعر لرنر. النفَس الذي مر بأذنه، كان

كملمس حشرة كبيرة. خلفه الكسندر، لاصقاً الشعر المستعار بالمعجون على رأسه، وعلى جسده حلة ضيقة، ومن أسفل البنطلون يبرز حذاء لماع. الوجه الطفولي الناعم يخلو بذلك من أي تعبير.

«أجمل مساء، يا عم لرنر. عندك خمس ماركات؟»

لرنر لا يحب المسرح؟!! لحق لرنر بالاتجاه الذي أشار إليه البواب للفرنسي العاطل، ووجد نفسه بعد عدة بنايات على الناحية الأخرى لساحة المحطة أمام صندوق مسرح شومان. مبنى عليه نقوش كثيرة، وأمامه عمودان يمثلان فتاتين، ويعلوه برجان من حجر أسود، شرفته في الطابق الأرضي وله بوابات واطئة كثيرة. تجمع أمامه طوفان من البشر، بينهم شبان في مقتبل العمر، يبدو أنهم يكثرون المجيء إليه، وكذلك أبناء المدن الصغيرة في معاطفهم الفرانكية العتيقة، تحمل زوجاتهم على رؤوسهن طيوراً محشية، مع أن هذا صار خارج الموضة منذ سنين. مسرح شومان ليس على غرار المسارح التي لا يحبها لرنر. فهنا لا تعرض عذراء أورليان، ولا عمة تشارلي.. إنه مسرح منوعات. من كراسي الصالة المنحدرة، وكذلك اللوجات، يرى الجمهور حلبة سيرك دائرية عالية. الأوركسترا كبيرة. علقت فوق رؤوس الناس، مصابيح غاز هائلة مثل مجموعة نجوم. وهناك حانات كثيرة، في خلفيتها جدران صقيلة كالمرايا. طلب لرنر بيرة كبيرة.. صبت البيرة بسرعة، ووصلت إلى يده مزبدة في كأس مبلل. يمكن المكوث هنا أثناء الاستراحات. كثير من الرجال يفعلون هذا، وعيونهم على حلبة العرض. حين يلقي نظرة على الصالة نصف الفارغة، يرى رؤوس الجمهور، وكأنها سرب طيور

من الغابات الاستوائية في البرازيل، فالسيدات من مدن الأقاليم غيسِن وفريدبِرغ واوفِنباخ يلتفتن حولهن، وتبعثن الحياة في الطيور المحنطة. رغم أن برنامج السيرك أكثر متعة من الفن المأساوي، إلا أن لرنر كان يتبع نصيحة والده، الذي كرر عليه مراراً: «السيرك مثل الفشة المفرومة، تؤكل مرة واحدة في العام».

وقد مرت أعوام كثيرة من دون سيرك ومن دون الفشة المفرومة. واليوم يستمتع لرنر بوجوده في الجمهرة الضاجة والسعيدة تحت درب التبانة الحارق، وفي يده كأس البيرة الباردة، من دون حديث مع أحد. فبعد مرحلة طويلة من خطط تتجدد كل يوم، وشركاء يتغيرون كل يوم، وأصدقاء تزداد ريبتهم كل يوم، يكون السكوت، وعدم شرح آخر أخبار الأعمال أو تلفيقها، نعمة لا تقدر.

هل هناك سبب آخر لوجوده هنا؟ نعم.. كانت له أسبابه، لكنه خطر له فجأة أنه من المستبعد أن تأتي السيدة السوداء (هل هي الآنسة لولوبو؟) اليوم، وتقدم عرضاً في هذه الصالة المنارة والمحشورة. هذا شيء بعيد من الواقع، ومع تقدم البرنامج تحول إلى مستحيل. نمرة الأقزام الوردية العشرة، نمرة الهولنديات اللاعبات بالجبنة السويسرية، نمرة البرج البشري الذي شكله ستة عشر رياضياً من بلغاريا في ثياب ضيقة لمصارعي الثيران، نمرة طيور الببغاء المدربة التي غنت أغنية إنجليزية، نمرة الفيل العازف على البيانو وغيرها الكثير مما نسيه. تتالت النمر بسرعة عالية، وكانت تسلية حقيقية، لكنها خلقت في الآن ذاته جواً جمالياً، لا يتصور لرنر أن تظهر فيه الآنسة لولوبو (ركز تفكيره الآن على اسمها).

لم لا؟ لا يعرف جواباً على سؤاله. غالباً ما يخيب ظن المتفرجين، عندما يرون إلهة المسرح الرشيقة، رائعة الجمال، والتي تصفق لها الجماهير، خارجة من ملابس المسرح في ثياب الأهالي، أما هنا فالعكس صحيح. ولّدت الآنسة لولوبو بإطلالتها الغريبة انطباعاً قوياً في قلب لرنر، لا يتصور أن يزيده ظهورها على المسرح قوة.

شرب ثلاث بيرات كبيرة.. في رأسه خدر لذيذ.. سينام هانئاً، فالكحول يهدئ من ينادم نفسه. كان لرنر مشتت الفكر، فلم يلاحظ كيف سورت الحلبة الدائرية بالقضبان بسرعة البرق. بهذا تحولت الحلبة إلى قفص فيه تلألؤ كأنه صادر من آلاف الشظايا.

وفي هذا الأبيض المتلألئ، دخل دب بخطوات ثقيلة ورأس صغير وحوافر عملاقة، ولحقه آخر، ثم ثالث في فرو أصفر، يبدو قذرا على القاعدة البيضاء كالثلج، ثم رابع فخامس فسادس. يرتدي المروض ثياباً جلدية عليها الكثير من الفرو. تحرك برشاقة عالية على الأرضية الزلقة بين الدببة العملاقة. صعدت الدببة على منصات صغيرة، ثم استقامت. تشكلت دائرة من عمالقة عليها فراء. بدأت الفرقة بعزف موسيقى سريعة، ، ورغم أن لرنر لم يعرف ماهيتها، إلا أن صخب الفرقة المنذر بالأخطار، أيقظه من سباته لينظر إلى حلقة الحيوانات الكاسرة. الآن بدأ الثلج. انهمرت رقاع الثلج، وكأن ريح القطب تدفعها من السماء إلى حلبة المسرح. أما رؤوس الجمهور فقد انهمر عليها في شكل نقاط ضوئية صغيرة. ثم ارتفعت أرض الحلبة، وتشققت إلى كتل جليدية. تدافعت الكتل الزجاجية الزرقاء، وكأن قبضة قوية تدفعها من

العالم السفلي أعلى فأعلى. ارتفع برج غير متناسق، بين الدببة الواقفة على كراسيها طيعة، ولو أنها قلقة، ثم توقفت هذه الحركة بغتة. أما الاوركسترا، فكأن روح الموسيقى تخرج تحت الضغط العالي، فقد انفجرت وسالت نحو كل الجهات، ثم بدأت الكتل العليا، اللماعة، والمتزاحمة، بالحركة من جديد. تباعدت، وتفرقت مثل وردة بحر عملاقة متشكلة من شظايا مرآة. وفي وسط هذه الزهرة الجليدية امرأة في ثوب قصير من القطع الفضية والأطلس الأبيض، كأنه من كريات الثلج ورقاعه، يُبرز ساقيها وذراعيها وصدرها. وكل الجلد البارز أسود. تحت مظلة شمسية من الزجاج والصدف كانت الآنسة لولوبو سوداء كالغراب، ومحاطة بالدببة صانعة الرجال وتومئ في جميع الاتجاهات بانحناءة مهذبة، بينما تلطمها أمواج التصفيق الحار.

-19-

الفرنسي في وضع صعب

هل يتجاسر لرنر بعد هذا الأثر الخارق على أن يرى الآنسة لولوبو مرة أخرى في هيئتها الأرضية العادية؟ اشترى من بائعة الورد في المدخل إحدى وعشرين وردة بيضاء. دفع الثمن من دون أخذ الورد، وهو الذي يتحسر على كل قرش صرفه في الأسابيع الفائتة. كاد ينسى الورود لأن البائعة لم تجد العملة الصغيرة لترد له الباقي. لم يكن هناك أحد على المَخرج الجانبي، الذي يقف فيه المعجبون في انتظار نجومهم. ألم يخفق أي قلب ناري من بين الجمهور الذي صفق تصفيقاً حاراً؟

أم أنها سبقته بالذهاب؟ لا، قال الحاجب الجالس في كوة بالغة الصغر، أشبه بالجحر، وتبدو أصغر، بسبب رزم الأوراق، ودواة الحبر والملصقات والدعايات، بحيث يجب الركوع إذا أراد أحدهم مخاطبة الرجل.. لا ضير. الحاجب رجل مهم ومن الجدير الحديث إليه بانحناءة، فلا بد من وجود من ينشر النظام في فوضى السيرك الصاخب، كما فكر لرنر. الحجرة الضيقة تضفي على الحاجب حلة أخرى. نبع من الشباك تيار من رائحة الحُجّاب الدافئة. قال للرنر بإيمان لا يتزعزع إنه متيقن من عدم خروج المرأة السوداء.. ليس هناك باب آخر للمشاركين في العروض، والباب الرئيسي مغلق الآن. في المخرج الخلفي وضع مقعد صغير، يشبه لضآلته مقاعد المتقدمين إلى كرسي الاعتراف، كما بدا للرنر، ولهذا لم يجلس عليه، راغباً في انتظار الآنسة لولوبو، وراسخاً

على قدميه.

يمضي وقت طويل حتى تبدل السيدة ملابسها. إذ يتوجب فك مشد جسم وربط غيره. لكن هل تحتاج هذه المرأة إلى مشد؟ أليست هذه الرشيقة كالنحلة نقية؟ على كل حال لا حاجة بها إلى التبرج. لا يمكن التغلب على الطبيعة في لحاء شجرة الأبنوس الداكن. هل يرافقها الفرنسي؟ من المؤكد أنه لا يريد اصطحابها، وإلا لوقف في انتظارها هنا. أم أنه ينتظر في الكواليس، وعلى رأسه القبعة التافهة وفي زاوية فمه سيكارة، رغم منع التدخين المشدد هناك؟ أم أن هذا امتياز لدافعي البخشيس الماجنين، وليس لمرافقي الفنانات؟

مرت أكثر من نصف ساعة. ورغم رباطة جأشه جلس لرنر على مقعد الآثمين وبجانبه باقة الورد كمظلة. ما الذي سيقوله لها حين تخرج؟ لم يتوقف الرجال والنساء عن المرور به، ولكنه لم يعرف منهم أحداً سوى الساحر، الذي يطلق مفرق شعره المزيت شرارات متلألئة حتى في الضوء الكابي. الأرضية حارة حرارة ملجأ فقراء قرب الموقد، كأن على جمهرة الفنانين الشاردة أن تدفئ أقدامها عليه.

لكن من المعيب أن يغفو الشاب لرنر في انتظار إلهة الجمال الأسود كمتسول في ملجأ. مجرد التفكير في هذا مرعب، ولكن إعادة السؤال على الحاجب في قفصه الخشبي تجعل الاحتمال ممكناً.

«الآنسة لولوبو؟ لقد ذهبت منذ زمن»، قال الرجل بهدوء مطلق لا يبعث أملا ولا ورعاً. إذاً فقد انتهى فصل الاعتراف نهاية مخزية. يمكنه على كل حال إرسال الورود إلى غرفتها في الفندق، مرفقة ببطاقة صغيرة

عليها اسمه. وهذا ما فعله، لكنه فعله مفتقداً الكثير من ألقه. التشوق الذي كان سيأخذ عليه أنفاسه عند رؤية الراقصة في ملابس أخرى راح أدراج الرياح. لم يعد متشوقا، وبهذا انتهى الانتظار نهاية أليمة.

في الصباح التالي كانت الدنيا كلها أقرب إلى الوهم. لم يتلق جواباً على الورود. في قاعة الفطور لا يجلس فستان عليه مربعات بالأزرق الفاتح، وتظلله قبعة قش، كما لم يكن الفرنسي الجلف، ذو الشعر الأحمر المتموج على رأسه، موجوداً. وعوضاً عن هذا رأى أمامه جرائد، «بريد المساء»، «فرانكفورت المصورة»، «جريدة فرانكفورت» و«ساعي الصباح» وعلى صفحاتها جميعاً تظهر الآنسة لولوبو التي يبدو أنها لم تثر إعجاب النقاد.

فقد جاء في الصفحات: «من العار وضع فينوس سوداء على كعكة عرس لمجرد لفت الأنظار، والادعاء بأن هذا رقص ...». «قامت العبدة بانحناءة قصيرة بظرف طالبة غير موهوبة في مدرسة الباليه، معتمدة على أثر مظهرها غير المعهود. عن حق، كما برهنت صيحات الإعجاب التي أطلقها الجمهور الريفي». هذه تعليقات متلبسة بلبوس الشر. «بعد أن رأينا الآنسة ليزا دي فيرت تؤدي رقصتها التي لا تنسى بين الدببة في باليه البجع الميت، كان عرض الآنسة لولوبو من غرب أفريقيا الفرنسية خيبة أمل مكشوفة. يتساءل المرء على أي أساس استنتجت الإدارة إيمانها بأن عدة إيماءات قصيرة والتلويح بالمظلة الشمسية، قد ينسيان الجمهور إنجازاً فنياً عظيماً. لقد فشلت التوقعات القائمة على الإثارة التي توحي بها بضاعة المستعمرات في الوقت الراهن، فشلاً ذريعاً. إننا نأمل من

أفريقيا أكثر من مجرد الذهب الأسود».

ذهل لرنر. هذا التهجم والاستهجان غير مفهومين. أيعقل أن أحداً يرى رأياً بكل هذا الاختلاف عن رأيه في لولوبو المفاجئة والطاغية؟ صحيح أنها لم ترقص. فقد ظلت واقفة كالنجم الساطع، وأدت تلك الإيماءات والانحناءات المثيرة، الصادرة من غرور معين، وينبع ظرفها أصلاً من أنها لا تدعو إلى الكثير من مظاهر الشكر من ناحية الجمهور. روعتها أنها لم تتنطنط على منصتها الصغيرة. تيودور لرنر لا يحب الباليه. فهذه الرقصات تطول، وتحاول التعبير عن الحدث عن طريق تراكض لا يهدأ على المسرح، فيه حركات وسكنات وتلميحات كثيرة، فينسى المشاهد الراقصات الجميلات، وهؤلاء بدورهن لسن بكل الجمال الموصوف، بسيقانهن القوية وصدورهن المسطحة. والآنسة لولوبو ليس لها جسم راقصات الباليه على الأقل ولهذا فهي غير مضطرة إلى الترنح والتلوي. إنها جميلة من دون رقص. أم أن النقاد يريدونها واقفة على رؤوس أصابعها لتتنزلق بين الدببة؟ من الحماقة تأدية الرقصات في هذا الوضع الخطير. دببة القطب بحد ذاتها عرض كاف، والآنسة لولوبو أضفت عليها حلاوة أكثر، كأنها ترقص لتيودور لرنر وحده. لا شيء أقوى تعبيراً عن الرفاهية والجمال والمتعة من الآنسة لولوبو التي ظهرت تاجاً على رؤوس الدببة.

هنا جاء الولد الوقح، الفرنسي الهزيل إلى صالة الفطور.. جلس بعيداً عن لرنر، إلا أنه ألقى عليه نظرات متفحصة، وجريئة. تبدو على الغلام مظاهر القلق، فشعره مشعث أكثر من المعتاد، ووجهه أكثر بياضاً

من قميصه، كما يمكن التعبير في تلميح شرير. طلب القهوة وشربها بأن انحنى على الفنجان الذي لم يرفعه كثيراً عن الطاولة، بينما لا يكف عن مراقبة الصالة بنظرات ثاقبة، فكان كمن منح مهلة قصيرة ويتحين فرصة الهروب. إلا أنه أطال المكوث وشيئاً فشيئاً جمع الجرائد، حتى تلك التي على طاولة لرنر، دون أن يمنّ عليه بنظرة واحدة، ما يشي ببعض الاستهانة. بين الحين والآخر يذهب على ساقيه الطويلتين والنحيفتين إلى مكتب الاستقبال، ويتشاور مع البواب. لا يتوقف عن تقليب الصفحات والتنقيب فيها، كما أنه يكثر من الذهاب إلى كشك الهاتف. وبالنسبة للمراقب العاطل، الذي كانه تيودور لرنر خلال تلك الأيام، فالانتظار بذاته عمل، حسب تعريف السيدة هانهاوس، والفرنسي الشاحب، كثير الحركة، يمثل القطب المعاكس للانتظار الساكن الرزين. وشى بكل وضوح أنه ينتظر يائساً وصول رسالة أو خبر أو إنسان. بل يمكن القول إنه يمثل ذلك الانتظار الملتهب أمام جمهور يشاهده، وخاصة عمال الفندق، لكنه يقصد لرنر أيضاً. طوال فترة الصباح، حدج الرجل فاقد الأعصاب، لرنر بنظرات كثيرة ملؤها الاستهانة والاحتقار. عادة ما يبدأ الناس، بعد إقامة طويلة في المكان نفسه، بتبادل الابتسامات المهذبة، ولكنها لم يظهر لها أي أثر على ابن الشعب المشهور جداً بأدبه الجم.

«يقول إنه ينتظر تحويلة بريدية من أبيه»، سمع لرنر صوتاً دبقاً ضعيفاً بجانبه. فجأة حضر الكسندر هانهاوس، تفوح منه رائحة كولونيا حارقة، بظلال بنية تحت عينيه، اليدان البضتان، التحفة الموروثة عن الأم، تبدوان دوماً لعين لرنر كأنهما لعبتا في سطل الغراء ثم دخلتا

عاصفة من الغبار.. انطباع ظالم ربما، لأن الكسندر هانهاوس ولى ظهره نهائياً لانشداد الأولاد إلى الوسخ ويثابر فعلاً على الظهور بمظهر الشبان الأنيقين.

«من أين طلعت الآن؟» سأله لرنر مؤنباً بعض الشيء. فهو يمثل الآن واجبات الأمومة نحو الفتى. لم يرد عليه الكسندر، بل لوح للنادل وطلب وجبة فطور دسمة.

«كيف كان الوضع البارحة في مسرح شومان؟» طرح السؤال بأسلوب خبيث وابتسامة تشي بالكثير من التطاول.

«لماذا؟ وما الذي يعنيك؟» سأل لرنر مرتبكاً أكثر مما هو مغتاظ.

فمن ناحية لا شأن لالكسندر بما يفعله مساء، ومن ناحية أخرى ليس مضطراً إلى الكشف عن أسراره أمام ولد لا يعنيه في أي شيء. فلماذا اللعثمة إذاً؟

«شاهدتك. شربت ثلاث بيرات كبيرة ثم اشتريت باقة ورد».

ولماذا لا يفعل؟ ما معنى هذا التبجح الغبي وهذه الإشارة الوقحة إلى التجسس غير المقبول من الأساس؟ أخفض الكسندر صوته أكثر وهو ينظر تلك النظرة البريئة، التي لا يعبر وجهه عن سواها، إلى الفرنسي. «إنه مفلس. أعرفه من الفنادق الأخرى. لقد طردوه من فندق فورتسبورغ هوف. أجرة الليلة الفائتة دفعها مسرح شومان، لكن العبدة الصغيرة لم تحصل على عروض أخرى. الله أعلم ماذا سيحدث له اليوم. إنها مستلقية الآن في السرير، لأن عليها ترقيع فستانها. فقد تمزق وهي تصعد إلى الدروشكا».

«وما أدراك أنت بكل هذا؟». سأل لرنر في محاولة فاشلة لإظهار المرح والاستمتاع بسماع الأنباء. وجد الكسندر في السؤال إطراء، نفخه أكثر مع تناول وجبة الفطور المغذية.

«هل عندك خمسة ماركات، يا عم لرنر؟»

«خمسة ماركات مبلغ طائل». سمع لرنر نفسه ينطق بهذه الحقيقة التي لا جدال فيها، وخاصة بينه وبين الكسندر هانهاوس، وشعر في الآن ذاته بالحيرة المرعبة منها. بحث في جيب سترته، ولكنه لم يجد أكثر من عدة قروش.

«يريد أن يؤجرها، بمائتي مارك، ولكنه سيقبل بمائة مارك أيضاً. فهو غريق إلى هنا». أثناء الوسوسة بهذه الكلمات الهامسة، التي لا تخطئها أذن، أشار الكسندر إلى تفاحة آدم، الضخمة والبارزة من اللحم الأمومي الطري لعنقه بشكل مضحك.

«ما هذا الكلام الباطل». بدأ لرنر أيضاً بالهمس، لكن مستثاراً، فإن الثرثرة الخفيضة في صالون الفطور الفارغ شكلت حقل قوى متجاذبة، ولا بد من أن الفرنسي المتوتر، أدرك أن الحديث يجري عنه، فهو ينظر كديك غاضب نحوهما.

«أنا قضيت كل حياتي مع ماما في الفنادق، وأعرف ما الذي يجري فيها». قال الكسندر بخيلاء ولم يكن كاذباً. فقد بدأت حياته منذ أن أخذته أمه منذ خمس سنوات من ملجأ الأيتام ولن ينكر لرنر الخبرات التي جمعها منذ ذلك اليوم. التهم الوجبة الدسمة ما أن وضعت على الطاولة. كانت في جيب بنطلون لرنر قطعة خمسة ماركات، انتقلت

بسرعة البرق إلى جيب الكسندر. لم يكن لرنر يستبقي الشاب الذي يذهب إلى أماكن مجهولة ويظل رغم هذا قريباً في الخفاء.

تنطبق مقولة لرنر لالكسندر عن خمسة ماركات انطباقاً أفضل على المائة مارك، فهذه مبلغ باهظ فعلاً في الوقت الراهن. ولا شيء في الآن ذاته. الآنسة لولوبو مقابل مائة مارك! يبدو هذا حلماً؟ لكن ألم يهدها باقة ورد، علامة رقيقة على الاستحسان؟ وماذا كانت النتيجة؟ لا شيء. لم يتضح له بعد إلام تهفو نفسه. الولد الصعلوك أوقد شمعة صغيرة وذهب. هل خاب ظن لرنر في لولوبو قليلاً؟ ولا بأي شكل من الأشكال. فهذا هو الوجه الصحيح للحياة. سحره بالآنسة لولوبو لن يتشوه إطلاقاً بصفقة يعقدها مع حاميها. ثم يجب في جميع الأحوال منحها هدية ما. وفي هذه اللحظة تماماً رفع الفرنسي عينيه عن الجريدة وألقى، مقطب الجبين، نظرة نحوه، كأن في لرنر شيئاً لا يعجبه البتة.

-20-

تبادل الهدايا بين الأصدقاء

من يرغب في شراء بضاعة ما عليه أن يتأكد أولاً أنه يملك ثمنها، ثم يتقدم بطلب الشراء. أما السيدة هانهاوس فكانت تفضل الاتجاه المعاكس، فهي تضمن أولاً عقد البضاعة، ثم تفكر بالكيف والكم أو إن كانت ستدفع أصلاً. وفي الوقت الراهن تسود الصراحة بين السيدة هانهاوس ولرنر فيما يتعلق بتصرفهما في المصادر المالية. فهي حذرة في حياتها التي تشي بالجسارة. «كامرأة أولاً، وأم ثانياً»، هذه الجملة تصعيد لعجزها في وجه الزمن العاتي، والذي يقدره فيها رجال يعتبرون العجز عموماً شذوذاً. غالباً ما يحترمها رجال الأعمال ويجلونها حتى بعد أن يمدوها ولا تدفع لهم. ومنها تعلم بعضهم حقيقة الدَّين، إنه دِين، ولهذا الدِين كسبت السيدة هانهاوس أنصاراً جدداً، مهما كان عدد الذين يمرقون عليه بعد وقت قصير. ونظراً للنوايا العظيمة التي لن تتحقق، كما اتضح لهما معاً، إلا باستجماع كافة القوى وحشدها، أقسما أغلظ الأيمان بألا ينفقا أموالاً على نفسيهما، تخرج عن إطار الحاجات الضرورية من دون مشورة الآخر (مادة معقولة، لكنها عائمة في اتفاقهما).

هل السيدة هانهاوس مشغولة فعلاً بمستقبل اتحاد مؤسسات جزيرة الدببة- كما تزعم- أم أنها تعمل في حقول أخرى إضافية، تخصص لها طبعاً ميزانيات مختلفة؟ هل يحفظ لرنر مبلغ الأربعمائة مارك ككنز

سري، اتفقا على أن يكفيهما حتى مارس آذار، بينما هي تستحوذ على مبالغ طائلة؟ الأمر الغامض في عقدهما هو الكسندر، فهل يصرفان معاً على الشاب، أم يتوجب عليه تأمين قوته بنفسه؟ وفي هذه النقطة يتغير الاتفاق بين الحين والآخر. كلا، لم يشك لحظة واحدة بصديقته الحكيمة. وهذه الأسئلة تطرح نفسها في الوضع الآني الحرج. ينوي التصرف بمائة مارك، أو أكثر. فهو الآن في عالم الأحلام.

أليس في الإمكان فك الآنسة لولوبو (إذا أعجبها العرض، كما يقول رجال الأعمال) وتخليصها من ارتباطاتها الحالية، التي يبدو أنها غير موفقة فيها أو مسرورة بها، وإلحاقها بارتباطات أخرى؟ فالقادر على إقامة أود الكسندر، ألا يستطيع أيضاً إطعام الآنسة لولوبو؟ هذا تصور جنوني. إن مجرد طرح السؤال ليس إلا دلالة بينة على أن سوائل معينة صبّت في مخ السيد لرنر. وهو نفسه يعي هذا. فما عليه سوى أن يتصور رأي مدير المصرف السيد كورس في «لوبِيك»، أو رأي السادة بورخارد وكنور في هامبورغ أو، وهذا هو الاحتمال المفزع، رأي ابن العم نويكيرش، في هيئة جزيرة الدببة إذا دخل عليهم برفقة الآنسة لولوبو. فهؤلاء السادة يرون في الكسندر ذاته عبئاً ثقيلاً، رغم أنه يلعب دور الخادم المطيع والمراسل. والشبه الشديد بأمه، يوضح كثيراً للأسف المسرحية المعقدة لجمهور السادة المتوجسين. إذاً لا. لا داعي للحريم، التي تتمثل في الآنسة لولوبو، في أسفاره، إلا أنه ربما يقضي معها أسبوعاً طالما أن السيدة هانهاوس على سفر. وهذا القرار لا يتزعزع، إنه نابع من صميم كل خلية من خلاياه، ولا شيء يدلي إليه بدلو الشك. وما

عليه سوى الدخول في مفاوضات مع الفرنسي.

ألا يمكن إرسال الكسندر في هذه المهمة؟ فالأفضل له ألا يدخل في المحادثات بشخصه. اكتشف لرنر نوعاً من الألفة نحو الفرنسي. ما ينوي عليه ليس جميلاً من وجهة نظر الفارس النبيل، ولكن من المؤكد أنه ليس سهلاً على الشاب أيضاً. كم سيخفف من سطوة الفضيحة إذا حفظ للفرنسي ماء وجهه بشكل من الأشكال. الفرنسي يتطلع حوله الآن كحيوان كاسر. عندما يراه يحرك قهوته بامتعاض شديد، يقفز فجأة، يبحث عن السكائر، لا يبدو كمن سيدخل في صفقة محرجة. أما كان من الأفضل أن يشع ببعض الهدوء؟

«لا، السيدة المحترمة سليمة، خرجت من تحت أفضل الأيادي، لم تفعل طوال عمرها هذا الشيء، بل لا يطرأ أبداً على ذهنها أن تفعله، لو لم يكن الوضع الراهن صعباً جداً. السيدة المحترمة ليست إلا لرجل شريف لا يستغل ظروفها. يجب أن يتم هذا بين سادة مهذبين خلف أبواب مغلقة». بهذا الأسلوب كان تيودور لرنر سيتكلم لو كان مكان الفرنسي، لكن يبدو أن الفرنسي لن يتكلم هكذا. كان شابا هزيلا، ولكنه مرعب حين يسير هازاً يديه أو حين يمد يده إلى شعره المشعث. أنشوطته تخفق أمامه بإهمال.. بالأحرى كأنشوطة القواد. فجأة تخيل لرنر أن الفرنسي لا يعرف الألم، ولا يشعر بطعنات السكاكين خلال الشجار إلا بعد أن يخرج منه منتصراً، فعندها يسمح بتضميد جراحه بنظرات محتقرة للآلام وهو يمج السيكارة تلو السيكارة.

ظلت صالة الطعام مهجورة لساعات وساعات. ورغم هذا أعدت

لتقديم المآدب الكبرى. الطاولات مغطاة، ولكن الأغطية لا تبدل يومياً. بقع القهوة تخلد غالباً ذكريات وجبة فطور تناولها أحدهم على عجلة من أمره، وألقى نظرات سريعة على ساعة المحطة المقابلة. كما لا تنظف المرآة العالية كمرايا القصور من آثار الذباب. إلا أن تفريغ منافض السكائر، يحدث بطريقة خبيرة، تشي وحدها بالخدمات التي كان فندق «مونوبول» ينوي تقديمها لنزلائه. الصالة ليست مكاناً سيئاً لقضاء الوقت. وكل من يعلم بوجود أمكنة دافئة حقيرة من دون مرايا وشمعدانات، لن يتذمر من فندق «مونوبول».

فتح الباب خلف ظهر لرنر، ورغم هذا أدرك أن من فتحه ليس النادل المستعد لتلبية كل الطلبات. ليس رجلاً، بل كائن يواكبه الحفيف، حفيف تنورة تثير غيوم الغبار السابحة تحت أشعة الشمس، وعقبان خشبيان بحجم العملة المعدنية ينظمان رقص ذرات الغبار على وقعهما، ويرافقهما إيقاع مظلة على الأرض. سمع لرنر ما لا يستطيع الإنسان العادي أن يسمعه. فقد شعر بالكثافة المتراكمة خلف ظهره. كما على اللوحة المعلقة فوق المرآة، حيث فينوس، أو غلاطية أو امفيتريت في صَدَفة ... كفى، إنها امرأة عارية تسير في غيمة من رؤوس الملائكة، أعجاز الملائكة، أرجلهم، أياديهم، أقواس وسهام. اقترب الملاك ومر به طوفان من القماش عليه مربعات زرقاء فاتحة، يتجمع تحت الخصر وينسدل على الأرداف والأرجل. الرقعة الممزقة تختفي في مثلث بين ثنايا الثوب. تحمل القبعة بإهمال في يدها اليسرى. الخمار يصل إلى الأرض، والشعر المستعار مخدة ثخينة من شعر الخيول، أما الرقبة تحته

فرقيقة كرقبة الأطفال في سواد مرعب جذاب. توجهت نحو الفرنسي بخطوات واسعة مثل بنت صغيرة في ثوب فضفاض. وقفت عنده وتحدثت هامسة. لم يسمع لرنر سوى نحنحات، ولكن ما قالته لم يكن ودياً. رمت قبعتها بالشريط الطويل على كرسي وجلست. إذا أدارت رأسها قليلاً، سترى لرنر.

انبسطت أساريرها.. اتضح أن مزاجها متقلب.. كأن ضوءها ينعكس من خلال زجاج مختلف. جاءها النادل بفنجان شوكولاته.. أخذت الملعقة، ونظرت نظرات جريئة إلى لرنر ولعقت الحليب المخفوق بلسانها الوردي. كانت قد خلعت قفازاتها. لكن كفيها الورديتين أوحيتا للرنر بأنها مازالت ترتدي القفازات لتحمي جلدها الناعم. التفتت نحو الفرنسي الشاب.. جحظت العينان العملاقتان، وأضاء بياض العينين.

ترى ما الذي يقوله الفرنسي؟ كان لرنر يعتبره غير قادر على القيام بفتوحات عظيمة. كم يعلو شأن صغار الرجال بفضل هذه المرأة. وعلى كل حال استمر الحديث بينهما بلا انقطاع والآنسة لولوبو كانت سيدة تجيد الإصغاء.

في الخارج ضوضاء.. أصوات خبب حدوات الخيول، مزامير العربات الآلية، أسواط الحوذيين، وهذا الضجيج المصفى خلال الألواح الزجاجية العالية، يضاعف الهدوء السائد في الصالة. المدينة الكبيرة مثل نهر صاخب، على ضفافه خلجان هادئة. لا يصدر صوت حتى عن نواس الساعة تحت المرآة. في الزاوية بجوار المرآة يجلس الزوج الأسود والأبيض وعلى قطر الصالة الصغيرة نفسها يجلس لرنر بجوار الباب الزجاجي على مدخل

الصالة. حاول أن يلقي نظرات مسترقة، إلا أن عينيه تدحرجتا مثل كرتين على السكة المنحدرة نحو مجلس لولوبو. التقت أنظارهما أكثر من مرة. لم يعد لرنر قادراً على التحكم في عينيه، ولم يعد يحول عينيه عنها. اتضح له في هذه الأثناء أنهما يتحدثان عنه، فالاثنان يومئان نحوه دون أن يخفيا مقصدهما.

كيف يزول التوتر المسيطر على الصالة؟ ربما لن يزول أبداً؟ ربما كان هذا حقلاً مغناطيسياً معقداً، يشد الأجسام إلى بعضها، ولكنه يمنعها في الآن ذاته من التلامس؟ على ظهر لرنر حمل يطبق على صدره. دون حياء نظر إليهما، وأعيدت إليه نظرات لا حياء فيها. ولم يحدث شيء آخر. ماذا ينتظر؟ هل ينتظر انفجاراً يقلب الأوضاع ويلقيها عليه؟ لقد أرسل وروداً، وربما وضع الكسندر الفرنسي في الصورة. أي صورة؟ فقد حذر لرنر من إبداء رغباته أمام الكسندر. لكن هذا كان صانعا للصدف، معشَقاً. من يعرف ما الذي سرده على أسماع الناس؟ فكثيراً ما مارس الكسندر أمامه مواهبه الخطابية مع الحوذية، وبوابي الفنادق في اختلاق حكايات جريئة.

«دعه وشأنه»، قالت السيدة هانهاوس، عندما أبدى تيودور لرنر تذمره من الكسندر، حين ادعى هذا لسكرتير مكتب المحامي درين، الذي يعرف لرنر، أن لرنر أمريكي، وكيل عائلة ميلون.

«مثل هذه التناقضات مفيدة، فهي تضفي على الشخص شيئاً من الغموض». «لكن أكاذيب الكسندر الفاضحة مكشوفة». «الناس يفرحون عندما يظنون أنهم اكتشفوا كذبة، فليكتشفوا حيل الكسندر. وماذا يعني هذا؟». هل مهد الكسندر، بدفع من ميوله إلى المكيدة، الطريق، فلم يبق

معنى لهذه البحلقات المشلولة؟

جاء الخلاص من الخارج.. فتح الباب، ودخلت مجموعة من المسافرين، الذين ينتظرون انطلاق القطار نفسه كما يبدو. انفجرت فقاعة التوتر؟ لم يعد لرنر يرى الزاوية. فقد نهض سكانها. بعد دهر طويل من السحر حان موعد العمل. تناولت الآنسة لولوبو قبعتها، وأسدلت خمارها على وجهها وعقدته تحت ذقنها. سارت عبر الصالة مستقيمة الظهر كالشمعة. فتح لها المسافرون المجال، فاغري الأفواه، وجاحظي العيون، ولكنها لم تأبه بهم.

فجأة صار الفرنسي عند لرنر.. جر كرسيا، وقد زالت عنه ملامح التهديد والغرور. وجهه الشاب يشع بالابتسام.. تحدث الألمانية بإتقان فيه بعض اللحن المليح. بابتسامته الواثقة جاء مباشرة على زبدة الكلام.

«تشعر الآنسة لولوبو بأنك ترغب في دعوتها إلى العشاء، مسيو. لا اعتراض لها، ستسر بمرافقتك مساء اليوم على العشاء. هل تسمح لي بإيصال تفهمك إلى الآنسة لولوبو؟»

استعجل لرنر لإبداء موافقته، محاولاً أن يبدو طبيعياً رغم التأتأة البسيطة. كان دخول كل أولئك الغرباء مثل هبوب الهواء في الخلاء. دخل الفرنسي في تفاصيل الصفقة بسهولة أكثر. كان لرنر قد علم من الكسندر بإفلاسه المؤقت بسبب تعثر التحويلات المالية بين الدول. والقرض الصغير الذي سيدفعه للفرنسي (ليس الآن، بل مساء اليوم عندما يعرفه على السيدة المحترمة) ليست له أدنى علاقة بهذا الصنيع، إنما هو مجرد مجاملة بين الرجال.

«الساعة ثمانية، الغرفة رقم ثمانية وعشرين»، قال الفرنسي وذهب

خفيف الخطى. توقف لحظة أمام مكتب الاستقبال ليخطرهم بشيء ما ووجهه أقل توتراً مما قبل، وفي اللحظة التالية اختفى عن العيون.

رغم كل حرصه ورغبته، لم يستطع لرنر، التفرغ لاستنساخ أوراقه. ذهب إلى غرفته، واستلقى على السرير. وفي سريره شعر بتوتر الساعات الماضية. كان قد شرب ستة فناجين قهوة، إلا أنه ثقيل مثل صخرة. عرفت الطبيعة أنها ستحصل أخيراً على حقها. يحق للصياد أن يرقد الآن، ليجمع قواه وينعشها، فالليل طويل.

عندما استيقظ تيودور لرنر على صوت طرقات عاصفة على الباب كان الخارج مظلماً. الغرفة باردة وجسمه كان مبترداً. هل بلغت الساعة الثامنة؟ لا، بل هي السابعة. ذهب إلى الباب حافي القدمين.. استمر القرع العاصف على الباب.. كان قرعاً نسائياً.. شق الباب. مرتدية معطفها وقبعتها كانت السيدة هانهاوس على الباب وهي قادمة لتوها من السفر.

همست له مستبشرة: «أخبار جديدة ... لن تصدق إذا قلت لك من معي، ولن تحزر. إنه مستر شولتو دوغلاس بلحمه ودمه. وبذلك نكون قد وضعنا كامل الهيئة، بورخارد وكنور، والسيد فال وغيرهم وغيرهم، في جيبنا. وأنت مهدت الطريق بشكل رائع، يا عزيزي. لا، لا تتواضع كثيراً، فقد روى الكسندر كل شيء. الدرة السوداء هدية للمستر شولتو، فهو معتاد عليها من المستعمرات. ومائة مارك ليس ثمناً بسيطاً. لا، رجاء، تيودور، يجب ألا تطلبه من امرأة عجوز مثلي. ففي سبيل الأعمال، يجب أن تضحي أنت أيضاً».

-21-
ظهيرة الشركة القابضة

كانت ليلة ذاق فيها لرنر ألوان العذاب. منذ بدء عملية جزيرة الدببة لم يشعر بنفسه رخيصاً إلا مرة واحدة، عندما خدع رئيس التحرير شوبس، بحجة البحث عن المهندس أندريه. وحتى آنذاك لم يستبعد كلياً أن يعثر على آثار المهندس الشفيفة بشكل من الأشكال. لم يكن أحد يعلم أين سقط منطاده، وبهذا فقد يكون في كل مكان، فلماذا لا يحتمل أن يكون على جزيرة الدببة؟ ثم إن شوبس حصل على مادة كافية لأعمدته الصحفية ولو أنها وصلته بعد غيره قليلاً. فاتح ألماني حي يغذي المقالات أكثر من سويدي قاد منطاداً واختفى إلى الأبد. كما لا يشكو من السيدة هانهاوس، فقد برهنت هذه منذ اللحظة الأولى لتعارفهما على أنها لا تعرف هوادة في تنفيذ خططها، وهي هنا لا تظهر مثل كريمهيلد أو السيدة ماكبث. حولها ترفرف هالة من التعقل، سعة الاطلاع، الهيام بالحياة والموضوعية، ولا تدع مجالاً للشك في أفعال قذرة أو حسابات وضيعة. فهي حين تعمد في رحلتها العصيبة خلال دغل الحياة إلى ترك حقيبة أو صندوق وراءها، لا تفعل ذلك كمن يغدر بطيش وخفة بحاجة مقدسة، بل عن ذهن وقاد ورغبة عارمة في الحياة، وتحسب أن كل البشر يفكرون مثلها، وتؤمن بأن الناس لا يغتابونها ولا يؤاخذونها. كما أنها لا تتشكى من أحد. ويظن لرنر أنه كشفها على حقيقتها: «عواطفها تتغلب في هذه الحالات على عقلها».

لكن تصرفها بالآنسة لولوبو وتيودور، حفر في طبقات عميقة. في طبقات عميقة؟ ما الغاية من مثل هذه الصفقة؟ سيّرت العملية كما اتفق. باع الفرنسي الرشيق، ذو الشعر المشعث، صديقته، وللرنر حق التصرف بما اشتراه على هواه. منحه هدية إلى أصدقاء جدد، يضمون صوتهم إلى صوته. هذا كل ما في الأمر. وهكذا تراه السيدة هانهاوس والشركاء الآخرون. أم لا؟

إذا كان التعبير عن جواب هذا السؤال صعباً، فلا بد من أن المسألة تتعلق بعظمة أهينت.. بشيء شفيف.. بشيء لا يلمس لمس اليد على أي حال. وهذا الشيء الشفيف نشأ بطريقة غير واعية، ويتألف من صور تتوارد، وتمر بسرعة، إلا أنها تأخذ حيزاً في الصدر، ففيه يتولد ضغط، قلق، يصدر عن ضيق في الأعماق. بين هذه الصور، خصر يحيط به قماش عليه مربعات زرقاء فاتحة، نخزة في القلب، حين ترفع قفازات حمراء خماراً، عينان واسعتان وفم واسع في حلقة سوداء كلحاء شجرة الأبنوس، ولادة من حضن الجليد، انحناءة خفيفة بين الدببة، وسوسة الكسندر الشيطانية كبارود يقوي شدة المؤثرات، بَحلَقة أبدية في صالة الطعام الخالية. كل هذه الصور منحت الشيء الشفيف، والخفي، خطوطاً وجسداً. لكن علام جاء الحديث؟ على الصفقات في أحط صيغها! ليس في عين لرنر، كما يستوعب الآن، حين لا يحتمل الشعور بالذنب، واحتقار الذات في السرير، ينهض، ويرتدي ثيابه، ويغادر الفندق ليتسكع في الشوارع النائمة.

لا يستطيع أن يروي الأفكار المتلاطمة في رأسه لأحد.. لا للسيدة

هانهاوس بعقلانيتها الموضوعية الباردة، ولا حتى لنفسه. يشعر بأنه غزا الآنسة لولوبو، وخرج منتصراً من المعركة. رغم أنف الظروف الخارجية ورغم ريبتها وتحصنها يشعر بأن بينهما عهداً راسخاً. إن الفرنسي لم يؤجرها له، بل رأى أن ينسحب من الساحة، لأن قوة أعظم حلت محله. وإذا كان في المقايضة رأسمال، فإنه يزيد حدة صراعه على الآنسة لولوبو. فلأنه لا يملك هذا المال، عليه بذل المزيد من الجهود في سبيلها. وهذا يشبه تلك الواجبات التي يفرضها الملوك على طلاب أيدي بناتهم في الحكايات. شعر تيودور لرنر بأنه مدين كلياً للآنسة لولوبو. فقد قررت أن تهب نفسها له، لا لغيره، وها هو إنجليزي عجوز يقف في دربها.. يخدعها، ويسوّد وجهها، ويغرر بها، وبذلك تورطت في عالم ما كانت ستدخله لو أنها مع تيودور لرنر. انتهى السحر وترك قصة بشعة في ضوء بارد. أُكرِهت امرأة جميلة، لأنها كريمة سمحة. عجوز فظ يقضم من هدية أرسلت إلى غرفته، كما يقطف من سلة ثمار يانعة، حبتي عنب بأظافره المصفرة. وتلطخ السيد تيودور لرنر. دخل في صف الشاب الفرنسي الذي انتصر عليه توا في المعركة. والسيدة هانهاوس صبت اهتمامها على الواجبات اليومية بكل عقلانيتها الباردة المعهودة، وهذه البرودة اكتسبت، نظراً للثمن العالي الذي دفعه، صفة شيطانية.

هنا وهناك بعض المقاهي التي تشع في الظلام. لرنر يشعر بالعطش، لكنه لا يجرؤ على الدخول ويكتفي بالنظر من خلال الواجهات. هنا يلعبون البلياردو على طاولة فسيحة تحت مصابيح معلقة، هناك شبان

على رؤوسهم قبعات، يجلسون مع نساء في ثياب ملونة، ويشربون البيرة من كؤوس متعرقة. يشعر لرنر بأنه مطرود من هذا المجتمع الذي طالما أحب الاندماج فيه. سيشي وجهه بما فعله.. بالأحرى بما أباحه. عاد إلى الفندق حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة. كان مرهقاً وتذكر متحسراً الإرهاق الذي كان من المفترض أن يعانيه الساعة. ارتقى الدرج، وكأنه محروم من استخدام المصعد. سمع جلبة في الغرف على جانبي الممر. ربما تنام في أحدها لولوبو بعد أن أدت خدماتها.

ضوء الدهليز خافت.. مصابيح الغاز تخفق على مسافات متباعدة. الأرضية تصدر طقطقة، والسجادة رقيقة ومهترئة. سار لرنر على رؤوس أصابعه. في نهاية الممر فتح باب.. تأرجح ثوب عليه مربعات زرقاء فاتحة، سمع حفيفه، ورأى الآنسة لولوبو مطأطأة الرأس، من يدها تتهدل قبعة القش.. مشد الجسم غير موثوق، والثوب متجعد وتالف. ولما اقتربت شاهدها تدس منديلاً في وجهها، وشاهد شيئاً أحمر. هل هو قفازها الأحمر؟ لا، لم تكن ترتدي القفازات. كانت يدها السوداء تحمل المنديل الأبيض، والمنديل غارق في الدم. دنت منه بتريث، وقد لاحظته متأخراً. كان مستنداً إلى الجدار، ومتجمداً من الذعر.. نظرت إليه بعينين صغيرتين لا مباليتين. إذاً كان غريبا بالنسبة لها. كانت مهصورة. في الممر يترنح ما خلّفه شولتو دوغلاس من فتات.

عندما كان لرنر مستلقيا في سريره وأطفأ الضوء.. عندما كان يحدق في السكينة (ففي هذا الوقت تحل السكينة حتى على فندق مونوبول) في الظلام ويشكر ربه على أنه مختف تحت الغطاء، بعيداً عن الأعين،

سمع تصدعاً، سرعان ما تحول إلى صرخة.. ليست صرخة إنسانية بل فرقعة انشقاق الخشب الذي يبدي كل طاقاته الأخيرة، وهو يتقصف قبل أن يتحول إلى حطبة ميتة. كانت الصرخة مدوية، إلا أنها توقفت عند حدود سطح جسمه، وكانت صادرة عن قلبه.. لقد تقصف فيه شيء ما.

الجسور تنهار، والسفن تحترق. هذه عبارات شائعة، طالما رددها، لكنه الآن يعلم معناها الحقيقي. كان قد تقدم خطوات بعيدة في مراده.. أبعد بكثير من أهداف حياته المعتادة، بل أبعد بكثير من طاقاته المعهودة، وأبعد بكثير من كل ما حلم به يوماً ما. هجر عالم العائلة، وبمعنى ما البلادَ أيضاً.. صرف نقوداً ليست له، وينوي تغيير المستقبل. وفات أوان التراجع.. انهارت الجسور وراءه واحترقت السفن. ليس له إلا أن يمضي قدماً، وحيداً أو في صحبة البشر الذين لاقاهم على هذا الدرب.

«إلهي، لا تجعلني أسير وحيداً»، صلى لرنر قبل أن يغرق في النوم.

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، نهض تيودور لرنر آخر من السرير، تيودور لرنر طموح، وجسور. زوبعة الطَرَقات المتلاحقة، التي أعلنت عن السيدة هانهاوس، هبت بعد نصف ساعة. استقبلها وهو في بنطاله.. شقت الباب قليلاً، بما يكفيها للدخول، وتحدثت بابتسامة مشرقة وصوت خفيض كأنها تبوح له بسر عظيم.

«كل الأمور تجري على خير ما يرام».

أما ما هو المرام، فلم تشي به.

«يعرف شولتو أنني عندك. سيبعث في طلب لقائنا بعد قليل». سأل

لرنر إن كان هناك متسع من الوقت ليشرب فنجان قهوة. صاحت السيدة هانهاوس: الأفضل ألا تشرب.. شولتو رجل غريب الأطوار. إنه يعذب الناس بالانتظار في بعض الأحيان.. تعلم هذه العادة في المستعمرات، حيث الوقت طويل والخدم كثيرون، لكن إذا خطر له شيء، فيجب أن ينجزه بأقصى سرعة. قالت كل هذا بنبرة من تصف السمات المرحة لرجل عبقري.. نقاط الضعف الهينة لرجل قوي العظمة.

«كم تعذبت حتى جلبته إلى هنا».

قالت إنها صادفته في محطة دوسلدورف. «نحن أصدقاء منذ أيام أبينا آدم». وفي فيسبادِن عجنته حتى اقتنع أخيراً بعدم النزول من القطار. «لو أننا أجلنا الحديث.. لو قلنا سنأتي غداً، أو بعد غد أو بعد أسبوع إلى فيسبادِن، لما أثمر الموعد. هذه هي طبيعته، ولا يمكن الإمساك به. إنه قطعة صابون مبللة.. رجل رائع، يعرف حقيقة العمل الفعلي. وعملياً هو معلمي. قلت له: شولتو، أنا معترفة بجميلك وفضلك في كل ما حصلت عليه. قال: مدام. إنه على أدب جم، جنتلمان من الطراز القديم، إذا كنت تفهم قصدي».

«وماذا قال؟»

«لا أتذكر الآن كل ما قاله. لقد أبدى إعجابه الكامل بقضيتنا، جزيرة الدببة ...»

«وماذا قال عنها؟»

«كل خير. لكن بنبرة خاصة ونظرة عميقة ... لا أستطيع الآن أن أروي لك كل شيء.. هذه الطبيعة الإنجليزية المتكتمة، فأنت لن

تستخرج من أفواههم أكثر من كلمة كل خير، حتى في أعظم المصائب. لكن رؤوسهم تشتغل فيها الحسابات على الفور.. يرون رأي العين آلة الحساب التي تدقق كل شيء بسرعة عالية».

سادت بينهما لحظات صمت.

«لا بد من أنه بحاجة لبعض الوقت.. لا بد من أنه سهر طويلاً ليلة أمس»، قال لرنر، ودهش من بروده. لم تثر فيه نأمة، ولم يثر إحساس في أعماقه حين نطق بهذه الكلمات.

قالت السيدة هانهاوس: «وهذا تاج الصفقة. لمّا حكى لي الكسندر بالهاتف عما تحضّره (دون أدنى علم بشولتو!!!) عرفت أنني كسبت اللعبة. كلما تأخر في طلبنا، كان أفضل للقضية. ليأخذ وقته كما شاء. فهو لم يعد في مطلع الشباب، وأنت أيضاً. في الثلاثين من العمر، لم تعد مراهقاً»، وأردفت أن أول ما لفت نظرها في الحياة هو الشيخوخة. هل لاحظتها من شيب الشعر؟ لا، فالشيب ظهر فيه منذ الخامسة والعشرين. موروث من عمة. ورفضت صبغه بكل حدة (هنا ظهر الشرر في عينيها). لكن للشيخوخة علاقة بالشعر.. يوماً ما لاحظت شعرة بالغة الطول في حاجبها، مثل شعر الخيل، بل مثل سلك. كثافة شعر الحواجب، طلائع تغير يطرأ على الجسم، اسمه الشيخوخة. الجسم يحيط نفسه بمشد ذاتي في شكل تلك الشعرة، أو يحاول هذا على الأقل، فشعر الحواجب لا وظيفة له. طبعاً مع هذا التغير الظاهري تجري تغيرات داخلية أيضاً.. تغيرات تجري على الأعضاء الأخرى. إنها تتصور مثلاً قشرة تتشكل على القلب نتيجة الضخ الدائم للدم. إنها تنزع شعر الحواجب الثخين

بملقط، لكنه ينمو ويتفاقم مثل الأعشاب الضارة بعناد وقوة أكثر. لقد فهمت أخيراً أن الشيخوخة تعني كسب المزيد من القوة. مؤقتاً على أي حال، وذلك حتى تبدأ مرحلة الانهيار يوماً ما.

في الخمسين تشعر بنفسها أقوى بكثير مما كانت في العشرين. تحتاج إلى ساعات أقل من النوم.. تتحمل أكثر، لا تمرض، وعلاوة على كل هذا يأتي كسب المزيد من الخبرة. إن قدرة إنسان شاب على تجاوز مصاعب الحياة لغز لها.

هل تفكر في الكسندر الذي يتفتح تحت زجاج محميتها الكثيفة؟ عادت إلى نقطة الانطلاق بالقول: إن لرنر سيلاحظ كثيراً من الشعرات الثخينة المتفاقمة في حواجب شولتو. وهذه في مظهر شولتو العالي ليست أكثر من دغل صغير، كذكرى عن الغابات المطرية في أفريقيا التي قضى فيها وقتا طويلاً.

قرع على الباب. أعلم نادل في مريول أبيض قذر، بلهجة محلية، أن «المستر دوغلاس» مستعد الآن لاستقبالهما.

في الغرفة الكبيرة المزخرفة بالنباتات، مثل غرفة السيدة هانهاوس (غرفة لرنر مزينة بالخطوط) كان شولتو دوغلاس في معطف الصباح الحريري في السرير، ولكنه يرتدي بنطاله المكوي الواسع، بني اللون.

وجهه مليء وناعم. ولو لم تكن فيه تلك الحواجب البارزة، التي أعلنت عنها السيدة هانهاوس، لظنه لرنر وجه امرأة. يداه كبيرتان وبضتان مثل عجين أعد للتو، ما يتلاءم مع رائحة المخبز القوية في أسفل الفندق.

«مدام»، قال دوغلاس بصوت ناعق كصوت الغربان، وبلهجة هي خليط من الإنجليزية والفرنسية: «اعذروني لبقائي مستلقياً في السرير، فأنا في هذا الوقت يصعب عليّ الوقوف. وهذا هو الشاب الشاطر، الذي روّض دببة القطب بكل همة ونشاط. أيها الشاب، لقد فكرت ملياً. بين دوسلدورف وفرانكفورت شرحت لي صديقتي الوضع القانوني. أنت طلية اللسان مدام.. طبعاً يجب أن نأتي أصولاً على سيرة التفاصيل، لكني أقول: جزيرة الدببة، بالأحرى نصيبك فيها، يساوي عندي مائة وخمسين ألف مارك. وأنت بهذا تعقد صفقة مربحة، لكنها مربحة لي أيضاً. وفوق هذا يمكننا النقاش حول تعيينك مديراً لأعمالي على الجزيرة، مقابل أجر مناسب طبعاً. أحسب حساب ستة آلاف مارك كأجر وستة آلاف مضمونة من صافي الأرباح. لكننا سنقوم بحسابات أدق في الأيام القادمة».

كانت السيدة هانهاوس قد جلست بجانبه على حافة السرير، بجرأة عالية كما بدا للرنر.

قالت وهي تضع يدها برقة على ذراعه: «شولتو. بدل أن ترتاح وتنام، قمت هذه الليلة أيضاً بالعمل».

«أنا أعمل دائماً، مدام»، قال بصوت متكلف وربّت على يدها ثم أمسكها وأبعدها، وأردف: «اليوم بعد الظهر أرجع إلى فيسبادِن. أنتما تلحقان بي في الأيام التالية، لتثبيت العقد. مدام، عندي طلب. أرجو أن تتنازلي لي عن الكسندر في الفترة القادمة. أنا أحتاج مساعداً، سكرتيراً، شخصا يقوم على خدمتي». وهذه العبارات جاءت هامسة

حميمية، كأن لرنر لم يعد في الغرفة. لقد ضاق نفسها.. وضعت يدها على صدرها. ارتعش صوتها قليلاً عندما ردت عليه: «طبعاً. سيسر بأداء هذه الخدمة. فمنك أيضاً يستطيع تعلم الكثير».

«من هذه الناحية لا تخافي»، قال شولتو دوغلاس. وبهذا انتهت الزيارة.

-22-

في عين الخطر

ميكلنبورغ، بعيدة جداً عن كل الممالك الغربية. يدير لها بحر البلطيق ظهره، ولغة أهل ميكلنبورغ لصيقة بهم كطين أحذيتهم وتشبثهم بالأرض الزراعية. لكن وحيد القرن الماثل هناك في قفص زجاجي بإطار حديدي مطأطئاً رأسه العجيب بعينيه الصغيرتين، اصطاده أمير ميكلنبورغ. والحاكم لا يحمل فقط ذنب قتل الحيوان في رقبته، بل كذلك ذنب تحنيطه في تابوت زجاجي. دبغ المحنطون الجلد القاتم وشربوه بسوائل حافظة أضفت عليه مظهر المطاط القوي. وحيد القرن واقف كما في آخر أيام حياته، حيث ألقى النظرة الأخيرة على أمير ميكلنبورغ، الرجل الضخم ذي الذقن المدببة في حلة كاكية تتقاطع عليها الأحزمة الجلدية بالطول والعرض، ولكنه يبدو أكثر مواتاً مما بعد الطلقة التي حولت الحيوان المدرع، المستعد للهجوم، إلى كيس هامد. هل زرعت لقالق العاصمة «شفيرين» في قلب الأمير بذور الحنين ليتعقبها إلى مصر وأبعد منها حتى منابع النيل؟

هذا ما يسأله الرجل الواقف في مواجهة وحيد القرن. كان يعرف اللقالق، إلا أنه لم ير في حياته وحيد قرن حياً. كان يوماً بارداً والمتحف من دون تدفئة. سعل الحارس ذو القبعة مذهبة الحواف، مرتدياً قفازات من دون أصابع سعالاً مكتوماً، ثم تطلع حوله شاعراً بالذنب، كأن صمت قاعات المتحف مقدس. الرجل هو الزائر الوحيد.. يرتدي قبعة كروية صلبة، كأن المحنطين حشوا نصف الكرة اللبادية بشعر الخيل، ونشارة

الخشب. ولأن وجهه السليم، البدين يشبه الكرة بدوره، فإن القبعة تبدو وكأنها تترجم الرأس إلى لوحة تجريدية سوداء. هل يتأمل وحيد القرن، صاحب القبعة على أنه فرد من أفراد العائلة، متوج مثله باستطالة صلبة؟

القبعة تبعث الرهبة في قلب الحارس. ربما لم تكن القبعة وحدها مبعث مشاعره. فالرجل الذي يضجّ بالشهوانية والبهجة بالحياة تحت حافة قبعته المكورة، فيه شيء طاغ. يتجمع حوله بخار تنفسه بين الأعمدة الحمراء، وكأنه يسهم في تضخيم مظهره ويحيطه بمعطف من طل قارس.

قال الرجل موجهاً الكلام إلى الحارس: «شبعت من وحيد القرن.. أريد الآن مشاهدة لوحات الدايوراما. إذا سمحت، أشعل الإنارة هناك».

المتحف قصر بُني حديثاً، ولايزال يفوح برائحة الملاط والدهان. الكحول يكاد يطير من القناني الزجاجية المصقولة، التي تحوي مجموعات قديمة من ديدان شريطية ملتفة على نفسها كسددات القناني، وثعابين شاحبة، وأجنة رؤوسها مستطيلة كالأبراج ونباتات مخيفة كالحيوانات من البحار القصية، أم كانت هذه رائحة الصمغ؟ هواء المكان يُذبل كل أنواع الحياة. هنا طائر الدودو، الطائر الخرافي المضحك، بحجم الدجاجة، بالمنقار الواسع، والمنقرض على جزيرة موريشيوس قبل أن يبدأ المحنطون في متحف زينكبِرغ نشاطاتهم بوقت بعيد. ولم تتبق من هذا الهجين بين البط والبجع سوى عظام تحرس آثاره في قفص زجاجي.

قال الحارس: «هذا هو الدودو المشهور». انحنت القبعة الكروية نحو الطائر، وتطلعت العيون الودودة بفضول. ارتفع الرأس من جديد.

«إن جزيرة موريشيوس، بعيدة جداً عن جزيرة الدببة. وعلى كل حال

فإنني لم أر عليها طائر الدودو». نطق الرجل بجملته محتداً بعض الشيء. لم يضطر الحارس إلى تقديم شروح عن كل شيء.. عن كل بيضة نعام، وكل فراشة، وكل ثعبان عملاًق يبتلع خنزيراً. فالسيد لم يأت إلى المتحف نهما إلى ثقافة عامة، بل لأنه يعمل.. يود الاقتراب من المادة التي تشغل ذهنه. وكان الحارس يعرفه. فالسيد يعمد إلى التجوال بين القاعات من دون هدف معين، حتى يصل إلى طائر الدودو. بعض القاعات مازالت فارغة، ولكن الأشياء التي ستشغلها معروفة سلفاً. فشأن المتحف شأن الحضارة التي يمثل معبداً ومخزناً لها: لم توضع مخططات بعد لجميع حجرات الحضارة، ولكن مكانها وحجمها معروفان سلفاً، كما يعرف ما ستحويه. حين يمتلئ المتحف ستكون جميع أقاصي الأرض قد استكشفت. فمنذ اليوم، تشبه البقع البيضاء على كرة الأرض، حقول الثلج على السفح الجنوبي لجبال تاونوس في شهر آذار، فهذه البقع تتقلص تحت شمس الفضول الإنساني، الذي لا يقف عند حد. فما أن يعلم أحدهم بوجود رقعة أرض مازالت مجهولة أو يصعب الوصول إليها، أو لم يصل إليها أحد بعد، حتى تبدأ الإعدادات لإرسال بعثات استكشافية على الطرق الخطيرة، مع أن الهدف ليس مادياً صرفاً دائماً. بخلاف الإسبان الذين ارتقوا جبال أندن في البيرو، متقطعي الأنفاس تحت ثقل أحمالهم خلال بحثهم عن ذهب البلاد، فهم كانوا في قمة العقلية النفعية. أما المستكشف الحديث فلا يبحث عن الذهب، بل إنه كالطفل، يفكك ساعة ليلقي نظرة على داخلها من دون هدف معين.

وكذلك جاء الرجل تحت القبعة الكروية، ليلقي نظرة على داخل بناء مغلق فيه صناديق كثيرة متراصفة في دهليز معتم.. أنذره الحارس مسهباً

في ضرورة الحذر، وكأن في العتمة فخاخاً وجحور ثعابين. لكنه كان في دهليز، كما في منطقة صيد، لكن في ظروف أسهل، يشارك الزائر في حياة الحيوانات الخائفة، دون أن تتبلل قدماه أو تتجمد أوصاله، ورغم هذا يعيش حياة البرية. جيء بأشجار كاملة: سنديانة بكامل شبكة جذورها، فيها جحر عائلة كاملة من القندس، بالأب والأم والأطفال. طبعاً الأوراق صناعية من ورق دائم الخضرة في صيف الصندوق. الجذور والتراب في المقدمة والوسط قريبان جداً من الواقعية، ويصبان في لوحة خلفية. ولدت جبال تاونوس من جديد على لوحة بالفراشي العريضة لمصممي لوحات المسارح، من دون تجاهل آخر المعلومات عن الطبيعة، من مروج سفوح جبال آلم الفيروزية، كما يرسمها هولدر، إلى الألواح الطينية للانطباعية المتأخرة. أبدى الرجل تحت القبعة الكروية إعجابه بالوعول والأيائل في غابات هرستفالد، وبالأرانب والتُّدرُج في المروج الزاهية بأزهار الخشخاش والقنطريون، بزوج الأُرخُص الذي يخوض في المستنقعات ما قبل التاريخية الضحلة، لكنه لم يركز انتباهه عليها، فهدفه في نهاية الدهليز المعتم.

وهنا الضوء مبهر أكثر، كما يلوح، فهو لا ينعكس على ورق السنديان أو على حقول القمح، بل على الثلج والجليد. جلاميد الجليد من الجبس تتراكم فوق بعضها مثل زبدة بيضاء. ضفائر الجليد تنحدر منها كالزجاج الصافي. وضع الرسام في اللوحة الخلفية، كثيراً من الضربات الوردية والصفراء الفاقعة، كأن الشمس تشرق على بلاد الجليد، وتصبغ المَحْل بالألوان الحبيبة إلى قلب رجل يتجمد. الجلاميد متداخلة على شكل كهف.

هذه هي فوهة الحفرة التي يقف عليها دب قطبي بحجم يقارب حجم الأُرخُص على مبعدة عدة صناديق. الرأس الصغير، الفرو المصفر، الأبيض الوسخ، السواد الصقيعي حول خطمه، والمخالب الهائلة التي يصطاد بها السمك في الحفرة (الزجاج الأخضر يعكس نظرة الحيوان الخالية من أي تعبير)، كل هذا يقرب الدب أكثر، حتى يكاد يلمس عصب الشم. خال الرجل أنه يشم رائحة جيفة في الصقيع، كانت تهب يوماً ما من فم الحيوان الكاسر. الأصفر الفاتح والوردي! هل توجد هذه الألوان حيث تعيش دببة القطب؟ حين كانت الشمس تأخذ حمامها السريع في البحر، كان الطين القاتم، الذي يتخوض فيه الرجل، يبدو شاحباً، ثم تظل نقطة ساطعة في الأفق مثل شعلة غاز وراء لوح زجاجي حليبي. نعم، إنه الحليب. حين يطلع النهار، يبدو كالحليب، يصب في فنجان القهوة السوداء. ومن يبحث في الضباب عن دب، لا يراه قبل أن يهجم عليه أو على الأقل هذا ما رواه بحارة السفينة هيلغولاند بعد أن عادوا من رحلة الصيد مع الروس. لم يكن الرجل قد رأى دببة قطبية كثيرة. كل ما رآه منها هو أنثى الدب التي قتلها القبطان آباكا؟ هل ذلك الدب أيضاً محنط الآن في صندوق زجاجي؟

-23-
اللوبي يضغط

لائحة المستر دوغلاس بأسماء المدعوين إلى الحفل الذي سيقيمه على شرف السيد عضو مجلس الرايخ دكتور هان (سلمه الكسندر ملفا قرمزيا نزولا عند إشارته، تأمله وأخذ منه ورقة كبيرة) تشبه قائمة اجتماع مجلس الأمة، فبين المدعوين عدد كبير من المستشارين: المستشار الاقتصادي لامبادوس، المستشار الاقتصادي غيبرت تسان، المستشار القانوني فريسبِل، المستشار دونَر، المستشار الصحي هارتكنوخ، مستشار الدولة آلبرتسهوفن ومستشار المحكمة الابتدائية فريتسِه.

«إذا استطعت جمع كل هؤلاء إلى طاولة واحدة، فإن السيد هان أيضاً يصبح تحت يدك. هؤلاء الناس مهمون». من النعيق الصادر فجأة من فم المستر دوغلاس، رنت الجملة وكأنه يقصد العكس تماماً. وهذا الشك يطرأ على ذهن لرنر، كلما سمع مقولة من جنتلمان المستعمرات، فهو يشعر في حضوره بالتقزز والغثيان. كانت فطرته بسيطة، ويمتعض من أن يهينه شخص يدفع هو له. إلا أن لرنر لم يدفع لدوغلاس مباشرة. فالمسألة أكثر تعقيداً. لكن الوضع القلق لهيئة جزيرة الدببة منذ إعلان شولتو دوغلاس عن رغبته في شرائها كان باهظ الثمن. لا تتحمله مالية لرنر إلا بالكاد. وهذه المالية هي سُلَف قدمها السيد اوتو فال ومدير المناجم نويكيرش وبعضها من خزينة فرديناند الحربية السرية. وفي هذه الأثناء يلح بورخارد وكنور، مع إنذار شديد اللهجة، على أن يدفع

السيد لرنر أيضاً حصته، البالغة خمسة وعشرين ألف مارك، والتي لم يكشفها بعدَ أن حسب حساباته الفضفاضة لنتائج بعثته (خاصة مع مراعاة المنازل على الجزيرة). أعلن السادة بورخارد وكنور أنهما ملا من الانتظار، ولكنهما عبرا عن سخطهما بتأدب بالغ، كما هو شأن أهل الشمال، وذلك بكلمة: مازلنا. فقد جاء في بريدهما: «مازلنا في انتظار التحويلة الموعودة...»

لحسن الحظ كان الفصل شتاء. وحول جزيرة الدببة تتجمع جبال الجليد جاعلة الوصول إليها أمراً مستحيلاً . وجد لرنر في «الصحيفة المصورة» لقطة جميلة مطبوعة بالحفر: مجموعة من كتل الجليد تشكل برجاً جليدياً يشبه برج بابل، الكتل المتلاطمة تلاحمت بقوة مدمرة وارتفعت في السماء. علو هذا الجبل في عباب البحر يلاحظ من سفينة ذات ثلاث صواري طُحِنت في التصادم الساكن، الذي تشي به الصحيفة، مثل لعبة، مثل سفينة هيلغولاند في اصطحاب قوى الطبيعة. عنوان الصورة هو خيبة الأمل. أواه، نعم، فقد خابت في الأعالي آمال كثيرة بالمجد والثروة.

قالت السيدة هانهاوس: «بالعكس، فالموقف في صالحنا تماماً. ما نحتاجه (وأنا هنا أوافق رأي شولتو بالتمام والكمال) هو هواء خفيف ينفخ في شراعنا من الأعلى. في الأرض السائبة، حظوظ كثيرة، ولكن فيها أيضاً مجازفة ومخاطرة، وفي يد حكومة الرايخ أن تخفف هذه المخاطر إلى أدنى حد. لقد درست التناسبات بدقة عالية. الدكتور هان حاليا هو أكبر سياسيّ المستعمرات في ألمانيا، على الأقل في حلقة معينة،

وعلى كل حال فهو رجل ذو شأن.. رجل مهم».

قبل أن يتعرف لرنر إلى شولتو دوغلاس كان سيصدق من دون أي تردد كلمة «مهم» التي لا تني السيدة هانهاوس تذكرها. أما الآن فإنها تبدو له مجرد محاكاة ببغائية. فالقاسم المشترك بين «المهمين» هو أن عليك أن تقدم لهم شيئاً مسبقاً. المهمون أناس أكفاء، لا يعرفون غير الواقع. وهذا الواقع له ثمن. والسيد الدكتور هان ذاته لن يقدم العون سعياً إلى مصلحة الوطن فقط. طبعاً لا يمكن عرض حصة مجانية في هيئة جزيرة الدببة على نائب بعبارة صريحة، فهذا فاضح جداً. إلا أنه يمكن التعهد بشراء جميع الماكينات اللازمة لحفر المناجم من شركة المستشار الاقتصادي لامبادوس، صديق حمي الدكتور هان. المستشار الاقتصادي يمثل قوى ذلك الحزب الليبرالي، الذي أورد اسم الدكتور هان على لائحته الانتخابية، وتنتج مصانعه المعلبات والمحفوظات وسيلعب دوراً حاسماً في شؤون تغذية عمال المناجم، الذين سيقضون الشتاء على الجزيرة، ولا يستبعد أن يبني مصنعاً للمعلبات هناك. المستشار القانوني فريسبِل له علاقات شخصية مع دوغلاس، فهو يشير عليه، كما قيل، في المسائل القانونية، وسبق له أن «قدم خدمة جليلة»، كما أدلت السيدة هانهاوس بدلالة عميقة، يفهم منها أن المحامي أنقذ دوغلاس من السجن. المستشار دونَر كان في سابق عهده مالك ثلاث جرائد، وعانى تجربة مريرة في الإفلاس، إلا أن يديه مازالتا طويلتين في هذا المجال، ويزعم الكثيرون أنه الملاك السري لصحيفة «ساعي بورصة برلين». المستشار الصحي هارتكنوخ رجل لبق جداً، من حلقة أصدقاء

شولتو الضيقة من «أيام تانغانيكا»، ما يكفي السيدة هانهاوس رداً قاطعاً على كل الشكوك التي قد تطرأ. مستشار الدولة آلبرتسهوفن، ومستشار المحكمة الابتدائية فريتس متقاعدان رغم أنهما مازالا شابين. ما الذي يدعو مستشار محكمة ابتدائية في بروسيا إلى الاستقالة من منصبه؟ لا داعي للتفاصيل، فهو الآن رجل «مهم»، بل أهم حتى من آلبرتسهوفن ذي الرتبة الأعلى.

نق دوغلاس بغتة: «أنا أجمع لك أرفع الناس، أيها الشاب. أنا من يحدد قائمة الطعام، كي لا أحرج».

«شولتو، ماذا أرتدي في الحفل؟» سألت السيدة هانهاوس في محاولة منها لإظهار فرحها وشكرها الجزيل بأسلوب الأنثى. شعر لرنر بالجهد الذي وضعته في السؤال المرح الساذج. منذ أن أرغمها شولتو على التخلي له عن الكسندر، لم تعد علاقتها بقدوتها التجارية مضرب مثل. يصعب عليها المحافظة ولو ظاهرياً على مساواة الشركاء حتى في طريقة التعامل على الأقل، لكنها مصرة على المحاولة. فإذا كان هناك إنسان يلقن محيطه دروساً في الانضباط، فإنه السيدة هانهاوس.

خشي لرنر أن دوغلاس يدفعها عمداً إلى أقصى حدود رباطة الجأش. فحين يكونان معاً ويدخل الكسندر إلى الغرفة، تنتفض وتحاول الالتقاء بنظرات ابنها، من دون طائل غالباً، فالكسندر يرتدي الآن حلة غالية، ويضع ربطة عنق حريرية ثخينة وردية اللون، تتفتح منتعشة تحت وجهه، الذي لم ينتهِ تكوينه بعد، ولكنه في الآن ذاته غير رائق. طريقة عرضه صورة سكرتير السيد الإقطاعي لا تتطابق إلا وصورة المستخدم

في المسرح، حيث تختلط الخيلاء بالوقاحة. عوض الرد على نظرات أمه، يرفع حاجبيه ويرسم على وجهه سحنة اللامبالاة. كيف يجرؤ على هذا؟ تساءل لرنر.

«آلكس؟»، قال شولتو دوغلاس، بينما كان الكسندر يزيح الستائر، فشولتو كان قد أطال النوم واستقبل ضيوفه وهو في السرير.

«سايِر؟»، رد عليه الكسندر. «الطقس جميل اليوم»، قال دوغلاس. فعقب الكسندر: «لك مطلق الحق، سايِر» بإنجليزية لا يتقن منها سوى عدة كلمات وبنبرة كنبرة القرد. هل هذا هو نفس الشاب، الذي كانت أمه تصفعه قبل أيام لتدله على الصراط المستقيم؟ طالما لا يركز عليها شولتو أنظاره، كانت السيدة هانهاوس تقلب عينيها بينه وبين الكسندر. ثم رسمت على وجهها علامات الانشراح.

«سيان ما ترتدين، مدام»، قال شولتو مرحاً، وأردف: «إنه عشاء لم تدع إليه النساء».

«ألم تقل إن عليّ الحضور؟» سألته ببعض الدلال.

«أنت لست امرأة، مدام».

«إطراء في غاية الجمال».

«افهميه كما تريدين».

حين نضع خيطاً في كأس مليء بمحلول مشبع بالشب، نرى كيف تتجمع حبيبات الكريستال على الخيط. وفي الصالة التي دعا إليها شولتو دوغلاس ضيوفه، كان الجو مشبعاً بالتوتر والحاضرين، بحيث تنعكس مادة في شكل مئات الموشورات المتلألئة حول السلسلة

البرونزية للمصباح المعلق. كان شولتو دوغلاس يرتدي فوق الفراك الأبيض جاكيتاً مربوطاً على طريقة الفرسان من المخمل الأحمر، وخفاً مخملياً منقوشاً بالذهب في قدميه الصغيرتين. كلما قل تفكيره في العودة إلى الاستقرار في الوطن الأم، ازدادت لديه عظمة استعراض عاداته الإنجليزية. وحتى طريقته في شرب النبيذ، تشبه طريقة شرب الويسكي. بجانبه، على بعد نصف خطوة وراءه، الكسندر يرتدي فراك وعينه الزرقاء، بالأحرى البنفسجية القاتمة، في وجهه الصقيل المدور، منتفخة، وتبدو في إطلالته التي لا تشوبها شائبة، كديكور غريب رسم على الوجه. خيلاؤه المغرورة منعت أي سؤال عن سر الكدمة تحت عينه. واضطر إلى الحضور لتقبلها كما هي.

الزي شأن عظيم، حير السيدة هانهاوس. فهي لا تملك فستان سهرة ملائماً ولا تستطيع الارتجال على وجه السرعة وذهنها لا ينقطع عن التفكير في ثوب جدير بالمناسبة. ألهمتها وقاحة شولتو بفكرة عبقرية. استأجرت فستان أرمل من محل لتنظيم الجنازات. عندما فتح النادل الصغير درفة الباب، كانت واقفة على العتبة مثل ملكة في خمار أسود طويل. حل الصمت على الضيوف ما أن رأوها. حيوها باحترام بالغ، بل بورع، رغم أن شولتو لم يتمالك نفسه من إبداء ابتسامة لاذعة وهو يهز رأسه. بعد أن ألقت نظرة ملؤها الحزن على الكسندر، تحركت متوجهة إلى أقرب رجل: «إننا اليوم لسنا في حفل رسمي. كل ما نريده هو الحديث بشكل بريء مع الأصدقاء. هل تسمح بمرافقتي إلى المائدة. وليبق السادة الآخرون حيث هم».

رفع إليها لرنر بصره مسحوراً وممتناً. فقد كانت لها هيبتها. اتخذت مكانها إلى المائدة، التي تراكمت عليها الفضة والكريستال بكل ثقة، كما كانت في الفرع الثانوي في مقهى «بنت البستوني». لكنها لم تستطع السيطرة على الجو المقذع فتجاهلته. فجميع السادة كانوا متربصين ببعضهم، ويلاحظ المراقب الذكي أنهم لا يجتمعون عادة في مكان واحد. في تأدبهم تحجر، ونظرات اختبار خبيث. ولم يحضروا إلا لتلبية دعوة السيد دوغلاس الخرافي، آملين أن يكون الحفل متميزاً ومثمراً.

على قائمة الطعام أسماء أنفس الخمور المعتقة: بورغوند وتوكاي، شيري وشامبانيا، نبيذ أحمر عمره مائتا عام، تبعه كونياك عمره مائة عام، كل هذا في خليط لا يوصف.

«هل أنت من اقتحم بحر الشمال؟» سأل مستشار المحكمة الابتدائية فريتسِه، ثالث شاب بعد الكسندر ولرنر، ولكنه لم يعط لرنر الفرصة للإجابة وقال: «هذا البحر الكبير واسع الأطراف. هناك دبابات بلا عدد، وصغار حيوان مع كبار.. هناك تجري السفن. لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه. طبعاً تعرف هذا المزمور. هل رأيت لوياثان؟» استبق مستشار الدولة آلبرتسهوفن، ذو الوجه قاني الحمرة، واللامع كالشحم الأبيض، لرنر ورد على زميله: «فريتسِه إنك مثل الإنجليز. نحن هنا اليوم نتحدث عن استعمار بحر القطب وأنت تقتبس من الكتاب المقدس. إن شياطين السلطة تخفي وجهها الحقيقي تحت قناع العدالة. هذه هي الميول الإنجليزية لتحسين الصورة أخلاقياً، وتزيين صورة السلطة السياسية

يبدأ عند توماس موروس. ماذا تسمون أنتم هذا؟»

«نحن نسميه سفسطة لغوية»، قال شولتو مستمتعاً بالملاحظة. علق الدكتور هان، الذي لم يلاحظه لرنر قبلاً، ويبدو وجهه تحت خطوط جراح بيضاء لم تندب جيداً كأنه وراء شبكة، هازئاً: «حق شعب يضع نفسه معيارا فوق البشرية».

رد شولتو: «الجميع يساهمون بهذا. أنتم أيضاً، جميعكم من هذا الرأي».

قال المستشار دونَر: «إن إنجلترا، بصفتها قوة بحرية، تقود ثورة ولا شك. السلطة على البر تقوم على المكان. المكان والسلطة، مثل القدرة وفمها.. مثل البنت وأمها».

هتف فريتسه: «حط القدرة على فمها. ولإنجاب البنت لا بد للأم من أن تتزوج أولاً يا أستاذي»، ثم التفت إلى السيدة هانهاوس: «أرجو المعذرة على هذا المزاح. لا بد من أنك فقدت بعلك قبل عهد قصير».

«من زمان!»، تدخل شولتو بهزء واضح. أراد دونَر أن يتابع ما بدأه من أفكار، ولكن الكلمة لم ترجع إليه خلال التوتر الذي بدأ من جديد ولهذا دخل مع لرنر في حوار ثنائي.

«إن جوهر السلطة حاضر في الواقع، ومعناه هو المكان. كثافة الجسم مكان، أي سلطة. وهذا تماماً ما ينتهي الآن. إن الشفافية اللانهائية للأمواج، ليست سلطة بعد، بل تأثير فقط».

«اليوم لا نفهم تحت تعبير المكان مجرد ذلك البعد العميق الخالي من أي محتوى قد يطرأ على الذهن. المكان هو اليوم حقل قوى الطاقات

البشرية، النشاط، الإنتاج». قيل هذا بصوت علا الضجيجَ العام والدكتور هان يمد ذقنه فوق الطاولة نحو النافذة. شعر لرنر بأنه يفهم للمرة الأولى ما معنى «خطاب النافذة». في هذا الوقت كانت على كل صحن كرة سوداء عليها جيليه في ورق الذهب. حين يعد الجيليه بالشوكة يظهر تحته جسم طائر صغير محشو بكمأة مفرغة مثل البيضة.

«آه، طير فيتامر على الطريقة الملكية»، هتف غيبرت تسان، الذي لم يشارك كثيراً في النقاش مثله مثل هارتكنوخ.

فقال دوغلاس: «لا، إنما فيتامر على طريقة روتشيلد. أظن أنها تعبر عن تقديس الذهب».

يلاحظ من يريد أن المجتمعين أكثروا من الشراب وخلطوه.

«الغازي الحقيقي هو من يعرف غنيمته أكثر مما تعرف هي عن نفسها». قال آلبرتسهوفن موجهاً نظرة نافذة إلى لرنر. وفعلاً وجه إليه بعض الضيوف كلمة أو أخرى، ولكنهم لم يتركوا له الجواب، وإلا لكانت ممكنة إقامة الحفل من دونه. كلا، فالفاتورة ذهبت طبعاً إلى حساب هيئة جزيرة الدببة الألمانية.

«كنا نستطيع العيش في فندق مونوبول عاماً كاملاً بهذا المبلغ»، همس في أذن السيدة هانهاوس عندما غادرا الفندق. كانت تترنح قليلاً.. يدها في قفاز شبكي، وشعر بالألم عندما ضغطت على يده.

نتيجة السهرة كانت باهرة. فبعد أسبوع وبإشارة من أنامل دوغلاس سلم ألكسندر أمه بروتوكول الجلسة مائة وسبعة وسبعين لمجلس الرايخ. وفيه خط أزرق تحت الجدال التالي: النائب الدكتور هان:

«لا أرى مناصاً من طرح سؤال قصير على السيد سكرتير الدولة عن الوضع الراهن لجزيرة الدببة». (مرح في القاعة). الدكتور غراف فون بوسادوفسكي فينَر، وزير الدولة، سكرتير الدولة للشؤون الداخلية، نائب مستشار الرايخ، المفوض بالمجلس الاتحادي: «أيها السادة، لقد لفت السيد النائب هان انتباه المجلس إلى جزيرة الدببة. أعترض على اللحاق به هنالك، فإنه سيأخذنا بعيداً».

-24-

لرنر يمارس السياسة الاستعمارية

منذ أن دخل السيد شولتو دوغلاس حياة لرنر، أصبح هو من يحدد وقع مجرياتها. قبلها كان لرنر يتشاور يومياً مع السيدة هانهاوس، يكتب مسودات رسائل، يطلعها عليها وغالباً ما يعيد صياغتها. كان يتصل بالسادة بورخارد وكنور والسيد فال في كولونيا، أقنع السيد مولمان والسيد الدكتور شراينَر بإجراء بعض التحسينات على معطيات تقاريرهما عن الجدوى الاقتصادية لجزيرة الدببة. إلا أنه منذ لحظة دخول شولتو دوغلاس في حياته وقعت كل الخطط والمسودات في اختصاصه. فهو الوحيد الذي يحق له التفكير ويُعلِم لرنر بالنتائج التي توصل إليها، ليس بأن يحاول إقناعه بإجراء تعديلات على مسوداته هنا وهناك، بل بلهجة آمرة. مثلاً أن يرسل إلى المستشار الاقتصادي غيبرت تسان تقرير الدكتور كنور ويغفل تقرير المهندس مولمان، دون أن يبرر سبب غض الطرف عن تقرير الأخير. والأنكى أن السيدة هانهاوس خاضعة كليا لأسلوب هذا الرجل في التعامل مع لرنر.

فحين يتلفظ دوغلاس بكلام ما على طريقته المعهودة في المطمطة والتأتأة ويتدخل لرنر فاقد الصبر لحمله على إنهاء كلامه، تضع السيدة هانهاوس إصبعاً على شفتيها مقاطعة لرنر بينما تصغي مسحورة إلى شفتي دوغلاس. ألم تأتِ تواً بكل إجلال على فطنة تيودور لرنر وطاقاته الحيوية؟ كأنها تريد الآن القول: «طبعاً، ومازلت أعتبرك هكذا؟ أنا

أجلك من دون قيد أو شرط، ولكن علينا أن نهمل هذا مؤقتاً حين يتحدث السيد دوغلاس»، مع أن الغموض الشامل يحيط بكل ما يخططه مستر دوغلاس لجزيرة الدببة.

ولاؤه المعلن في ذلك الصباح، الذي لا ينسى بكل ما فيه من ألم وفرح في فندق مونوبول، كان رأس المال الروحي الذي تتغذى منه سطوته على لرنر. ولا بد أن الأمر لا يختلف عند السيدة هانهاوس أيضاً، ولكن أحداً لم يعد يأتي على ذكر الشراء، «عطاء الاستيلاء»، الذي بادر به شولتو دوغلاس في ذلك الصباح، متحدثاً بصوت رفيع رخو، سرعان ما تحول إلى فولاذ مقسى. إذا لم يكن هناك خلاف على الثمن فلم لا ينهي البيع والشراء، فيدفع ويمضي في سبيله؟ لقد تقدم بعرضه.. قُبل العرض، وطُرح سعر أقل مما اقترحه دوغلاس نفسه، ووافق لرنر والآن ... الآن يتهرب بحجة اتخاذ المزيد من الإعدادات لإنهاء الصفقة.

سألته السيدة هانهاوس: «ما قصدك؟ لقد ربح وخسر شولتو الملايين في صفقات المستعمرات. إنه معتاد على أبعاد واسعة جداً». أبعاد الخسارة أيضاً!! كانت السيدة هانهاوس قد تعرفت إليه عندما كان يُحاكم. ومنذ ذلك اليوم أحب ألمانيا، وخاصة نهر الراين، وعلى هذا النهر مدينة فيسبادِن، حيث يقطن آلاف الإنجليز، والروس علاوة عليهم.

«يجب تعمير مدن في أرض بعيدة، وخاصة للأغنياء، من كل الأمم والأقوام، هويتهم هي رصيدهم في البنك، لا يسألهم أحد عن شيء آخر. هذه فكرة أعمل عليها حاليا. ومن ناحية الطقس، جنوب أفريقيا

منطقة ليست سيئة، ولكن الوضع السياسي عسير قليلاً». لم يكن السيد دوغلاس يشك أدنى شك في عزمه على استحواذ جزيرة الدببة، بل ربما كان موقناً بأنه استحوذها، وبذلك تحول لرنر والسيدة هانهاوس إلى موظفين لديه من دون توقيع على أي عقد.

هل هذا هو الواقع؟ منعت السيدة هانهاوس السؤال على لرنر، لأن «إثارة شولتو» خطيرة جدا. كانت تناديه باسمه الأول، بينما تنادي لرنر بـ«السيد لرنر»، أو في أفضل الأحوال «صديقي الطيب». ودوغلاس يناديها بلكنة إنجليزية «مدام». وهذا الخط ذو حدين، كأنه يحكي نكتة مبتذلة على حساب السيدة هانهاوس.

كما أن غدوه ورواحه ظلا سرّاً على لرنر. أحياناً، كان يحضّر لمفاوضات مع أهل كولونيا أو هامبورغ، ويغيب عن الجلسة. وحينها يضطر لرنر للحلول محله، بشرط الحذر التام من ذكر اسمه.

«لا أفهم لماذا مازلنا نبيع جزيرة الدببة أو حصصاً في مؤسستها، ما دمنا قد بعناها منذ زمن بعيد؟ إذا كان يتوجب علينا إيجاد مستثمرين آخرين، فيمكننا هذا من دون دوغلاس؟؟»، سأل لرنر.

«يمكننا أن نقوم بالكثير من دونه، يا صديقي الطيب، لكن معه تسير الأمور على وجه أفضل. ثق بي».

ولرنر لا يثق بأحد ثقته بالسيدة هانهاوس، فقد سيطرت عليه كلياً. كان يتبعها ولو أثقلت عليه هذه التبعية قليلاً، لكنه يشعر بالقلق، لأنها فجأة لم تعد السلطة العليا. وهي بهذا تقر بوجود سلطة أعلى منها (أم أنها كانت هكذا منذ البداية؟) والشخصية الحاسمة الآن غير مهضومة

لدى لرنر.

وفي الآن ذاته فتح ظهور شخصية جديدة أمام لرنر، مجالاً ظل مغلقاً عليه حتى الآن. فتعرّفه إلى العائلة في مقصورة القطار، مدير البنك كورس وعقيلته وابنة أخيه المتحفظة، كان رصيداً سرياً حافظ عليه لرنر بإرسال صورة فوتوغرافية، إلا أنه لم يمدد إليه يده حتى الآن. غريب: لم تأته بطاقة شكر على صورته. لكن ذكرى تلك النظرة الوداعية للسيدة المتبرجة كالطاووس تلغي كل شك من قلبه.

كان على اتصال مع السيدة الفريده كورس. فهل مصرف كورس هو الجوكر في نهاية لعبته؟

«لم أبتعد قيد أنملة عن جزيرة الدببة، كما لا يزال قلبي حراً»، كتب في رسالة فكهة راجياً أن تنال إعجاب السيدة الفريده كورس، فجاوبته برسالة هزلية وودودة. في آخر الرسالة كتبت ملاحظة متسائلة إن كان يأتي أحياناً إلى لوبِك؟ وهذه رحلة قد تكون نافعة، فمبدأ السيدة هانهاوس أيضاً هو السير في عدة اتجاهات.

في حياة لرنر لحظات يشعر فيها بأن القدر يقود خطاه. لم يرغب في اختبار صبر السيدة كورس طويلاً وأجابها بأنه سيكون في لوبِك في السادس عشر من تشرين الأول «لبعض الأعمال». السادس عشر من تشرين الأول هو اليوم الذي ستسافر فيه السيدة هانهاوس مع شولتو دوغلاس إلى شتوتغارت. لكن ليس هذا هو السبب الوحيد لتحديد هذا اليوم موعداً للزيارة. بل هدفه أن يعين تاريخ وصوله سلفاً، كي لا يبدو أنه يسافر لأجل السيدة كورس فقط. وإذا لم يوافقها هذا التاريخ،

سيتمكن من تحديد موعد آخر، بأسلوب أكثر لباقة. ما أن وضع الرسالة في صندوق البريد، حتى دعاه شولتو دوغلاس بإلحاح للسفر إلى فيسبادن والالتقاء به في فندق روزِه؟ لم يقم دوغلاس بتحضيرات تشريف لزيارة لرنر، بل استقبله في الحمام التركي تيرما، لافاً جسمه الأبيض بمعطف تركي وعلى رأسه عمامة كي لا يصاب بالبرد.

نعق بمجرد أن رأى لرنر: «جاء الفرج» دون أن ينهض من مقعده الوثير لاستقباله وأردف: «أمير ميكلنبورغ، الرئيس الفخري لجمعية المستعمرات الألمانية، طلب حضورك لسماع أخبار جزيرة الدببة. إذا تمكنا من كسب الأمير، فقد ضمنا كامل العملية». ادعى أنه قام مع الأمير برحلة صيد في تاغانيكا ولهذا تربطهما أخوة الصيد، لكن الأمير لن يصدق منه كلمة واحدة بشأن جزيرة الدببة.

«غداً صباحاً، في قصر شفيرين، المحاضرة في الفراك، طبعاً الحلة الرسمية أفضل، وخاصة في مثل هذه الدوائر، إلا أنه ليست عندك حلة. السادة الموقرون لا يحبذون سماع محاضرات عن ضم الأراضي من أفواه العامة المدنيين. أيها الشاب، عليك أن تكون مقنعاً».

في فرانكفورت تسلم لرنر من السيدة كورس برقية تعبر فيها عن حزنها وأسفها لعدم تمكّنها من استقباله في السادس عشر، لأنها كانت مدعوة في هذا اليوم إلى حفل تنكري لدى المستشار الاقتصادي غراوتهوف في شفيرين. في هذه اللحظة اقتنع لرنر بأن الرحلة ستجلب له الحظ والنعيم.

كان لرنر قادراً على إلقاء موضوع محاضرته غيباً. أما الحسابات

الناتجة من مختلف تقارير الخبراء في شؤون المناجم، فقد تعلم أن يخفيها ببراعة في مؤتمرات السادة والسيدات، الذين تجمعهم السيدة هانهاوس حوله. كما أن أحداً لم يضع هذه النقطة موضع التساؤل. واستغرب هو ذاته من عدم إبداء أحد شكوكاً في المعطيات التي يدلي بها عن هيئة جزيرة الدببة. بدا له أن الناس لا يهمهم إن كان على الجزيرة احتياطي كبير من الفحم وإن كان سهل الاستخراج والشحن فعلاً كما يزعم، بل يكتفون عادة بالاستماع إلى محاضراته ببالغ الاحترام. لكن أحداً لم يناقش الموضوع من أصله. كما أنه دهش من سرعة تقبل بورخارد وكنور مبدأ الهيئة، لكنهما للأسف سرعان ما أبديا الندم واحتجا ويفضلان الآن الانسحاب من الموضوع برمته.

الضباب الذي يحيط بالجزيرة معظم أوقات السنة، كان يحيط الناس بما يشبه الشمع، وهذا الشمع يجعلهم ذاهلين واهمين. وربما كانوا يذعرون من فكرة وجود فحم على جزيرة الدببة تحت ركام الثلج وصفائح الجليد. شولتو دوغلاس كان محقاً حين قال: إذا أبدى الأمير اهتماماً بجزيرة الدببة، فسوف يزول رعب التجار الألمان من المخاطرة بأموالهم في «مكان سائب»، فجمعية المستعمرات الألمانية التي يرأسها الأمير فخرياً تساعد على إسدال غطاء سياسي على المصالح الاقتصادية، كما يقول رجال الدبلوماسية.

في القطار وضع لرنر مخطط مقدمة محاضرته على أوراق أخذها من الفندق. فهو لم ينس منذ أيام المدرسة أن مواضيع الإنشاء يجب أن تكون لها مقدمة وصلب الموضوع وخاتمة. أما من ناحية صلب الموضوع فهو

قادر على ارتجاله. وكم سيكون حديثه طلياً، حين يتذكر أنه سيلتقي بعده الفريده كورس.

«سموك»، كتب ثم شطب الكلمة وبدلها بـ«سموكم»، فيحتمل أن تكون الأسرة الحاكمة كلها حاضرة. «نزولاً عند رغبة سموه، الأمير يوهان آلبريشت، بإلقاء محاضرة على أسماع سعادات أعضاء جمعية المستعمرات الألمانية هنا في شفيرين، جئت إليكم مؤمناً بأنه لا يحق لي الإحجام عن هذا الواجب الشريف، بالرغم من أن مهلة اليومين، وأنا في عهدتي خلالهما أعباء أخرى، مرهقة ولا تقبل التأجيل».

أعجب أشد الإعجاب بهذه السطور حين أعاد قراءتها. ففيها يظهر أنه رجل الأفعال لا الأقوال. كما أن السادة في المراتب العليا سيفهمون أن لرنر ما كان يتحرق على هذه الدعوة، بل إنه استقطع لأجل هذه الزيارة وقتاً ثميناً كان سيخصصه لأعماله المتزاحمة.

«ولهذا فإنني مرغم من الناحية الشكلية على أخذ الكثير من وقت جمعكم الموقر. إلا أن افتراضاتي والأرقام الناجمة عن جهود أربعة أعوام (أم الأفضل أن يكتب أعواماً كثيرة! الرقمان غير صحيحين لكن كلمة كثير تولد انطباعاً أقوى من أربعة، كما أنها ليست محددة بدقة مثل الأعوام الأربعة التي اتفق عليها مع السيدة هانهاوس) من العمل الشاق على موضوعي، مكنتني من الدفاع عنها وتمثيلها أمام من أشاء في كل دقائقها. «المصالح الاقتصادية الألمانية على جزيرة الدببة»، ينبئ هذا العنوان بالكثير من الثقة بالنفس (كلا، شطب الكلمة فوراً، كي لا يعتاد الجمهور على كلام قد ينقده عليه)، فللعنوان رنين عال. ليكن، أرجو

أن أكون في ختام محاضرتي قد أقمت الحجة على وجود مصالح ألمانية عليا في بحر القطب الأوروبي وضرورة تقدم الاستغلال الاقتصادي للأراضي القطبية، بعد أن أنجزت معظم الأعمال العلمية فيها كما يبدو. كما آن الأوان لتضع جمعية المستعمرات الألمانية هذه النقطة على جدول أعمالها (هل في هذه الجملة إلحاح أكثر من اللازم؟ أو فظاظة؟ ألا يفترض به أن يقول لمثل أولئك السادة «مع رجاء سيادتكم بمزيد من الدراسة»، «وددت فقط أن أتقدم إليكم بهذا الاقتراح» أو غير ذلك من العبارات الورعة، التي تدع للأمير مجالاً للانسحاب ولا ترغمه على قول نعم أو لا؟ سيقوم بتشذيب هذه العبارة، وإضفاء مزيد من الطلاوة عليها، دون أن يضعف من حدة طلبه).

«إن العلاقات السياسية الاستثنائية، السائدة اليوم على الأراضي القطبية السائبة، تسمح بإجراء أعمال مشروعة، سواء من أي طرف كان (قصده روسيا ممثلة بالقبطان آباكا) لدفع الحكومة الوطنية إلى ضم كل الأراضي أو بعض منها. ليس السياسة، بل أفضل الإطلالات على النتائج السياسية عطفاً على استعمار محتمل تال لتلك العمليات التي يقدم لها العون بإقامة المرافق المناسبة ((«المرافق المناسبة» المقتبسة من رسالة مستشار الرايخ تحولت إلى عبارة راسخة في قاموس لرنر) والبرهان على فوائد ريعها» (هدفه القول: لا تخافوا يا سادتي من السياسة، فأنتم لن تُدخلوا الإوزة إلى كوخكم إلا بعد أن تسمن وتستعد للذبح. كانت السيدة هانهاوس واثقة بأن هذه الحجة ستخلب لب الأمير وأكد عليها شولتو دوغلاس بإشارة من أصابعه المتهدلة من يده الممدودة).

«أكثر مما في أي مكان آخر، يسري المبدأ القائل: على الراية أن تتبع التاجر، مع أني، أود أن أضيف هنا ...».

هنا كان عليه النزول من القطار. ولم يجد بعدها ضرورة لإنهاء محاضرته. وعوضاً عن هذا حلم بلقائه بالفريده كورس. سيقام الحفل التنكري في فيلا على البحيرة. ينزل السيد كورس في فندق، إلا أن السيدات سيحللن ضيفات على صديقة وسيقضين عدة أيام بعد الحفل في فيلا على البحيرة. يبدو أن كل حياة شفيرين تجري حول هذه البحيرة.

في الفندق وجد لرنر في انتظاره خبراً، مفاده أن السيد أمين الخزينة فون انغِل سيرسل عربة تقله الساعة السابعة. عندما ارتدى لرنر الفراك، فكر أن الفريده أيضاً تتزين للحفل في الوقت ذاته، لا تفصلهما إلا عدة مئات من الأمتار. كان حفلاً للكواكب والآلهة. سيذهب السيد كورس في ثوب الصياد اوريون، والفريده كورس في ثوب لونا.. أعلن النادل عن وصول العربة.

توجه لرنر إلى قصر المرمر المبلل برطوبة الخريف، حيث المصابيح متقدة، وكأنها أحجار كريمة.

لم يأخذ حارس القصر بالقبعة المذهبة علماً بلرنر. استقبله أمين الخزينة فون انغِل مرتدياً الزي الرسمي، وحاملاً المفتاح على درزة بنطاله، على سلم عريض عال. سارا في قاعات عالية، مزينة بلوحات متراصة. «الملك تيودور»، تذكر لرنر بغتة، بينما يفتح الباب على مصراعيه أمامه ويغلق وراءه. ألم يكن هذا بداية حلم لا يسود فيه شولتو دوغلاس، لا

بورخارد وكنور، لا اوتو فال ولا أمير ميكلنبورغ على جزيرة الدببة، بل هو، تيودور لرنر؟

-25-
أجواء شفيرين

ألقى لرنر خطابه في الصالة الزرقاء لقصر شفيرين. الفضاء غير معين الهندسة.. الموزع في مخارج كثيرة ولا يمكن تسميته قاعة لولا أنه يثير في الخيال صورة خلاء يرتد فيه الصدى. الصالة الزرقاء محشورة بالأثاث فلا يمكن السير فيها خطوتين اثنتين دون أن يرتطم السائر بقطعة أثاث. كنبات زرقاء مطرزة، أرائك زرقاء بأهداب وشراشيب، مقاعد منجدة زرقاء، كراسي خشبية بلا مساند، مساند أقدام، طاولات، طُوَيلات مغطاة بالدمقس والأزرق أو السجاجيد الفارسية الزرقاء، يبلغ عددها حوالي السبعين، مظلات مصابيح وكريات زرقاء تشكل سلسلة تلال صغيرة في المساحة الشاسعة. وإذا اعتبرنا الصالة الزرقاء مسرحاً، على غرار لرنر، فإن الصعوبة الأساسية تكمن في تقديم فكرة جيدة بين غناها الجمالي، حيث لا يتجاوز دورها دور لبيسة الأحذية. السيدات والسادة الخمسة عشر ينبثقون فرادى من بين المخدات الوثيرة. كما يحيط الجواهري قطع الزينة بعلب مغلفة بالمخمل، كان حول كل وجه نبيل في الصالة قماش متموج هفهاف. كان الأمير لطيفاً ومحسناً. الهدف من الجو الخاص هو أن يقول الخطيب كل ما يريد قوله دون أن يقرأه غداً في الجريدة. الحلقة الصغيرة ستشغل رؤوسها بأفكار لم تنضج شروطها السياسية بعد، ولكنها قد تنضج على حظوة لجنة المستمعين الصغيرة.. شوارب بيضاء جميلة تتموج في الأزرق، شعر مستعار

جميل على نمط ولية العهد سيسيل يرتفع بين الشوارب. تقديم الشاي إشارة إلى جدية الوضع وخطورته. على البوفيه يمزج كل فنجان من أباريق فضية وسماورات عملاّقة بكامل البراعة، ثم يتجه نحو أريكة ويهبط على إحدى الطاولات الصغيرة.

لم يشعر لرنر بأي نأمة قلق. ألهمه صوت داخلي بضرورة الإشارة إلى المصلحة السياسية الألمانية في بحر القطب الأوروبي من دون صقلها بشدة. فهذه الحلقة تفهم المصلحة السياسية بداهة. لن يذكر محاسن إصرار ألمانيا على حقها في جزيرة الدببة، من دون تدخل الروس والإنجليز إلا في جملة عرضية. «اللبيب من الإشارة يفهم»، أو ما شابه. واللبيب يفهم من أعمدة الجرائد وخطب النوافذ السياسية.. يطالب بالخصوصية. ستكون النتيجة جيدة إذا توصل الأمير وضيوفه من أنفسهم إلى فكرة وجوب ضم الجزيرة في ظروفها الآنية. الأجمل أن يبدوا رغبتهم في توظيف رؤوس الأموال على الجزيرة من دون قيد أو شرط ويمارسوا ضغطاً سياسياً لتأمين هذا الالتزام. فجأة خطر على ذهن لرنر أن شولتو دوغلاس يخدم سرا مصالح الأمير، وبينما هو يتحدث برزانة واعتدال تصور أن الأمير يسعى إلى ضمان موافقة الجمهور كي يأمر بتنفيذ ما قرره سلفاً مع أخيه في الصيد شولتو دوغلاس. لم يكشف دوغلاس أوراقه أمام لرنر ولكنه اضطر بالنتيجة إلى إدخاله في اللعبة، وربما كانت هذه الفرصة الأخيرة لعدم إزاحته نهائياً من هيئة جزيرة الدببة. غريب، أصحاب المصالح الحقيقية أخطر دائماً من الأصدقاء المكتسبين الذين يرفضون التعاون بالنتيجة.

كان تيودور لرنر على مطلق السمو والثقة بنفسه، بحيث أدركه الشعور بأنه يتحدث في الصالون الغارق بطوفان من القماش المطرز عن عالم صيادي الفراء.. الآذان مشنفة، تبرز تحت أغطية الرأس.. الجبهات منحوتة ينعكس عليها اللون الأزرق.. تحيط به في نصف دائرة، بينما يصور جزيرة الدببة «مخزناً لشراء وتحضير جلد الحيتان، والفراء، ولحم الأيائل وريش البط». يمكن هنا شراء مجمل الفراء على قمم شبيتسبِرغِن، دبغه مؤقتا «في محلات مناسبة»، حفظه وشحنه من ثم إلى أسواق الفراء الكبيرة في «لايتسيغ» وسانت بطرسبورغ.

شم رائحة الدم والجلود الفائحة من القاعة المترعة بعبير الشاي. انبعثت فيه روح الدب العجوز.. روح التاجر المغامرة.. ليس تاجر الفلفل، إنما سليل الفارس الجوال، الهياب، الكاسر، الذي لا يعرف التردد. قام الأمير.. نهضت حاشيته من دون تكلف، والتمت على نفسها، بينما يأخذ صياد الوحوش ذراع لرنر.

«لقد أثارت طروحاتك أشد إعجابي.. لم يبالغ مستر دوغلاس كثيراً. سمعت أنه انتقل اليوم للسكن نهائياً في فيسبادن، أليس كذلك؟ لن يعود بعد مغامرته الحمقاء تلك إلى لندن؟» لرنر يفهم طبعاً أن الأمير يعترف بجميل السيد دوغلاس، فهو مدين «للسيد دوغلاس» بأجمل أسبوع في حياته. «ذلك الجو الحر تماماً للصيد، لا يراقب أحد كل حركة نقوم بها، كما يحدث عندنا ويحاسب عليها. راحت تلك الأيام، راحت».

لم تشِ نبرة الأمير بالحنين والتأسف فعلاً، إنما ببعض الفكاهة. ولا يحتمل أن الأمير يخلط بين تانغانيكا وميكلنبورغ.. بين بحيرة فيكتوريا

وبحيرة شفيرين، أو بين رفقة الأميرة العجوز وبين الجواري التي جمعها حوله شولتو دوغلاس. هل شعر بأدنى رغبة في هذا الاتجاه؟

قال الأمير وفي نظرته شدة وأمر: «اسمع أيها الموقر، عليك أن تخبرني في المستقبل أيضاً بكل خطوة تخطوها على جزيرة الدببة. لا يجوز أن أظل جاهلاً في هذه المسائل. لكن فقط إذا كنت ترى هذا صحيحاً، فأترك الأمر لك. لكن عليك أن تعرف: نحن هنا، في الأعلى، فضوليون وأنت أثرت هنا مساء اليوم مزيداً من الفضول». شردت عيناه، ثم توجه بغتة إلى لرنر، كأنه استيقظ من النوم.. ضرب بيده على جبينه (حركة مسرحية جميلة) وقال هامساً، بحيث لم تفهم الحلقة القريبة كلماته: «هل سمعت باسم الجنرال فون بوزَر؟ لو أنه سمع اليوم ما قلته! أدلي لي بهذا الصنيع الجليل وأرسل مسودة خطابك، بتفويض مني، إلى بوزَر. بوزَر هو الرجل المناسب، وإلا لخاب ظني كثيراً».

سُرّح لرنر. رافقه أمين الخزينة فون انغِل عبر الحجرات الفارغة إلى العربة. سُلِب هو الآخر بالطوفان، الذي يسبح فيه كل البشر والفناجين في الصالة الزرقاء. عاش تجربة جليلة، لا تدرك. للمرة الأولى تغادر جزيرة الدببة فضاء الشك والضيق والتساؤل. هذا هو المدار قرب مركز السلطة. تقشر عنه كل ما كان مرتبطاً حتى الآن باكتشاف جزيرة الدببة: السيدة هانهاوس، المهندس أندريه، السيد شوبس، فقد كان سعيه الدائم إلى استعمار جزيرة الدببة وحمل القيم والعقل التجاري إلى حدود الأرض المعمورة. ربما قرأ الأمير على صفحات الجرائد الألقاب المستهترة «أمير الضباب والمغامر»، «الملك تيودور» (لن يعلم لرنر هذا

قط، فرجل بتلك العظمة لا يقتبس من ورق الجرائد)، لكن لرنر غير مطلع على أساليب كلام الملوك والأمراء. بنظرته السامية الموروثة أباً عن جد، كشف الأمير جوهر القضية وأزال عنه القشور السميكة. حصل لرنر بعد محاضرته في الصالة الزرقاء، في أجمل غرفة رآها في حياته (كما قال لنفسه) على إرشادات، كما هو عهد الشخصيات السامية. غادر الصالة بعد محاضرته محملاً بالأوامر، فالحاكم لا يفهم الإشارات فقط، بل يقرر أيضاً. الجنرال فون بوزَر ليس مجرد عسكري سابق قريب إلى قلب الأمير، بل هو القوة المحركة في جمعية المستعمرات. وحين يدلّه الأمير على الجنرال، لا يعني هذا سوى أنه يود رؤية أفعال.. نعم، أفعال.

حين وصل لرنر إلى فندقه دقت الساعة التاسعة. ولايزال أمامه الكثير من الوقت حتى تغادر الفريده كورس الحفل التنكري في الساعة الواحدة وتذهب إلى صديقتها في فيلا فالتار. بعد ما عاشه من تشويق، استيقظ فيه النهم إلى الطعام. أمر بإحضار الطعام إلى غرفة خاصة في مطعم الفندق، وطلب الحساء والشواء. لم يغير ملابسه. جميل أن يلتقي بالفريده كورس في الفراك وهي في ثوبها التنكري، حارة من أثر الرقص ودائخة بالنبيذ. بأي قوى هائلة سيقابلها بعد قضاء الساعات الرائعة في القصر. لن يكون ساعياً في طلب الرحمة، بل فارساً مغواراً يرفعها على فرسه ويطوف بها البراري والغابات.

شرب لرنر بيرة كبيرة. المطعم مصمم على هندسة ملاحق معامل البيرة، كما في الجنوب، في بافاريا، كي لا ينساها أهل الشمال. المدينة

ميتة. فكل ما فيها مجتمع اليوم في القصر أو في الحفل التنكري الذي دعا إليه المستشار الاقتصادي غراوتهوف. هذا المغناطيس لم يترك للحانة حتى شهاباً يسقط من السماء. فقد دعي كل أبناء شفيرين إلى الحفل، سوى سفلة الناس القاطنين في أكواخ حقيرة على أطراف المدينة. ألا يفترض بلرنر أن يتصل بالسيدة هانهاوس؟ كان متحرقاً ليروي أنباء نجاحاته لأي كان. هل يعرف شولتو كيف احتفى به أهل القصر؟

«عليك أن تخبرني في المستقبل أيضاً بكل خطوة على جزيرة الدببة ... لا يجوز ... مستقبلا ... أترك الأمر لك ... أدلي لي صنيعاً وأرسل أوراقك ..». هذه هي اللغة التي كانت رد فعل على عبقرية جزيرة الدببة. كل ما حدث يراه، ويسمعه لرنر كأنه مازال في الصالة الزرقاء. طبعاً يتوجب عليه تنفيذ الأوامر بأقصى سرعة. بعد غد ستصل جميع المستندات إلى يد الجنرال فون بوزَر، نزولاً عند توصية من أعلى المناصب. «نزولاً عند أمر صاحب السمو أبعث إليك ..». هكذا ستبدأ الرسالة.

ثم ماذا؟ استعاد لرنر كلمات المساء حرفاً حرفاً، بحيث طغت الحروف فجأة على الجو الذي قيلت فيه. لكن ماذا في يده فعلاً؟ ما الذي سيقوله بالضبط للسيدة هانهاوس؟ شعر فجأة بأنه في حلم، لا يوفق فيه أمر بسيط جداً، لأن مكوناته تنزلق من بين يديه؟ هل فسر مجريات القصر خطأ؟ يقيناً لن يُدعى كل ألماني في رأسه أفكار ساذجة إلى الصالون الأزرق في قصر شفيرين ليلقي محاضرة أمام أصحاب السمو والسعادة. الدعوة بحد ذاتها علامة أكيدة. لكن على ماذا؟ لا. كفّ

عن تفنيد هذه الحالة الرائعة. كان خطابه رائقاً، وهو فخور بنفسه. كان الأفضل للسيد كورس أن يسعى للحصول على دعوة إلى هذه المحاضرة بدل الذهاب بسيداته إلى الرقص. غادر لرنر غرف الفندق التي لا تحدث فيها إلا الأحلام والمحادثات الذاتية. وازنت السياسة الواقعية كلماته. وفي ذلك العالم لا يوجد ما قد يدعوه الى الشكوى، فقد استقبلوه أحسن استقبال. أخذ الأمير ذراعه وقال له: «أيها الموقر». هذه الكلمة أيضاً تدخل كفة الميزان. شعر بالحرارة.. انصهر القميص الصلب. سيلتقي بالسيدة كورس كأنه قادم بدوره من حفل راقص، وهذا لا يسيئه. يجب ألا تظن أنه لم يفعل شيئاً طوال الوقت سوى انتظارها.

خرج تيودور لرنر.. وصل إلى البحيرة عبر طرق جانبية.. ابتعد عن القصر. وكلما ابتعد عنه أكثر كبر حجم البناء المرمري، كديكور مسرح في ضوء القمر. ظهرت أمامه فيلل لها أفنية على البحيرة.. شرفاتها الزجاجية تطل من خلف السياج على الشارع، ولها ممرات تؤدي إلى البحيرة.

كانت لمنزل آل فالتار ممرات تتيه. الفناء طولاني. المصابيح مطفأة، والمنزل مختف خلف الأشجار.. الظلام داكن. وصل لرنر إلى البوابة الجانبية الصغيرة، التي وصفتها له السيدة كورس. نعم، لم تكن مغلقة ولم تصدر صريراً. من هنا يصل سكان المنزل إلى البحيرة من دون خروج من ظلال الأشجار الباسقة. رغم طول الفناء كان عليه التقدم عدة خطوات فقط فوق الدرب الترابي.

انتفض لرنر عندما واجه فجأة جملون كوخ الزوارق والاستحمام،

المصبوغ باللون الأبيض والمتلألئ في الظلام.. ضغط على المقبض.. فتح الباب.

«سيدتي المحترمة؟! همس. لم يأته رد. خرج إلى الحرش. لن يتقدم خطوة واحدة في الكوخ المظلم وحده. في السماء كوكبة الجبّار وهلال نحيل.. من البيت تصدر أصوات.. نساء يضحكن ضحكات خافتة. ثم ظهرت له هيئة. في العراء على العشب وقفت أمامه امرأة في ثوب متلألئ تحمل في يدها صولجاناً على رأسه قمر فضي.

-26-
سيادة البعيد

على درب حجرية سالكة، إلى بوابة قلعة تقع في مكانٍ بعيدٍ وضع رأس الحصان فالاداً، الذي لم يكف عن الكلام حتى بعد قطعه. وفي شفيرين هدم ذلك القصر الشبيه بتلك القلعة وشيد مكانه قصر حديث، غلف بالمرمر.. تتضاعف أعمدته في البحيرة التي تحتلها طيور البجع. فلا غرو أن يسحر لرنر بمقر الإمارة، الذي لا يوجد فيه مكان لرأس حصان يشيع أنباء سيئة عن الحاكم الشرير، فقد امتنع حكام ميكلنبورغ منذ زمن بعيد عن ارتكاب الظلم أو التفكير فيه. ورغم هذا كانت بين الحجرات المائة حجرة أثيرة إلى قلب الأمير، امتلأت بروؤس الحيوانات التي تراكمت منذ أن خرج الأمير، الهرتسوغ يوهان آلبريشت، إلى رحلات صيد في السافانا وغابات شرق أفريقيا. فعلى الجدار فوق الموقد نصف أسد، كأن الطلقة القاتلة وهبته القدرة على اختراق الأسوار. ألواح الخشب تحمل كل ما يمكن تخيله من رؤوس الغزلان. فوق نظرة الظبي، الذي مازال خائفاً ونفوراً (العيون الزجاجية توحي بشيء من الروح) ثقوب فارغة. حولت القرون إلى مفاتيح لسدادات النبيذ، شذبت وقلمت في خناجر.. صلبت وخرطت وتجمع عليها الهباب. إلا أنها جميعاً كبيرة. كل غنيمة علامة على نمو لا يتوقف، في وجهه ملامح البراري. أسنان الفيلة الصفراء تشكل بوابة تحتها صندوق دقت فيه مسامير فضية وفيه زجاجات من مختلف أصناف المشروبات.

ورغم الرفاهية الحضرية فإن لحجرة الصيد ملامح الخيمة، ولكنها خيمة أمراء. أربعة نمور تفتح أفواهها على ارتفاع الكاحل. والأرض خلف رؤوس الحيوانات الكاسرة ممهدة، فقد اختزلت الحيوانات إلى جلود. وإذا ما قرأ الأمير في الغرفة الأثيرة إلى قلبه خبراً لا يسره، رمى الورقة في سلة المهملات التي كانت يوماً قدم فيل. كل الموجودات تذكر برحلات الصيد التي لا تنسى في الصحراء الصفراء الجافة ووسط الغابات الخضراء والمروج الرطبة بين مستنقعات ميكلنبورغ. بعد أن غادر لرنر، ارتدى الأمير ثوبه المنزلي، من دون نياشين، وراح يتأمل في البجع البعيد، ورأس فرس النهر القريب بقسماته الرخوة كقسمات الخصيان ويفكر بالسؤال الذي طرحه أمين الخزينة فون انغِل بعد محاضرة لرنر، مبدياً كثيراً من الارتياب.

هل كان السيد تيودور لرنر جنتلمان؟ لم يكن هذا متن سؤال أمين الخزينة، ولكن الأمير اختزله في هذه النقطة. لقد تعرف في أفريقيا إلى عدد لا يحصى من الإنجليز. كانت لقاءات جذابة، ولكنها في الآن ذاته مقلقة للنفس. ما الذي يبث تلك الثقة المطلقة في نفوس أولئك الإنجليز؟ صحيح أن أدبهم الظاهري لا يخفى عندما يخاطبون الأمير بلقب «سايِر» وهم يدسون أيديهم في جيوب بناطيلهم، إلا أنه غالباً ما يختبئ خلف قناع الأدب الجم ميل واضح إلى الصلف. فهم يتنقلون في أفريقيا كأن كل ما فيها ملكهم، حتى لو كانوا في مستعمرة ألمانية. أفريقيا وآسيا كانتا ملاهيهم البديهية. وكأن الحضارات القائمة منذ العصرين الحجري والبرونزي في أفريقيا، والحضارات الراقية لدرجة الجمود في

آسيا، ما كانت تنتظر سوى أن تدوسها أقدام الإنجليز، وأن تديرها عقول الإنجليز، وتنهبها أيدي الإنجليز. ربما كان المتاع الإنجليزي، وأسلوب الحياة الإنجليزي ينتشران أفضل تحت شبكات البعوض الممدودة في أفريقيا. ربما يجب أن يصب الويسكي من يد ولد داكن السمرة وتمتلئ أحواض الاستحمام المطاطية على صراخ القردة وزعيق الببغاء. سواء ارتفعت قبعات القش على رؤوس قبائل الزولو أو الشيكارا في سماء أفريقيا العاصفة، كنت ترى قربهم ضابطاً أو مبشراً إنجليزياً يرسمهم بالألوان المائية. لدى الأمير ألبوم مليء بتلك اللوحات المائية، التي رسمها الكابتن آرثور بوشامب، اسم لا يعرف الإنجليز كيف ينطقونه. ومن يصعب النطق باسمه يجد احتراماً بالغاً، لم يتمكن الأمير الألماني من فهم سره.

ثم ما معنى جنتلمان، الذي لا يتوقفون عن الحديث عنه؟ من الجنتلمان؟ هل كان هو، الأمير، جنتلمان؟ يا له من سؤال! الأمير أمير وهذا يكفي جواباً عن كل سؤال. أم لا؟!! جنتلمان، الذي يقدره الإنجليز عالياً، حيلة. الإنجليز وضعوا هذا المعيار ووافقهم عليه العالم أجمع بكل بساطة. عوض التفكير في الجدوى الواقعية لمشاريع السيد تيودور لرنر على جزيرة الدببة، جلس أمير ميكلنبورغ متفكراً في ما إذا كان لرنر جنتلمان أم لا.

لكن السؤال لم يأت عبثاً. حيث إن اقتحام لرنر للعواصف الثلجية للوصول إلى أرض سائبة، وإعلانه بكل بساطة أن هذه الأرض ملكه، بعض أوصاف الجنتلمان. الجنتلمان الإنجليز أيضاً يفعلون هذا. هل

سيجرؤ الأمير يوماً على إعلان أن أرضاً غريبة ملكه، والأكثر غرابة أن يعلن هذا شخص في أرض سائبة (أن تأخذ شيئاً لمجرد أنه ليس ملكاً لأحد!).

لكن الجنتلمان يفعلون هذا بالضبط. كانت لهم آلاف العادات المهمة، كالشاي والحلة الكاكي والكريكيت ولكنتهم المسلية ويمارسون هذه العادات من دون رادع حيث حلوا، مؤكدين بذلك حقهم في جميع الأراضي التي يطؤونها. وربما ما كان لهم إبقاء تلك الإمبراطورية العالمية تحت أحذيتهم الطويلة بوسيلة أخرى. في العالم لا توجد أعداد كبيرة من السادة على غرار الأمير. الأمير أمير، حفظ هذه الجملة منذ نعومة أظفاره، وتماهى بها كما تماهى يهوه بربوبيته. سيان إن كان الأمير يستخدم سكين الصيادين أو يتقزز منها (وكان يستخدمها)، إن كان يرتدي حذاء بنياً في المساء (منعه من هذا بوتس، خادمه)، إن كان يشرب النبيذ الأحمر أو البيرة (ويشرب الاثنين بمتعة عالية)، فهو يبقى أميراً. المظاهر الرشيقة لن تضيف قيد أنملة على سمو دمه الأميري الألماني أو تنقص منه. حتى وإن كان كافراً أو قاتلاً، فإنخ يظل إميراً. (كان له أيضاً أن يتحول إلى الكاثوليكية، فليس لأحد أن يمنعه، لكنه في هذه النقطة ليس واثقاً جداً). لكن لأجل تأسيس إمبراطورية لا يكفي وجود عدة ديناصورات أميرية (كما يسمي نفسه بكل سرور)، بل يحتاج إلى الآلاف، ربما إلى مائة ألف سيد، وعلى طبقة السادة هذه أن تتوسع قليلاً لتشمل الطبقة الوسطى وكذلك صغار البرجوازيين، وذلك لكي تتم السيطرة على كل أولئك الجنود الهنود والعساكر الآسيويين والمماليك

والخيالة في الجزائر وشمال أفريقيا والشَربا، سكان الهمالايا.

وهنا كان الجنتلمان في مكانه الصحيح. يلقَّن الرجل (أي رجل كان من العامة) ستمائة قاعدة سلوكية ويصبح بعدها جنتلمان، ثم يشحن الجنتلمان على ظهر سفينة، وينقل مع بيانو وشبكة لصيد الفراشات وطاولة لعب خضراء إلى الأوقيانوس، وحيث يحل، يجعله قطعة من إنجلترا. كل من ترك الجامعة، كل من راكم فيها دروساً تنبئه بأن موقعه المتواضع في الحياة لا يحتمل، يركب ظهر تلك السفن، ويكون فوق هذا فخوراً بفشله العلمي. وفي الأمسيات الطويلة يلعبون لعبة اجتماعية ممتعة: هل يتقن الحضور جميع القواعد الستمائة. من يرتكب خطأً واحداً ليس جنتلمان ويخرج من اللعبة.

هذا العالم كان مسدوداً في وجه الألمان إلى الأبد. أم لا؟ ألا يترجرج الجنتلمان الطامع بالسيادة، الذي يستنسخ يوماً إثر يوم، على اليابسة أيضاً؟ هل السيد تيودور لرنر أول نموذج للجنتلمان الألماني؟ أليس بوشينغ pushing بعض الشيء على هذه الغاية؟ ارتدت على لسان الأمير الكلمة الإنجليزية سهواً. لكن هل يوجد شخص أكثر بوشينغ من المستر شولتو دوغلاس، وهذا، حسب المسموعات، جنتلمان؟ في كينيا كان مستر دوغلاس يحمل على محفة، على الأقل هناك صورة تريه محمولاً على الأكتاف. لكن على جزيرة الدببة لا توجد محفات. صحيح أن لجنة الاستقبال هناك ترتدي الفراك، ولكنه فراك ينمو على جسمها: البطاريق التي سرد عنها السيد لرنر أشياء مسلية. إن صيد البطريق ليس من خصال الجنتلمان بأي حال من الأحوال. والسيد لرنر نفسه

يستنكره. الحيوانات المذعورة، التي لا تجيد السير على اليابسة، يقتلها البحارة الأجلاف بالعصي، بينما ينظر إليهم أبناء نوعها عاجزين. ما يشجع على جزيرة الدببة هو موقعها الجغرافي. فهي بعيدة جداً، ولكنها لا تقع في مناطق يرغم فيها الألمان على حب الأغراب، كما لاحظ الأمير في تانغانيكا.

«نستأهل، ليس لنا ما نفعله هنا»، همس له ليلاً أحد مواطنيه. لكن في الشمال كان الفايكينغ قد غزوا الأرض، «آخر الدنيا» الذي يبدأ بالنسبة لسكان منطقة البحر المتوسط عند حدود ميكلنبورغ. وماذا لو وضع قريباً فراء دب القطب عند جلود النمور المتثائبة إلى الأبد؟ لم يكن الأمير ينوي السفر بنفسه إلى الأعالي، فعظامه تؤلمه في البرد. لكن المستر شولتو دوغلاس ذكر فراء دب القطب وكأنه بين يديه والسيد لرنر دوّن في كتيبه المغلف بجلد التمساح، اسم دب القطب بقلمه المذهب. بماذا كان السيد فون انغِل يريد تذكيره؟ هذه كلها أمارات مهذبة، حبيبة إلى القلب.

-27-

القفزة العالية لزوجة مدير المصرف

على عشب السفح، كانت السيدة كورس فاتنة الجمال. جمال سام، رهيب. ولما كان غريبا لو أنها بدأت الغناء. وحقاً كانت مشاعرها ملتهبة كي تطلق أغنية الغضب والثأر على غرار ملكة الليل. كانت ساكنة كالتمثال. لا لتكون وحيدة تحت سماء الليل الساطعة والمرصعة بالنجوم وترد على الوميض الفلكي في عليائه بانعكاسات آلاف القطع الفضية المخاطة على ثوبها، إنما لتصغي بكل خلية من خلاياها تائقة إلى صوت يأتيها من الظلام. لم يجرؤ لرنر على مبادرتها بالخطاب ولا على الخروج من حمى ظلال الحرش إلى العشب الأعزل، فقد كانت في المنزل حياة، حياة ضعيفة، ولكنها تسمع بوضوح. تحجر لمرآها كمشاهد مسلوب اللب وحواسه يقظة، تلتقط رائحة نتنة ومنعشة، تنبعث من الماء حاملة هواء الغابة والتراب.

أخذ لرنر نفساً عميقاً وجفل. فقد اختلط برائحة البحيرة والنباتات المعرشة شيء غريب طارئ. ماذا كان؟ كان رائحة السكائر. إذاً هناك من يدخن. تطلع نحو كوخ الزوارق. النوافذ كلها سوداء وفي وسطها نقطة وردية، تتحرك في قوس نحو الأعلى، تتوقف هناك.. تتقد وتعود في المدار نفسه إلى الأسفل. دروب الحياة تلتقي بصورة عجيبة، فكر لرنر. فقبل قليل كان يناقش في الصالة الزرقاء للقصر أرفع شؤون الدولة وها هو الآن مختبئ بين الأشواك الوضيعة.. بين الإطلالة القمرية الملوكية

للسيدة الفريده كورس والمدخن السري في كوخ الزوارق، الذي دعته إليه الفريده. هل تعلم بوجود شخص آخر في الكوخ؟ هل تشعر بأن آخر يتخفى في الحديقة؟ هل دعت المدخن السري أيضاً إلى الكوخ؟

دنا منها لرنر دون أن يغادر الظل. تقصفت الأوراق تحت قدميه. التفتت الفريده واتجهت نحو مصدر الصوت. وفي كل خطوة من خطواتها يصدر ثوبها صريراً، تحتك حبات الخرز كأنها ترتدي درعاً. وفعلاً سيرى لرنر تالياً أن الثوب ثقيل ثقل الدرع. انتصبت أمامه. شاهد التجاعيد الطرية في رقبتها.. ذابت مواد التجميل قليلاً. كانت قد وضعت مسحوقا أبيض على وجهها وصدرها لتظهر بمظهر «لونا» إلهة القمر. الفم الأحمر يصب في قنوات رفيعة في البياض من دون حدود واضحة. من ثوبها يتصاعد دفء الرقص، المساحيق، العطر والعرق.

أليست هذه لحظة التحية الشائقة الصامتة، لحظة القبلة الطويلة؟ لم تكن السيدة كورس راغبة. على مضض استسلمت لأحضان لرنر ثم أبعدته، تطلعت حولها وهمست: «يا للعار، لسنا وحدنا».

وشوش لرنر في أذنها أنه يعرف، ففي كوخ الزوارق يدخن شخص مجهول. لم يذكر أنه ناداها في ظلام الكوخ. فالمختبئ هناك شخص جريء فعلاً، ما أن نفذ من الفضيحة حتى دس السيكارة في فمه.

فحَت السيدة كورس: «الآن جاءت النهاية فعلاً. منذ الغد سأطرد إيلزه من البيت». ما ذنب إيلزه؟ «اكتشفت بالمصادفة أن لها عشيقا هنا، ملازم اسمه غيرلاخ، دعاه آلا غراوتنهوف. طبعاً أخذت احتياطاتي لا لتأتيها الدعوة وتظل في البيت. أما يكفينا أننا نعلفها، لكن يجب

ألا تخطف طلاب الرقص من إِرنا. وفي الحفل يرقص الملازم أربع، أو خمس مرات مع إِرنا، كان في ثوب مارس، رجلاه طويلتان وجميلتان.. يبدو فخوراً بهما.. يبدي اهتمامه، يقترب مني ومن إِرنا، يرقص معي، يجيد الرقص، ثم يضيع فجأة. الملازم غيرلاخ لا يغادر حفلة راقصة في الحادية عشرة. قال لي إحساسي إن هناك أمراً خطيرا. وحين أخذت إِرنا إلى غرفتها، كي تنام فعلاً، فهي تنام مع ايلزه في سرير واحد، سمعت صوت خطوات وإغلاق باب على الدرج الخلفي ورأيت قرب السرير، في صحن الفنجان، عقب سيكارة في مصاصة سكائر ذهبية، كان يتركها الملازم غيرلاخ في كل مكان يكون فيه ...».

كانت تحمل اللفافة الذهبية في يدها الملبسة بقفاز ساتان أسود. حاول تيودور لرنر تهدئتها بينما كانت تتكلم.. شدها إلى حضنه. مرر يديه على الخرز الزجاجي السميك كجلد فيل، بارد ومنعش ويظهر تكورات الجسم. لم تمنعه، ولكن ثورتها لم تسكن.

تفكير الفريده كورس متوقف على ايلزه. كانت إيلزه قد تجرأت على خرق النظم التي فرضتها عليها. الفريدة كورس مستثارة جريحة وهذا الجرح يحول دون الشعور بلمسات لرنر المغرية. بذل كل ما في وسعه، ولكنه لم يستطع منع ذهنه من الانشغال بايلزه من ناحيته، فقد أرغمته السيدة كورس إرغاماً على هذا التفكير. الفتاة الرشيقة الوقحة، بتصفيفة الشعر الذي لا يكف عن الانسدال على وجهها (تعمدت في القطار رفع الخصلات المنسدلة، مع أنها تعلم أنها ستنزل على وجهها من جديد)، لا تزال محفورة في ذاكرته. كانت قد نظرت إليه في

مقصورة القطار وهي تسلمه فنجان الشاي، وكأنها ضبطته يرتكب جرماً. لم يكن تيودور لرنر يعلم أن أغلب الضيوف الذكور لآل كورس يركزون أنظارهم عليها ولا يفهمون ما تقوله ربة البيت حين تكون إيلزه حاضرة. كان قدر إيلزه أن تثأر لجميع القريبات الفقيرات اللاتي يعشن لدى أقاربهن الموسرين ويدبرن شؤون منازلهم، منقسمات بين الانتماء إلى الأسرة والخدم ولا ينلن من القسمين إلا النصف الأسوأ. بعد أن تسرح الخادمات، تظل القريبة في الخدمة، فهي من أفراد الأسرة، وبدل الأجر تنال مصروفاً يومياً زهيداً. وفي أوقات المرح والاستمتاع، الرحلات إلى برلين ونابولي، الحفلات التي يقيمها المستشار الاقتصادي غراوتهوف وحفلات استقبال الشخصيات المهمة، تتحول من فورها إلى خادمة. مضطرة لشكر العائلة على كل شيء، ولكنها تظل في نظرها ناكرة للجميل، وتهمَل أكثر كلما طالت إقامتها تحت سقفها. تدرك أنهم يستغلونها، وترى أحلى سنوات عمرها تضيع في سجن، في ثياب بنت الدار القديمة، في علية تحت السقف، بعد أن أُخذت منها الغرفة الأفضل في أيام إقامتها الأولى. وهكذا أيضاً حال إيلزه، لكنها لم تعترض عليه بكلمة واحدة أو تصرف، ورغم هذا تثير حنق الفريده كورس.

آنذاك أيضاً، في المقصورة، تصور لرنر أن السيد كورس معجب برشاقة إيلزه، فقد كانت نظراته مشوبة بأحاسيس دافئة، وهو يراقب إيلزه حين تصب الشاي الحار. ما المانع أن تشيع الفرح في بيت آل كورس؟ كانت إيلزه مرحة معظم الوقت. وحين لا تبتسم أو تدندن، فإنها تصمت حالمة أحلام يقظة، لكنها لم تكن قط سيئة المزاج. تصور

لرنر أن ايلزه قطة مسحورة في شكل إنسان.. قطة بمريول أبيض، تمسح وتلعق نفسها، ولا تتوقف عن استطلاع محيطها.. تأخذ قرارات سريعة ملغزة، متقلبة المزاج، لا يؤثر فيها شيء، لا يرشوها مديح ولا يوقفها ذم عند حد. غالباً ما تلتزم الصمت، ولكنها أحياناً ترد على السيدة كورس بكلمات تسمرها في مكانها.

تقول السيدة بفظاظة: «أمنعك من الذهاب إلى الحفل».

«لماذا لا أذهب؟».

تطرح السؤال بعفوية. لا تشعر بأي ألم من المحظورات، بل تريد معرفة الأسباب كعالم لا يشبع فضوله. يقول السيد كورس مرتبكا: «العمة الفريده تخاف أن يكون هناك شبان معينون، يلعبون بعقل البنات الصغار».

إيلزه تسأل: «لماذا شبان معينون؟ كل الرجال يعملون هذا».

يحمر وجه السيد كورس. وهذا ما يحدث له حين يتوجب ألا يحدث، في حضور زوجته.

كانت إيلزه تنتقل في أرجاء البيت حافية القدمين، ولا يلحظها أحد. وللفريدة كورس نقطة ضعف. فحين تكون وحدها، تستمتع بالجلوس أمام مرآتها.. تمد يديها وتؤله نفسها لمرأى خواتمها. تلبس خواتم كثيرة في الأصابع القصيرة، الحادة، وتستمتع بنور الخواتم ونارها الجميل. ثم تدسها في علبة، وتخرج أخرى، تدسها في أصابعها وتتأمل لمعانها. وغالباً ما تكون نتيجة الاستغراق في تلك الساعات، زيارة إلى الجواهرجي، ليعيد صياغة خاتم أو قطعة حلي. خلال السعادة الهانئة

بيديها وخواتمها، كانت تعيش لحظات رائعة وخلابة. حين تجلس أمام مرآتها، وتحرك يديها تحت أشعة الشمس، ويتدفق رذاذ الضوء من الأحجار البيضاء والحمراء والزرقاء، يعم السلام والوئام، كما يحدث للنساء الأخريات وهن يتأملن وجه رضيعهن الغافي شبِعا في مهده.

يصدر من الغرفة حفيف. تجفل الفريده، كأن أحداً ضبطها وهي ترتكب إثماً.

إيلزه جالسة في أريكة وتبحلق فيها.

«منذ متى أنت هنا؟»

«منذ حوالي نصف ساعة»، صوتها خافت ورتيب، ولكن النواس يرن رنيناً كقطرة فضة مصهورة تقع على الأرض.

«أنا أفحص الحلي. أود إعادة صياغة بعض القطع»، تقول الفريده مهتاجة. تغتاظ من وجود إيلزه الذي لم تشعر به، ومن خوفها منها ومحاولتها المضحكة لتبرير موقفها كأنه ليس من حقها أن تجلس من الصباح إلى المساء أمام مرآتها وتسرح بصرها على يديها المرصعتين بالخواتم، فهناك أشياء أخرى أسوأ تضيع بها النساء أوقاتهن.

«لكنك تفعلين هذا كل يوم»، تقول إيلزه بود.

في تلك الأثناء، كانت ايلزه الشغل الشاغل لذهن الفريده كورس. فهي تستيقظ ليلاً مخنوقة ولا تستطيع النوم، لأن إيلزه تغلب أفكارها. تخشى أن تفقد أعصابها يوماً ما وتخرب عالمها، ما حدث أكثر من مرة، حيث لم تستطع السيطرة على نفسها طويلاً وظلت بعدها خائفة من تكرار ثورة الأعصاب. لا داعي للقول إن صرخاتها لا تؤثر في إيلزه

أي تأثير. وهذا البرود، يبعث المزيد من الخوف في قلب الفريده. هل تستوعب ما يدور حولها؟ وهل ترى وتسمع ما تراه وتسمعه عائلتها؟ بإيجاز، كانت تخاف الجنون.

لم يكن لرنر يعرف أن الفريده ليست في حالة تشعر فيها بلمساته الشهوانية على جسمها المحتد. النتيجة الساحقة لمحاولتها منع إيلزه من حضور حفل الكواكب لدى آل غراوتهوف، أشعرتها بالعجز المطلق، كأن إيلزه متحالفة مع الشيطان. وفي ثوب إلهة القمر، الذي ارتدته في الحفل، وأطلق صيحات الإعجاب، كانت حطام روح.

وهذا ما أدركه لرنر أيضاً من دون معرفة السبب. وجد مبرراً لا يستبعد كثيراً. الفريده كورس لم تكن معتادة على الخيانة الزوجية. تخنقها مغامرات زوجها في جميع الاتجاهات، ولكنها لا تدفعها إلى خوض محاولات كثيرة للثأر. لأنها لا ترى لنفسها الحق فيه. وإذا كانت تأثم مرة كل ثلاث سنوات، فإنها تندم أشد الندم. تفضل أن تنجر بعيداً مع المصادفات التي تقع في طريقها، وتقنع باحتمال مغامرة طارئة يلوح بها فارس شاب. ومنها يشع هذا التحفظ.

تصور لرنر أن وجود الملازم في كوخ الزوارق، بث الخوف في صدرها، وأن الندم تفاقم مع هذا الخوف. فقد كانت غائبة، بعيدة في أفكارها. انفصلت عن لرنر كعلقة انتفخت بالدم. ظلا صامتين. بعد برهة سارت الفريده نحو المنزل. تبعها لرنر من دون تسحّب وخوف هذه المرة، بل بخطوات واسعة واثقة. صمم على أن يودعها بمروءة وفروسية، بأن يطبع قبلة على يدها. وضعت يدها الحريرية السوداء على

مقبض الباب و ... لكنه لم يتحرك.

ظل الباب محكماً.. كان أحدهم قد تعمد إغلاقه.

شعرت الفريده بأن قلبها توقف. ظلت ساكنة لا تتحرك. «لا»، همست همسة لم يفهمها لرنر لضعفها الشديد. انحل التشوق الجريء في الإقرار بالهزيمة. ترقرقت الدموع في عينيها.. لطمت الأيدي السوداء وجهها. اهتزت كتفاها.

وشوش لرنر في أذنها: «هناك توجد نافذة مفتوحة». وإذا صعدت على كرسي، فإن صدرها سوف يصل إلى حافة النافذة.

ارتج الكرسي تحت ثقلها.. راح زمن جلالة مظهرها.. الذراعان المكتنزتان ضعيفتان. ليس تحت الجلد الأبيض سوى الدهن. كانت مثل حيوان ضخم بعظام ضامرة.. حوت لا يسعه على اليابسة سوى التمرغ في الرمل. ذهب لرنر وراءها.. وضع يديه تحت إليتها. شجعها بكلمات هامسة.. نز العرق من جبينه.. رفعها بكل قواه. ارتفع الجسم قليلاً.. عليه الآن الصمود. إذا خارت قواه فسوف يسقطان معاً في حوض الزهور. دفع وضغط حتى كادت الشرايين تتفجر في رأسه. وفجأة توقف الجسم عن الحركة كلياً. كأن يديه تغوصان أعمق في اللحم الطري.. كأن اللحم يرتد. ثم ارتفعت اليدان من جديد.. خف وزن الفريده كورس. هل تطوف في الفضاء؟ دفعت يدا لرنر الخلاء.. الفريدة معلقة بحافة النافذة. تحت النافذة صوفا، ارتمت عليها. رافق غيابها صوت ارتطام وطقطقة. تدحرجت آلاف حبات الخرز على حافة النافذة.

تنفس لرنر الصعداء، ثم اكتشف في نافذة الطابق الأول خيال رأس امرأة. انسدلت عليه خصلة شعر، رفعت يدٌ الخصلةَ بإهمال. لم تشي المراقبةِ الوحيدة أنها رأته.

«ما هذا؟» سأل لرنر مرعوباً عندما خلع ثيابه في الفندق ورأى كفيه المزروعتين بنقاط حمراء. كان الجلد موسوماً بصورة الرمانة المطرزة بين الخرز، وسيظل أثر وردي حتى الصباح التالي.

-28-
مصرف ف. كورس يتدخل

مصرف ف. كورس في الدار رقم 12 في شارع مينغ، يقع في بناء آجري يزيد عمره على المائتي عام. على الجدران الآجرية المسودّة تلمع لوحة نحاسية، تصقل يومياً، وهي منقوشة بالخط الإنجليزي كاستمارة شيك ذهبية. خلف البوابة الرئيسية قاعة فخمة، تظهر بعدها مكاتب كبيرة، لا يسمع فيها عادة سوى صوت تحرك الكراسي وصرير أقلام الريش على الأوراق الرسمية، الشبيه بصوت طيران الجراد. صدى التحية الهامسة هنا كهياج مرعب، يجمّد قسمات الكتاب المتصلبين في كراسيهم، فالأوراق في مصرف كورس مازالت تملأ بخط اليد، لأنه أكثر أبهة. كان الكتاب الثلاثة، ثلاثة شيوخ، يطفئون، كالرهبان، كل شخصيتهم في خط اليد ويمطرون زخات الحبر الأسود والأزرق في خيوط رفيعة على الورق الصقيل بلون العاج. وهؤلاء الكتاب أفنوا سنوات عمرهم في خدمة مصرف ف. كورس. مرت عليهم أربعون عاماً وهم جالسون في كراسيهم العالية أمام المنصات التي يضيئها ضوء مصابيح خضراء وهم يصبون فحوى يتجدد في الاستمارات ذاتها. وفي الأعلى كان مكتب السيد كورس من طراز الباروك محاطاً بأثاث متقن من عصر النهضة. المكتب وحده ثقيل جداً، الى حد يجعل نقله صعباً ، ولا يقدر عليه إلا رافعة آلية، لأن رجالاً قد يقدرون على تحريك الأثاث الراسخ ليس لهم مكان على الدرجات الضيقة.

اللوحة النحاسية في الخارج، كانت قد وضعت منذ أيام والد السيد كورس، فيلهلم كورس، الذي أطلق على ابنه اسم فالتر، لما له من رنين إنجليزي. فخامة داخل الدار رقم 12 في شارع مينغ، تولد لدى المراقب الخارجي، الذي يقتصر على شهادة العيان، شعوراً بأن المصرف قائم في لوبيِك منذ الأزل، موسوم بروح لوبيِك وساهم بدوره التاريخي في هذه الروح. إلا أن مصرف ف. كورس كان مصرفاً من نوعية جديدة يتحسس خطاه ويعمل على كسب العملاء في لوبيِك العتيقة المتلبدة. فقد اضطر ف. كورس قبل سنوات إلى فض شراكته مع شريكيه اللذين كانا عماد البيت الحقيقي منذ تأسيسه. وجد مصرف ف. كورس أصلاً من دون شركة آبلبِك وأبنائه وشركة فيلهلم بينزِنهوف. كان آبلبِك تاجر جملة في حين كان بينزِنهوف يمتلك أسطولا لسفن الشحن. كانت الشركتان قد عينتا الشاب فيلهلم كورس، الذي كان وكيلاً محدداً لبينزِنهوف، مديراً لأعمالهما، ومفوضاً لهما عندما كثرت المطامع لتأسيس مصرف خاص في إنجلترا لغايات معينة. كان كورس الأب خياراً موفقاً، فقد كان مصرفياً ناجحاً، وأجاد إدارة ثروة طائلة من النقود القليلة التي وضعت تحت تصرفه، وعلا صيته في عالم الأعمال حتى اعتبر مصرف ف. كورس مؤسسة قائمة بذاتها، وهو ما لم تكنه حقيقة. فلم تكن حصة كورس تتجاوز العشرة بالمائة في المصرف الذي يحمل اسمه وسيبقى هكذا بناء على رغبات الشركاء واتفاقهم. حين يقدّر في عالم الشمال الألماني لمثل هذه المؤسسة بعض الاستمرارية، فإنها تتحول، تدريجياً طبعاً، لتأخذ صفة شركة فعلية، وهذا لم يكن حين

نقلت من الأب إلى الابن. ونسي الجميع أن هذه المؤسسة تعتمد في عيشها على دورة دموية غريبة.

ثم حدث ما كان كورس الأب يخشاه دائماً، ويعتبره الابن مستحيلاً. ساءت أحوال شركة آبِلبِك، طبعاً ليس بين ليلة وضحاها، إنما يوماً بعد يوم، حتى انفجرت الفقاعة فجأة. سحب السادة آبِلبِك الأموال العينية التي يحتاجونها فوراً من مصرف كورس بكل راحة ضمير ومن دون إبداء أي أسف متملق. بينما وقعت شركة بيزِنهوف بين أيدي ورثة جشعين (كل الورثة جشعون) لا هم لهم سوى رؤية النقود بأعينهم ولمسها بأيديهم. كان السادة والسيدات آبلبِك قد هجروا لوبِك ويمارسون أعمالهم في أرجاء أخرى من الدنيا الواسعة. في هذا الوقت كان فالتر كورس في أفضل سنوات عمره، متزوجاً وله طفل وبيت عامر، وليس أمامه إلا خياران، إما أن يتابع درب أبيه أو يستسلم. راقبت آلاف العيون خطواته.. شجعه محيطه بالكلام، وربت بعضهم على كتفيه، لكنهم كانوا يقولون في الآن ذاته: «سنرى ما يحدث له». هل كان كورس سيمد يده إلى هيئة جزيرة الدببة، لو أنه مازال في مدار جاذبية شركات آبِلبِك وبينزِنهوف؟

هذه أسئلة ممنوعة عن كورس. أمامه صورة والده، المستشار المالي ف. كورس، في عيد ميلاده الخامس والسبعين. يحدق العجوز واقفاً إلى مكتبه بعينين داكنتين إلى البعيد. لا يعبأ بباقات الورد المتراكمة حوله، وكأن عليه بيع الزهور في السوق. محل التصوير فارغ بارد، ليس متقشفاً، بل رخيصاً، كما كان الابن يقول، وباقات الورد عنصر

غريب، فلم تدخل إلى المكتب قط. كل ما في المكتب مصبوغ بلون السكائر البني، حتى أفكار المستشار المالي.

«قبل أن تبدأ عملاً، عليك أن تشكك فيه، تتساءل، تخض، لكن إذا بدأت فلا تتردد». هذا كان شعار الأب إلى الابن.. ناتئاً، مستقيماً، ولا تشوش عليه باقات الورد. ليكن. فجزيرة الدببة موجودة على أرض الواقع. يرد موقعها في الأطلس، وطأ أرضها آخرون، قبل لرنر ووصفوا ما عليها. كورس الابن لم يتوافق مع المجال المتواضع لبقايا مصرف ف. كورس، فهو في الفترة الأخيرة حاول جذب عملاء ما كانوا يجرؤون قبل نصف عام على صعود الدرجات إلى مكتبه الفاره. في الدوائر التي ما زال ينتمي إلى بعضها، كان يقال له: «هكذا أحوال الدنيا. بعضهم يبدؤون صغاراً، ويكبرون وبعضهم يولدون كباراً ويصغرون عاماً بعد عام». كان محقاً في انزعاجه من تلك السخريات. فمصرف ف. كورس لم يخسر تأثيره في السوق، لأنه لا يعرف كيف يديره. ثم إنه كان بعيد النظر بزواجه من السيدة كورس، فهذه جاءت بثروة جيدة، الأمر المعروف في حلقات لوبِك.

لكن مع رأس مالها، ازدادت أيضاً سلطاتها. ففيها وجدت هيئة جزيرة الدببة محامياً متمكناً، الأمر المستغرب بحد ذاته، لأن النقود ما كانت تهمها في يوم من الأيام، بل كل ما يشغل ذهنها هو مدينة البندقية، ومنها أيضاً المكتب الثقيل، هديتها، من خشب السنديان الخالص، الذي كلف مبالغ طائلة، فبما أنه لا يتلاءم مع الغرفة، وجب شراء الأثاث المتلائم معه قطعة قطعة.

«دع الشاب اللطيف يجرب حظه»، قالت السيدة كورس، مستندة في غرفة النوم إلى جبل من الوسائد العالية وشفتاها الغليظتان تقبلان الهواء مع النطق بكل كلمة. غالباً كان يغتاظ من إصرارها الذي تعرض به شفتاها بحيث يدير وجهه كي لا يراها، لكنها تعجبه أحياناً.

أردفت: «إن السيد لرنر مهذب ومحترم، طويل القامة، ما عليه سوى أن ينتبه لئلا يثخن مثلك». كان كرش فالتر كورس موضع تسليتهما. تداعبه، ولكنها توحي دائماً بأن الكرش يجذبها. وفي هذه المناسبات يجري بينهما طقس صغير من طقوس الزوجية، يغض الآخرون الطرف عنه حين يلاحظونه.

ليس من السهل تحصيل مبلغ ستمائة وخمسين ألف مارك على شكل أسهم في هيئة جزيرة الدببة، كما يتصور السيد لرنر وشركاه. شك كورس أن بورخارد وكنور يبالغان في تضخيم رأس المال وهدفهما هو أن ينقطع نفَس لرنر. فهل يؤمنان حقاً بجدوى الجزيرة؟ هل ينويان الاستيلاء عليها؟ أم أنها معركة انسحاب رشيقة (كأنهما يريدان القول: «حسناً يا سيد لرنر، إذا كنت ستتوقف عن اللعب، فإننا من جهتنا نتوقف»)؟ هل يستعدان لرد الفعل هذا؟ هل هناك مبررات معقولة لبقاء الجزيرة غير مأهولة حتى الآن؟ هل هي ابنة الضرة المهملة لبحر القطب، العانس الفقيرة التي لا يرضى بها أحد؟ حسب المسموعات، كان صيت الجزيرة في الحلقة الضيقة للأمير يوهان آلبريشت مختلفاً تماماً وأعلن الأمير أنها «مثيرة جداً». لكن لا ننسى كيف يفكر أصحاب السعادة. فهم لا يلتزمون بوعد من حيث المبدأ. الأمير يدشن مشروعاً

ما باستعراض ضخم، وحين تظهر أولى الصعاب، لا ترى منه سوى ظهره، فإنه في هذه اللحظة يكون مشغولاً بتدشين مشروع آخر. لكن تقديم عائدات عالية، أربعاً وعشرين بالمائة سنوياً، مع احتمال الزيادة، عرض مغر لمصرف ف. كورس، فلا أحد يقدم مثله. ويقيناً إن أي عرض يتقدم به لن يسيئه، فهو يثير الخيال، فحتى وإن لم يثمر، فسيصير اسمه في كل الأفواه وبذلك ينجح في صفقة أخرى. فالبعض يشعر بالتملق حين تعرض عليه صفقات لها صبغة وطنية، ففيها إطراء على القوة المالية للعميل. ومن لا يستطيع مجاراة العرض دون خسائر شديدة، يولّد على الأقل شعوراً بأنه قادر على المجاراة.

لقد أعطى كلمته للرنر وعليه أن يفي بوعده. لطالما جاءته أسئلة من سيدة، تعمل لصالح لرنر، سيدة ملحاحة، شديدة المراس. إذا كانت هذه تطالب باحترام أنوثتها، فعليها الحذر، فقد استشعر كورس رغبة بالرد على برقياتها موبخاً. وطبعاً لن يقوم رجل أعمال من لوبِك بتوبيخ امرأة، لكن كورس ربّت على صديريه الأسود المنتفخ، وعليه ساعة الجيب كأنها ملحومة بصخرة صماء واتخذ قراراً. سيقدم عرضاً موجزاً مرفقاً بتقرير الخبراء لعملاء مختارين، أو بالأحرى للعلاقات القديمة من الماضي المزدهر، وربما أيضاً لعملاء جدد، لا أحد يأبه بهم فعلاً ويتواصلون بهذا مع مصرف ف. كورس، الذي كان مسدودا بوجههم في أيام عزه. لن يضمن صحة التقرير المرفق وعلى أصحاب الشأن أن يقرروا من ذاتهم إن كان التقرير مقنعاً أم لا. سيحدد مهلة قصيرة جداً. فمن لم يلتقط الطعم راحت عليه، كما كان كورس الأب

يقول، وبذلك يفي بوعده. بإيجاز شديد: إما الفوز العظيم بحصص كثيرة أو تنتهي القضية برمتها، يوقفها إلى الأبد ويبدأ بشيء جديد. هكذا كان الوالد يعمل.

هل كان الوالد سيتصرف هكذا حقاً؟ هل كان سيبعث برسالة واحدة من أجل لرنر المجهول؟ تواردت الفكرة الصغيرة الثقيلة على ذهنه.

في اليوم التالي أحضر السيد شروتنس رزمة رسائل جواباً على مناقصة كورس، فرزها عن الرسائل اليومية المعتادة. حمل الناس المهلة القصيرة على محمل الجد، قرؤوا العرض، اتخذوا قراراً سريعاً أملوه على كتابهم. فيجب عدم تجاوز التاريخ المحدد رغم ضيق الوقت من دون فائدة يجنونها. «شركة فرانتس هاينريش لخطوط النقل البخارية بين لوبِك، روتردام، دوسلدورف، كولونيا، مانهايم، بوردو وغيرها»، التي مازالت تضع في ترويستها صورة سفينة بخارية تسير بالأشرعة، ويتصاعد منها خط دخان كثيف (كان آخر هذه الهياكل قد استكرب منذ زمن بعيد) أعلمت السيد كورس: «ردا على خطابكم الكريم، أشكركم جزيل الشكر على مناقصتكم اللطيفة عن المساهمة في هيئة السيد لرنر على جزيرة الدببة. لقد أثارت المسألة جل اهتمامي وأعتقد أنها بدأت البداية الصحيحة. لكن قبل وصول العوائد، سيلزم أغلب الظن توظيف كثير من المال، ثم يؤسفنا إعلامكم بحذرنا من مخاطر أخرى للمؤسسة، فنظراً لموقع الجزيرة، قد يتسبب شتاء قاس بأضرار كثيرة، لا تعوض إلا بالكاد. لهذا أجد نفسي مرغماً على استبعاد احتمال المساهمة مؤقتا». وإذا تبين أن الشركة ناجحة، فقد ...

طيب، هذا جواب موضوعي. كان السيد هاينريش يقدر كورس. خسارة. فقد وضع كورس أعظم آماله فيه. «شركة ايفرس لتصنيع علب المحفوظات»، التي سلف لها أن طالبته بالنصح لتوظيف أموالها، كانت أقصر في خطابها: «بكل خشوع أجيب على خطابكم الكريم، الذي وصلنا اليوم، بأنني لن أبدي رد فعل على المناقصة المعروضة علي». هذا الخطاب يوشك أن يكون صفعة، ولكن كورس قرر أن يصفه بـ«الدقة». وعلى خلاف هذا، فقد جاء رد السيد د. القانون فون بروكن، المحامي والكاتب بالعدل مشحوناً بطقوس التهذيب، كما يعرفها منه كورس في النادي. فقد كتب: «اعتماداً على خطابكم الكريم، المؤرخ في 28 أيلول، أعيد إليكم طيه الأوراق المرسلة إلي مرفقة بشكري الجزيل. إن تقرير السيد شراينَر يزيح كل شك عطفاً على جودة الفحم، إلا أنني لم أستطع الوصول إلى قرار بالمساهمة». سأل كورس محتداً: لم لا؟ هل أنت مفلس أم خائف؟ «السادة فولفغانغ غيدرتس وشركاه» كانوا على بالغ الدقة في رسالتهم: «ردا على عرضكم اللطيف في رسالتكم المؤرخة بالأمس، نعبر عن بالغ الأسف لعدم حاجتنا إليه. لا مصلحة (هنا أضاف السيد غيدرتس كلمة «مالية») لنا في القضية. لكننا من النواحي السياسية، الاجتماعية، التاريخية والجغرافية نبدي أعظم الاهتمام بالجزيرة». «شركة مايَر وشركاه» ردوا بذهن حاضر رغم غياب المالك «إن سيدنا ايفان مايَر مسافر في الوقت الراهن. أما من النواحي الأخرى، فإننا لا نجد لنا مصلحة في القضية المطروحة من طرفكم ونعيد إليكم الأوراق المرسلة إلينا طيه». أعرب المحاميان د. فيرميرن ود. فيتان

(اللذان أشيع أنهما نهمان لاستثمار أموال ورثاها وحصلا عليها عن طريق الزواج) «عن الأسف البالغ للاستغناء عن المساهمة في اتحاد مؤسسات لرنَر». هذه كانت نتيجة الاختبار القصير السريع. لا يمكن جمع ستمائة وخمسين ألف مارك في لويبِك لصالح السيد لرنر. هل هذه مصيبة؟ إن كانت مصيبة حلت رأس السيد لرنَر، فلا حيلة باليد.

-29-

على طريق السفر

حين تنظر من ناحية فندق «مونوبول» ترى أن الحياة في ساحة المحطة تجري بدفقات متشنجة. كأنهم كانوا في انتظار إشارة سرية، ينسحب الناس فجأة ويحاولون الدخول إلى مبنى المحطة أو الانتشار في الطرق المتشعبة عنها. وتشعر أحياناً بأن سلطة عليا تأمر الناس بإخلاء المحطة. إلا أن بعض الناس يقفون مترددين حيارى، كأن قوة الامتصاص لا تنال منهم كثيراً. ثم تترجرج الكتلة البشرية بعنف وتتدافع من الأبواب والشوارع، كأن الجموع تنوي الاحتشاد لمشاهدة حدث عظيم. كان لرنر يسبح في أمواج التيار الذي يتجه نحو فندق «مونوبول»، ويتفرق في جميع الأنحاء قبل أن يتكسر عليه.

عادة لا ينتبه الإنسان في هذه الكتل الجماهيرية إلى جاره.. الوجوه ليست سوى مادة تدخل في تشكيل الزحام العام. فوجه الفتاة المشرقة لا يختلف عن وجه العجوز الشمطاء. بكل صفاقة يصهر العقل الفعال من يشاء، لينتج أنقى الأجسام. وإذا حدث فعلاً ونودي باسم فوق رؤوس الحشد، يجفل المنادى كالسائر في النوم، ويتطلع حوله محتاراً، ومشتت الذهن.

ربما ما كان لرنر سيرى الرأس الذي يسبح نحوه بين مئات الرؤوس والأكتاف، أو ينتبه إليه بين كل الرؤوس القبيحة والجميلة، لولا أن شعر الفتاة كان ملموماً تحت قبعة قش رفع الخمار فوقها بإهمال، ولكن

الوجه تحتها ينبض حتى في لحظة الزحام بالفرح والحياة والبراءة. فالخمار وباعتباره أحد الأشياء التي تختص بها السيدات لا يناسب الفتاة. كمن ترتدي مثل هذه الأشياء بخراقة، لأن العادة تقتضيها، ولكنها في الآن ذاته قطعت شوطا بعيداً في التحرر منها.

«آنسة إيلزه، أنت الآنسة إيلزه»، هتف لرنر بعد أن مرت به الفتاة. ألم ترد على نظراته؟ ألم تلتقي العيون؟ التفتت إيلزه مذهولة. وهنا عرفته. تجمع التيار البشري خلفهما، فقد شكلا سداً في مجراه.

«إلى أين تذهبين؟»

«إلى المحطة».

«هل تسمحين لي بمرافقتك؟»

«نعم إذا أعطيتني سيكارة».

لاحظ لرنر أنها تحمل حقيبة سفر فعرض عليها: «هل تسمحين لي بحمل حقيبتك؟»

«طبعاً. تفضل». تفكهت على رجائه وربما تفكهت عليه لو أنه اقترح عليها السير على اليدين أيضاً، لأنه يشبه اقتراحه بحمل حقيبتها.

كانت صالة انتظار الدرجة الثانية، التي رافق لرنر إيلزه إليها، مكاناً مزيناً بالألوان الذهبية والرسوم على السقف مثل كنيسة، يضيع أثر جماله على الأرض في كثير من الطاولات المغطاة بالقماش الأبيض. في الأعلى تقود أجسام عملاقة، صراع الإنسانية ضد الكسل والإيمان بالغيب، والظلام على ضوء نار هائلة، بينما في الأسفل توضع القهوة وحلوى الخوخ على الطاولات، فقد كان الوقت ظهراً.

«مصادفة عجيبة أن نلتقي هنا»، قال لرنر بعد أن تناول منها معطف السفر، وبرزت تحته تنورة اسكتلندية بمربعات.. ثيابها فاقعة وبسيطة، لكنها من دون جاذبية خاصة. تبدو فيها كزوجة رجل ثري، ولا تبدو كذلك في الآن ذاته. يتضح منها أن الثياب ليست لها، وأنها لم تخترها بنفسها، وأن مظهرها سيظل غريباً مهما كانت الثياب فخمة. كأنها ارتدت تنورتها الاسكتلندية بلامبالاة تامة بعد أن فتحت الهدية تحت شجرة عيد الميلاد وتأملتها وهي تهز رأسها.

ردت عليه: «ليست مصادفة، أنا كنت أبحث عنك».

«بحثت عني؟ أين؟»

«هناك. في ذلك الفندق القبيح. ما اسمه ...». أخرجت من حقيبة يدها مظروف رسائل.. عرف لرنر خط يده. ما الذي حدث آنذاك؟ كان السيد كورس قد رجاه إرسال صورة أمير الضباب إلى ابنته إِرنا، ولم يأته جواب شكر.

«هنا، على المظروف، العنوان هو فندق «مونوبول». لماذا أرسلت لي صورتك؟»

«أنا بعثت صورتي لك ؟!...»، لم يكن هذا سؤالاً استنكارياً، وإنما محاولة لإيجاد مخرج مناسب من الوضع المفاجئ.

قرأ تيودور لرنر على المظروف: «إلى كريمة المحتد الآنسة إيلزه كورس». كيف اختلطت عليه الأمور؟ ألم يكن الهدف إرسال صورة إلى فتاة لا يعرفها؟ ألم يكن همه أن ينسج خيوط الغزل مع تلك العائلة؟ ألم تدل كل الإشارات على البنت الغائبة، بينما تملأ الأم المثيرة كامل

المقصورة بحضورها الطاغي؟ فقد شعر بالإطراء عندما طلبت منه صورته، باعتباره شخصية فتحت فصلاً جديداً في التاريخ.

سألت إيلزه بمرح وسذاجة: «كان هذا خطأ، أليس كذلك؟ ولماذا ترسل لي صورتك؟ لسخافتها العمة الفريده، اتهمتني بسرقة الصورة، ولهذا احتفظت بالمظروف. أنت أرسلت الصورة لي. والمظروف دليل كاف.. العمة الفريده لا تهمها الدلائل، ولكنها تهمني جداً».

تلعثم لرنر.. أراد أن يضع في يدي ايلزه ما يشفي غليلها. وما يقوله يجب أن يوحي بالصدق والأمانة قدر الإمكان. كان هذا أهم ما في المسألة كلها.. جلس منفرج الساقين على الكرسي وأصغى بكل نهم إلى إيلزه، كأنه يريد الحيلولة دون أن تنهض وتهرب.

«الذي حدث هو أنني بعثت الرسالة إليك.. وإذا كنت قد فعلت هذا، فإنه نابع من صميم القلب. أنا لا يوجد علي وصي، لست مجنونا. أنا ... أعترف بأنني كنت أريد إرسال الصورة إلى ابنة عمك التي لا أعرفها، كما اقترح السيد كورس، إذا لم يخب ظني ... لكن، عندما أخذت الصورة ...»

ما الذي جرى فعلا؟ حدث سريع ومحكم، خرق صغير لقوانين سببية الحياة. فجأة ظهرت صورة إيلزه في أعماق الذاكرة، وهي تمج سيكارتها كطفلة نهمة، التفتت إليه فجأة وهو على طاولة الفندق يكتب العنوان على المظروف وحدقت فيه، بينما كانت تنسدل خصلة جميلة على جبينها. ثم ... ثم كأنها تمد يدها من أرض سائبة خيالية وتقربها من يده التي تدس الريشة الفولاذية في الدواة الصغيرة، فخرجت منها سوداء

لامعة ومن فوره نسي لرنر ما كتبته الريشة. أسرع في تسليم المظروف إلى مكتب الاستقبال، ولكن هذا جرى له بسبب السيدة هانهاوس، فهذه لا شأن لها بعلاقته مع آل كورس.

«أنا ... كتبتها ..». قال متهدجاً، وضارعاً.

قالت ايلزه: «طيب. هل تعطيني الآن سيكارتي؟» وأردفت أنها تتفهم أن عائلة كورس («العم فالتَر ابن عم أبي») لا يريدونها في بيتهم. اتضح لها هذا منذ زمن بعيد، «ليس من قبل العم فالتر، فهو يجيء دائماً قربي.. يطبطب على يدي ويلهج في كلامه، مثلك الآن، يبدأ باندفاعة قوية، ثم يتلعثم، ولكنه اعتاد دائماً أن يكون لطيفاً معي. هل تفهمني؟ لا يولد لدي الانطباع بأنه لا يسر برؤيتي». لا يولد الانطباع.. هذه الصياغات تخرج من فمها، كأنها طفل ذكي يلعب دور البالغين. لكن ليست فيها أي غطرسة، إنما مجرد الأمل البريء بأن لعبارات البالغين مشروعيتها. وعقبت: لكن علاقتها بالعمة الفريده لم تكن جيدة منذ البداية. فالعمة الفريده لا يعجبها العجب، حتى لو لم تفعل شيئاً. عائلة كورس تركز كل طاقاتها على ابنتهم إِرنا. إيلزه تحب إِرنا. لا تشعر بأنها مضطرة مثلها إلى التمرن على عزف البيانو ساعات وساعات، ولا إلى قراءة أكوام الروايات والحيرة في الشباب المتجمعين حولها. بالنسبة لإِرنا الحياة كفاح. إحدى رجليها قصيرة، وتسير في حذاء عال.. غليظ الشكل، وفاضح. تدربت على أسلوب خاص في الرقص، يمتص تشوه رجلها ويخفيه. بعض الناس لا يلاحظون العيب. كما يمنع الكلام عنه منعاً باتاً، لأن ثائرة إِرنا تثور عندها. إيلزه تتفهم هذا جيداً جداً. وما كان يزعجها إطلاقاً أن ترسلها

العمة الفريده لخدمة الضيوف. إرنا تبقى جالسة كالعروس في الأريكة، كأنها قطعة منها. وإيلزه تقدم الشاي، وهذا أيضاً لا يعجب العمة الفريده لسبب من الأسباب. تقول إيلزه للضيف: تفضل، وهي تقدم فنجان الشاي لأحد الشباب ويرد الشاب: شكرا جزيلا ويبتسم لها. وهذا يكفي ليثير غيظ العمة الفريده ويؤدي إلى عبوسها في وجه ايلزه. العمة الفريده مقتنعة تماماً بأن بيتاً تسكنه إيلزه يشبه بيت قطة شهوانية، تلتم حوله قطط في شكل بشر لا يكفون عن المواء الشبق.

عندها صديق.. كل ما بينهما صداقة سكائر. اكتشف الملازم غيرلباخ أنها تحب التدخين ويتسلى بإمدادها بالسكائر، وهي سكائر جميلة بالمناسبة، لها مصاصة ذهبية. يجلسان معاً ويدخنان ويقضيان وقتا جميلاً. إرنا لا تدخن، والملازم غيرلباخ لا يحب البيانو ولا يمكن إرغام شاب بهذا اللطف على الاستماع إلى مقطوعات شوبان بعزف إرنا. إيلزه تحترم كل الرغبات، وكل الأمزجة، لكن عائلة كورس تصنع من الحبة قبة.

كان وجه لرنر قد احمر، لكن إيلزه لم تلاحظه، تماماً كما لم تلاحظه في حديقة فيلا فالتار. ما ليس بالأمر العجيب، أنها كانت تنظر من خلال النور إلى الظلام وما أمكنها مشاهدة وجهه.

صدق لرنر كل كلمة من كلمات ايلزه. ايلزه فتاة بغاية البساطة، وربما كسولة جداً على الكذب. وستحكي أسوأ الأمور وأكثرها شينا، من دون تردد أو خجل.

لطول عشرته مع السيدة هانهاوس، تعود لرنر أن يحيط نفسه بغيمة.

أما الآن فقد شعر بأن نسمة قوية قد تشتت الغيمة الداكنة. والمستور تحت الغيمة، كان أمراً لذيذاً ومثيراً.

عندما نهضت إيلزه فجأة، سألها وهو يقفز من مكانه: «أين تذهبين؟»

«بالتأكيد لن أرجع إلى لويبك».

«لكن إلى أين؟ ألا تريدين البقاء في فرانكفورت قليلاً. عند ...»، أراد أن يقول عندي، لكن العرض بدا له فاضحاً، فالتزم الصمت.

«عندك وعند زوجتك؟» سألت إيلزه بكل برود.

«عند زوجتي؟!»

«هناك، في الفندق، تحدثت مع ابنك. كأنه يشعر بنفسه مرغماً على شرح طريقة حياتك لي. قال إن زوجتك لا تمانع أن تكون لك صديقات. لكنه نصحني بطلب المبلغ المتفق عليه سلفاً، هذه كلماته، فذاكرتك ضعيفة جداً، وتنسى وعودك بسرعة، كما قال».

استدارت إيلزه وسارت بخطوات سريعة. في هذه اللحظة كان الحشد البشري يتضخم. ضاعت فيه بلمح البصر كالعسل في الشاي. ظل لرنر ساكناً في مكانه. شعر بأن أحد العمالقة، الذي يفجر الصخور لفتح نفق أمام سكة القطار في لوحة السقف، ألقى عليه بأكبر كتلة. وفي الوقت ذاته، استيقظ فيه شعور لم يشعر به منذ تلك الليلة المعلومة. لم يبق في القلب الكسير تحت عبء عاره الذاتي سوى البرود واللامبالاة. التهب الجرح كالنار. فلا غرو أنه نسي دفع حساب قهوتها. طبعاً، لم يكن النادل، الذي أمسكه على الباب، يعرف حاله.

-30-

سر الكسندر

بعد أن نفض لرنر قلبه، ولم يترك شكوى من الكسندر، كانت تثقل على صدره منذ تعارفهما، إلا وباح بها، استندت السيدة هانهاوس على مسند كرسي القش، وجلست (لنتذكر الصورة الفوتوغرافية التي التقطها مولمان) كتمثال نبيلة رومانية من الطبقات العليا في عرشها المرمري.. أمضّتها شكوى لرنر. كان قد جربها في أحلك اللحظات حين تنهال عليها كلمات الخصوم، لكن حديثاً مع الدائنين أو رجال المال المرتابين أو الندماء المرغمين على مسامرتها وعديمي الوفاء، لا يلمس قشرة النواة التي تستمد منها قواها الروحية. أما الكسندر فقد ظل بعيداً عن عروضها الملحاحة. الكسندر لم يكن قط موضوع حديثها. رغم أنه لا يكف عن إيلام رأسها. كانت السيدة هانهاوس كريمة ومتساهلة، لا تلقي المواعظ على رأس لرنر عندما يخطئ. تكتفي بالمراقبة الحادة وتستخلص استنتاجاتها. لم ترغم شريكاً قط على أن يبدل ما بنفسه، فقد كانت تعتبر هذا مستحيلاً.. كانت تعيد النظر في سلوكها هي، لذلك لم يلحظ لرنر أبداً أن السيدة هانهاوس متعلقة بابنها مثل أم القرد، بل ربما تحكم عليه أحكاماً أشد قسوة من جميع الذين تورطوا معه. ولهذا يمتعض من الشكوى من الكسندر. فكل ما يقوله كان معروفاً سلفاً من قبل السيدة هانهاوس. وإذا لم تتطرق إليه، فلديها أسبابها. ربما يؤلمها أن تذكر حماقات الكسندر أمام الآخرين، كأنها لا تصبح أمراً واقعاً إلا

بعد أن تنطق بها الأم.

لم تحل عقدة لسان لرنر مع مغيب الشمس بمحض المصادفة. ففي هذا الوقت ما كان مضطراً لرؤية وجهها، بل يتحدث كمن يتحدث إلى نفسه. لقد أدرك أنه لا يطيق منظر السيدة هانهاوس، حين تنهال عليها الضربات من كل الجهات. فقد كانت تحدد القواعد، وما عليه سوى الالتزام بها. أما الآن فقد خرق القواعد.

حل الصمت بعد أن أنهى كلامه. فقد هلّ صوتها الدافئ، الواثق، والمرهق قليلاً، وغير المؤنب في اللحظة الموحشة. كأن الصوت يوقد ضوءاً مريحاً في الغسق المائل إلى الليل العميق. كانت السيدة هانهاوس معتادة على تغطية مظلات المصابيح بخمار يمنع الضوء الساطع ويسرّب لوناً وردياً أو ذهبياً يختلط بالظل ولا يقضي على الظلام نهائياً.. ظل وجهها جامداً، ولا يشي بجذوة الحياة فيها سوى نبرة صوتها.

قالت: «أظن أن الوقت قد حان لأحكي لك عن حياتي». كان هذا إعلاناً مذهلاً. فكما أنهما لم يتباحثا بشأن الكسندر، لم يتباحثا أيضاً في مسيرة حياتها قبل أن تصدمها الدروشكا وتوقعها على الرصيف المبلل بمياه المطر. كانا يتقاسمان الآمال والمخاوف، ويقومان بخطط ومشاريع، ويتبادلان الأفكار بصراحة، لكن كل هذا ينحو نحو المستقبل. شعر لرنر بأن ماضيه قصير، وماضيها طويل، ولكن السد سينهار الآن وتنقلب الحياة وتأخذ مجرى آخر. كأنه على مفترق طرق، ذعر مما اكتسب لسانه وتمنى لو أنه تحمل مزاح الكسندر الثقيل هذه المرة أيضاً. لكن فات الأوان. فقد عادت السيدة هانهاوس بكل ثقلها إلى

الماضي. هل تنحدر كرة الثلج إلى الوادي؟

«ولدت في آلتمارك، لأب قس، وكنت الطفلة الرابعة عشرة لأمي». أدهشت هذه البداية النمطية لرنر. كان يتصور أن الطفل الرابع عشر نحيل وعاجز، ما لا يلاحظ على السيدة هانهاوس إطلاقاً. فإذا كانت طاقة الحياة لدى السيد القس وزوجته قد امتدت حتى الطفل الرابع عشر دون أن تنقص، فلا بد من أنهما أخرجا إلى العالم جيلاً من العمالقة. رسمت السيدة هانهاوس لشبابها صورة مثالية. بستان التفاح خلف الدار، السير حافي القدمين في الصيف، ليالي عيد الميلاد الرائعة، صوّرت كل هذا بكثير من الامتنان. قالت مشددة نبرتها إن والدها كان «واسع الاطلاع». هل لها الحكم على سعة اطلاعه؟ لا مجال للسؤال، فكلامها لا يدع مجالاً لطرح أسئلة مشككة. تكلمت وكأنها تروي سيرة حياة غريبة وفي كلامها سطوة طاغية. إن وجد «راو يعرف كل أحداث روايته»، فإنه السيدة هانهاوس بعينها.

في عائلة كبيرة تعلمت التدبير المنزلي. صنع المخللات، وتنجيد الفرش، وحتى نعل الأحذية كانت تمارس في بيت القس الكبير المؤلف في معظمه من الذكور. ساعدت أمها في كل شؤون المنزل، رغم وجود عدة مستخدمات طبعاً، إلا أن هؤلاء تجب مراقبتهن على الدوام. عندما بلغت الثامنة عشرة قرر أهلها أن تعمل لدى أميرة مات زوجها باكراً اسمها فوس، مربية أطفال، لولدين ساحرين، بعدها التحقت بالعمل لدى السيد المستشار القانوني هورِس وزوجته، مربية أيضاً، لكن لولدين أكبر سناً، ثم لدى السيد والسيدة فيرميرن، تاجري الحبوب

من بريمِن القاطنين في ميكلِنبورغ، واللذين أنجبا ستة أطفال (هنا كانت مسؤولة عن البنات فقط)، ثم لدى ضابط الخيالة بيستاتيوس وزوجته، ثم حاضنة لرضيع، في دارمشتادت، في ضاحية «ساحرة»، ثم لدى السيد د. فرايفالد، الطبيب، وزوجته «الساحرة» مربية لثلاثة أطفال، بنتين وولد. «أطفال ساحرون، زوجة ساحرة»، لم يسبق للرنر أن سمعها تتحدث بهذا الشكل قبلاً ولاحظ أنها، رغم أنها جسدياً في شكل إلهة أم، إلا أنها تتكلم بأسلوب الرجال. لكن الجلال العالي، والسكون الذي تتحدث به، يسموان بكل ما تقوله فوق الضياء الروحي للواقع الأرضي. شعر لرنر بأنها تقلب صفحات ألبوم وتتأمل صور الأميرة فوس، والمستشار القانوني هورِس، والطبيب فاريفالد والزوج اللطيف بيستاتيوس.

«لكني بعد عام واحدٍ قررت الزواج». هذا تحول حاسم، ينأى عن السفاسف ويختصر الزمن. فهي تتحدث إلى رجل، صحيح أنه لم يقرر الزواج، ولكنه مطلع كفاية على شؤون الحياة البديهية ولهذا لا داعي لذكرها له. بعد أيام هانئة قضتها في تربية أولاد الغرباء، ملت من الخدمة في بيوت الآخرين، وقررت تأسيس عائلة خاصة، رغم أن العائلات الخمس التي تقلبت بينها خلال عام واحد كانت مريحة ومسالمة. خلال عام واحد!! ولكن مجريات القصة لا تتوقف بالضرورة عند هذه التقلبات السريعة، فلا معنى لهذا في غاية القصة النهائية. كلها مجرد تقديم. تقديم مثير، ولكنه في الآن ذاته عديم الطعم، مثل مقدمة قصة روبنسون كروزو، من غرق السفينة حتى الوصول إلى الجزيرة. فهي

مجرد ثرثرة ومتاع عتيق. زبدة القصة الحقيقية تبدأ بعد الثرثرة المفروضة، وقصة حياة هانهاوس تبدأ بعد الزواج.

عجيب.. المتحدثة اللبقة اختارت هذا التحول المفاجئ. لم تتخذ زوجاً، بل «قررت الزواج»، وهل يجوز للمرأة أن تكون متزوجة من دون زوج؟ لكن أليس هذا ما يشع منها بالضبط؟ فهي وحيدة مع ابنها العملاق، ليست عانس عجوزاً ولا أرملة شابة، بل زوجة غير محددة المعالم. ربما تريد التعبير عن هذا.

الآن دخل مُنجِب الكسندر في القصة، أو إنه لم يدخلها. والد الكسندر؟! لا، لا، فهذا رجل آخر، حقبة أخرى من الحياة.

«يجب القول إن عشت بعدها مدة في نابولي». فتحت أقواس تنصيص كمصراعي نافذة تطل على الخليج وجزر كابري وايسكيا. الشقة الواسعة بالغرف الفارغة، والأرضية المرمرية، والنوافذ المغلقة، دخول أصوات الباعة الجائلين والشعب الكسول إلى البيت، كل هذا وصفته ببضع كلمات استخرجتها من ظلام الماضي. كان قيظ الصيف عبئاً عليها. وربما كان عملها لهيئة جزيرة الدببة واهتماماتها بالمناطق المتجمدة، تلبية لأدعية وتنهيدات أطلقتها خلال أشهرأغسطس آب اللهاب في نابولي.

«كان زوجي يعمل في مجال التبغ. آنذاك كانت شركة كامبانيين أهم موزع للتبغ. كل تلك العظمة بنيناها وحدنا». من فمها لا تصدر هذه الجمل العابرة متغطرسة، بل إن في كلماتها بعض الدهشة: «يا إلهي، كم تعبنا في حياتنا». وبعد مغيب الشمس ترتاح. تضع كرسياً

أمام باب الدار على رصيف الشارع. وهناك محل لبيع الجرائد وعصير الليمون. حول الدار تتجمع الكراسي، وحول الدور الأخرى أيضاً. توقد القناديل ويجلس الجميع تحت جنح الليل. لم تُعانِ مصاعب في تجاذب أطراف الحديث مع الجيران، الذين يجتمعون حولها في دائرة صغيرة. وحين لا تأتي إحدى الجارات، تستغرب من غيابها، وترسل من يسأل عنها. لم تدخل في حياتها دور الجارات اللواتي تقضي معهن الليالي، ليلة بعد ليلة. «لم تكن هذه عادة». وهنا تكلمت فجأة كقاضية آداب قاسية، لا تندم على عدم دعوة الجارات لها. أحياناً، يسهرن حتى الساعة الثالثة أو الرابعة.. الأحاديث تطول. هل كانت تتكلم الإيطالية؟ تساءل لرنر. لم يكن يعلم أنها تتقن الإيطالية، رغم أنها لم تُخْفِ هذا عن العيون. وطبعاً، لم يطرح السؤال عليها. فقد أضفى وضوحاً ومصداقية كافيين على مرور الوقت عبثا وضياع الحياة في الغربة. فالجلوس ليلاً في كرسي على رصيف الشارع تعبير كافٍ عن بؤس وسحر الغربة. بسالة وإحساس بعدم الرجوع وأن الحياة قد تستمر طويلاً. ذلك الجلوس في ليالي نابولي الحارة، التي تبرد تدريجياً، دلالة على وداع تنوع الحياة. قد يبلغ المرء التسعين وهو جالس على ذلك الكرسي دون أن يلاحظ. والمدهش في السيدة هانهاوس أنها شربت كأس المنفى حتى الثمالة دون أن تبلغ التسعين. فرغم المكوث الأبدي على الكرسي في الليل، نهضت ليلة ما من كرسيها وغادرت الشارع الوضيع بعصير الليمون.

«والكسندر، ولد في نابولي؟»

«لا، لا»، ظهر في نبرتها بعض التعب، كأنها تذعر من إرهاق النزول

على الدرجات من نابولي حتى ولادة الكسندر درجة درجة. استجمعت قواها وقالت جذلى، كما ذكرنا كثيراً في هذا الكتاب: «الكسندر ابن برلين. كان مهده في شارع اورانينبورغ». قالت الجملة وكأن المهد كان وحده هناك. وفعلاً كان وحيداً معظم الأوقات. فقد كانت السيدة هانهاوس مشغولة على الدوام. «وقتها كنا نتاجر بالمطاط الصناعي والخامات والقنب ... عالم غريب فعلاً، ومثير، لكنه مرهق».

ما قصدها بـ«نا»؟ هل تشير الآن إلى والد الكسندر؟ ملأ لرنر صدره بالهواء استعداداً لطرح السؤال، ولكنه لم يفعل، لأن السيدة هانهاوس انتصبت في جلستها وحدقت فيه بحيث رأى شرر عينيها في الظلام الدامس. كانت قناديل الغاز في الخارج ترسم على النافذة ظلالاً تبدو كبركة متجمدة.

«وهذه هي المفاجأة التي أردت الوصول إليها من كل القصة. كانت لدينا مربية صوربية. فكل سكان برلين كانوا يشغّلون الصوربيات القرويات، رغم أنني كنت أرضع الكسندر بنفسي. كما أنني لم أكن أحب زيهن الشعبي. أنا بطبعي لا أحب الخادمات في أزياء شعبية. أرى فستاناً أسود ومريولاً أبيض، ويطير عقلي. كان مهد الكسندر بجوار سريري (إذاً لم تكن وحيدة تماماً في برلين. هل كان السرير سرير الزوجية؟! لم يتضح له هذا). وذات ليلة أستيقظ من النوم، أنظر إلى المهد، وأرى ضوء القمر على فراش فارغ. أقفز من السرير، أتحسس طريقي في الشقة، باب المطبخ موارب، في المطبخ نور. وفي المطبخ فرشات معلقة، تنام فيها المربية والخادمة. تصور. وحول الموقد تدور

المربية حاملة الكسندر على ذراعيها وخلفها الخادمة الصغيرة الملعونة. وهي أيضاً صوربية. دارت حول الموقد ثلاث مرات. سألت الخادمة المربية: ماذا بين يديك؟ فردت المربية: ثعلب ووشق وأرنب ينام. أنا لا أؤمن بالخرافات، لكني واثقة تماماً بأن الكسندر مسحور منذ تلك الليلة. ما رأيك أنت؟»

تشتت ذهن لرنر. «كلمة مسحور قد تكون مبالغة، ولكنها كافية لتخيفني».

-31-
الجحيم الأبيض

بين فنون البلاغة، أسلوب فني للانزلاق، يسهل تغيير الموضوع على درجات جميلة وتوصف بأنها مريحة. والسيدة هانهاوس تتقن هذا الفن (وهل يوجد فن لا تتقنه؟)، لكنها لا تلجأ إليه في كل المواضيع. فلا رغبة لديها دائماً لتهيئة المستمع لتغيير الموضوع وإنذاره بذلك، لأن من يعلم ما قد يأتي، قد يحتاط له. كان لرنر لا يزال في المطبخ السحري للمربية الصوربية، عندما أجفلته السيدة هانهاوس بالقول: «بالمناسبة، الأفضل أن نتباحث في كل خطواتنا. فأنا بنفسي كنت قد اتصلت مع شركة ايفَرس والسيد فولفغانغ غيدرتس»، وعندما بحلق فيها لرنر، أردفت: «قصدي مناقصة كورس. أعرف، أنت لا تنوي أن تخبئ علي شيئاً، لكن عليك أن تعرف أن رجال الأعمال شديدو الحرص والشك، لا يعجبهم أن يحاصروا بنفس القضية من عدة جهات».

كيف علمت بمناقصة كورس؟

قالت دون أن تظهر إزعاجاً، كأنها تسهب في شرح موضوع قديم: «عن طريق شركة مايَر في لوبِك. أفهم قصدك. طبعاً من الجميل أن نستقل عن شولتو، وأنت هنا تستحق كل الثناء، لأنك بدأت بالتمهيد للاستقلال، ولكن الأوضاع الآن صعبة نوعاً ما. مناي ألا يكون شولتو أيضاً قد أخذ علماً به». حسناً، سيعلمان بهذا قريباً، فهما مستعجلان لأن شولتو ينتظرهما في فيسبادِن.

اعتمرت السيدة هانهاوس قبعتها الدائرية الواسعة وثبتتها بدبوس يبلغ طوله نصف متر. كانت طريقتها في تجميع الأجزاء المتفرقة لمظهرها لغزاً، طالما أثار خيال لرنر. امتص القلق الذي هيجه السفر جميع آلامه، حزنه على ايلزه، حنقه على الكسندر، خيبته من كورس وحيرته في أمر السيدة هانهاوس.

كان المصعد معطلاً. تدحرجا مسرعين على الدرج، في عبارة تنطبق على السيدة هانهاوس، وتدحرج لرنر في موجة الغبار التي أثارها ثوبها. إلا أنه توقف على الدرج الأخير، وأمسك بذراعها. ففي مكتب الاستقبال رأى رجلاً بذقن حادة يرتدي حلة سفر إنجليزية، وقبعة كروية فاتحة اللون، ينتظر البواب الغائب في الحجرة الخلفية. كانت قسمات الرجل جميعها مستقرة، عدا يسراه التي تقرع على المكتب.

«ابن العم نويكيرش من تسفيكاو».. همس لرنر في أذن السيدة هانهاوس التي بدت مصدومة بدورها. عتبة الدرج ليست مكاناً مناسباً لعقد مؤتمرات مطولة. في هذه اللحظة تبينت ثمرة حياتهما المشتركة والطويلة، التي تأخذ بخناقيهما معاً. وفي مثل هذه اللحظات لا يتفاهمان بالكلمات. بسرعة خاطر، وازن احتمالين مفتوحين: إما العودة إلى الغرفة متسحبين كاللصوص، وبذلك يظلان سجينين طالما أعلن ابن العم نويكيرش حالة الحصار، أو يفتح بمساعدة البواب، الذي يقف بحكم طبيعة العمل في جبهة الجيش الأقوى، الأبواب المغلقة، وبذلك يكون عرضة مكشوفة تماماً. ولم يبق لهما خيار سوى الهروب من الفندق، لكن عبر الفناء، لأن ابن العم نويكيرش سيراهما حتماً إذا

عبرا القاعة.

أسدلت السيدة هانهاوس خمار قبعتها، وأخفض تيودور لرنر فكه السفلي على صدره كأنه غارق في الهموم. والسيد مدير المناجم نويكيرش ينظر إلى البواب.. أسرعا الهرب خلف ظهره. بجانب باب صالة الطعام ممر يؤدي إلى الباحة بين مختلف أقسام الفندق. دخلا ظلامه.. الممر طويل لا ينتهي. فتح لرنر باباً ما. خلف الباب سلم ينزل إلى القبو تنبعث منه رائحة نتنة. فقد كان متصلاً بمكب نفايات المطبخ ومن سار فيه مرة سيفقد الشهية إلى طعام فندق «مونوبول» إلى الأبد. تردد صدى وقع أقدامهما كأنهما يسيران في بئر عميقة. ترى إلى أي غرف تنقل أنابيب التدفئة أصوات أقدامهما وهمساتهما؟ انعطفا يميناً، ثم يساراً، ثم ضيعا الطريق في الظلام الدامس. لم يكن في القبو سوى ضوء ضعيف كأضواء الكهوف والسراديب. أشعل لرنر القداحة وتقدم بحذر.. ارتفعت درجة الحرارة. هل يقتربان من نواة الأرض؟ ولماذا يستعجلان كأن المدير نويكيرش يتعقب آثارهما؟ لم يكن لرنر وحده خائفا، فالسيدة هانهاوس بدورها لا تريد الحديث مع نويكيرش في حضور لرنر. فهي لم تلتزم دائماً بما فرضته على لرنر، الاتفاق على جميع الخطوات.

قال لرنر: «لقد دخلنا في جحر جرذان. تنبعث من المكان رائحة الجرذان. ألا تشمين؟»

كانت حرارة السيدة هانهاوس عالية. من ثوبها تنبعث رائحة القرفة وصابون الورد والمساحيق والجسم الدافئ الثقيل. للمرة الأولى يلاحظ

لرنر مدى ضيق منخاريها. بهذين المنخارين امتصت جرعة صغيرة من الهواء، لكن كل ما حولها يفيض برائحتها. أرعبها احتمال أن تدوس على جرذ.

«دعنا نرجع»، عبر الظلام الحار العفن! ترى كم من نسج العنكبوت، وغبار الكلس يلتصق بكتلة تأخذ حيزاً كبيراً من الفضاء كما هي السيدة هانهاوس؟! وقفا برهة صامتين. ضجت القلوب. تحسس لرنر الجدار بيده. وجد مقبضاً. ضغطه. استسلم المقبض للضغط. فتح باب. هبت منه روائح الخبز الحار، ونفذ ضوء شاحب. شاهد درجات. صعدا عليها. فوقهما باب حديد مسدود بعتلة. الباب أيضاً حار. حتى العتلة التي جرها لرنر بكل قواه خزنت الحرارة كمكواة. شق الباب قليلاً. ملأ الشق ضوء أبيض. في الضوء غبار حليبي. لكن الشق لا يتسع أكثر. خلفه شيء ثقيل. دفع لرنر الباب بظهره. فجأة خفت ممانعته. سقط الحمل وراء الباب. ودخل لرنر والسيدة هانهاوس في مستودع المخبز الذي يتشممان رائحته منذ إقامتهما في الفندق.

ما الذي سقط وراء الباب؟ كيس طحين. كان قد تمزق ونشر غيمة من المسحوق الأبيض. جرت السيدة هانهاوس ثوبها على المسحوق الأبيض الذي يصل إلى كاحل لرنر. بدآ بنفض الطحين عن ثيابهما، ولكنهما بذلك أثاراه أكثر. نشرا مزيداً من الغبار. جرأة السيدة هانهاوس وهيبتها حمّساها على المضي قدماً والمرور داخل المخبز بين صفائح الخبز وآلات العجين والعمال الذين فغروا أفواههم، غير مصدقين ما يرون.

على مقبرة ستاغلينو في جنوا (ألم تقض السيدة هانهاوس أعواما في جنوا؟) ازدهر فن الأضرحة. هناك كانت تصنع تماثيل للموتى، تجسد كل تفاصيل زيهم من دون إهمال ثنية واحدة من ثنايا الوجه والثياب لتوضع على قبورهم، كي تروي التماثيل الكلسية البيضاء للخلَف ما كان السلَف يعتني به. وعلى غرار الضيوف المتحجرين في مقبرة ستاغلينو سارا بين عمال المخبز، والشباب المترعين بالحياة الحارة.. السيدة هانهاوس والسيد لرنر أبيضان من قمة الرأس إلى أخمص القدمين. لم تتحرك يد، لم يصدر صوت. وصلا بسرعة إلى باب الفناء، وأسرعا كذلك في عبوره كي لا يوقفهما أحد.

وقفا أمام البوابة الرئيسية على الأرضية الخشبية. شاهدا لوحة كتب عليها: «دالتون، صوابين ناعمة، فرانكفورت». آه لو أن تلك الصوابين الناعمة بين أيديهما الآن، وآه لو يصلان إلى غرفة هادئة فيها فرشاة للثياب !! لكن في قاعة الفندق ينتظرهما التنين.

«سنذهب إلى ساحة المحطة ونبحث هناك عن خادم يمسح الغبار»، قال لرنر. مدت له السيدة هانهاوس ذراعها مستسلمة.. خارت قواها في الأحداث، لكنها لم تتذمر. وهل سمعها أحد تتذمر يوما؟

لو أن السيدة هانهاوس انحنت صباحاً على وضع الأبراج والنجوم، ربما ما كانت ستخرج من غرفتها ولربما تجرأت حتى على تأجيل موعد شولتو دوغلاس. فيومها أسود منذ البداية. لم يكن الطحين الذي يغطيها، قبعة إخفاء وسريعاً ما فترت قدراته. ظهرت ألوان الجلد والثياب من جديد. وبذلك بدا وضعهما أكثر عسراً. فزيهما لا يحميهما من تقلبات

الحياة الممضة.

لم يمضيا بعيداً حتى قطع طريقهما مدير المناجم نويكيرش. كان يذرع المكان أمام باب الفندق، مصمماً كل التصميم على الإمساك بهما. عندما شاهد لرنر كادت عيناه تخرجان من محجريهما. حدق فيه محمرا من الغيظ.

ثم قال حانقاً: «ابن العم لرنر». كأن ذقنه تطول بفعل الضغط الداخلي.

«ابن العم نويكيرش، اسمح لي أن أقدم لك مستشارتي وشريكتي السيدة هانهاوس». لم ينطق عبارته بلباقة، بل كصبي يقر بالذنب. وعموما كان لرنر قد فقد اللياقة. ففي هذا الوضع وهذا الوقت لا مجال للتفاوض. طلب إذن ابن العم كي يبدل ثيابه.. لم يعط أي مبرر لحاله، ولا أراد نويكيرش أن يسمع مبرراً.

بل قال فجأة بنبرة ساخرة: «تفضل يا سيدي وبدل ثيابك، لكن اسمح لي بمرافقتك إلى غرفة جنابك. فأنا لن أنتظر ساعات في القاعة». ومن القادر على أن يجادله في هذا الحق؟ إذاً دخلوا الفندق. كانت حاجة السيدة هانهاوس إلى الترميم أقوى من حاجة شريكها، ولكنها تبعت السيدين. نظر إليها لرنر نظرة ملؤها الارتباك والامتنان، فلم تتركه وحيداً.

لم تكن غرفة لرنر جاهزة لاستقبال الضيوف. عندما شاهد ابن العم نويكيرش ورق الجدران المخطط، قصعة الغسيل القذرة والسرير المهمل، قال: «جميل. أرى أني الآن في قلب هيئة جزيرة الدببة الألمانية. إذاً فعلاً

توجد هيئة ألمانية لجزيرة الدببة. ولا شك في وجود جزيرة الدببة فعلاً على سطح الأرض، فقد قرأت عنها في المراجع».

«يا ابن العم نويكيرش، رجاء».

«لا آسف. أنا من يرجو حضرتك. لا لن أجلس في سريرك يا ابن العم. سأظل واقفاً. لا بد من أن السرير أجدر بالسيدة الموقرة، فالغرفة غرفتها ...»

«ابن العم نويكيرش ...»

«ابن العم تيودور لرنر. أنا مدير مناجم في تسفيكاو، حيث لم تكن طوال عمرك. لا حضرت دفن والدي ولا حفل زفافي. لكن فجأة ظهرت جزيرة الدببة الملعونة في حياتك، أو وقعت أنت على الجزيرة، وفجأة أصبحت صلة القربى بمدير المناجم مفيدة ... ليس كمستشار، لا العفو، فأنت تفهم في مجال الفحم أكثر مني، لكن كاسم وضمان وكفالة وعلّاقة. وفي هذا الشكل استفدت مني كثيراً، رغم أني أكدت لك منذ البداية أنني لا أريد التدخل في القضية ...»

«أكدت لي أن .....؟؟»

«سأشرح لك هذا لاحقاً»، قاطعته السيدة هانهاوس. كانت قد فكت خمارها وظهرت رقبتها وكتفاها ببريق التافتا، لأن الخمار وقاها من الطحين.

«باعتباري موظفاً لدى حضرة جنابك وضامناً لمؤسستك التافهة صرت ذريعة لطلبات لا تنتهي من جميع الجهات. رجل اسمه اوتو فال، من هامبورغ، يخبرني أنه أعطاك عشرين ألف مارك عربون حصته في

الأسهم. بورخارد وكنور، أيضاً من هامبورغ، يعلمانني أنهما يجدان نفسيهما مضطرين إذا دعا الأمر لإرغام ابن العم لرنر على دفع قسطه، وإلا سيعمدان لبيع الهيئة. وأخوك فرديناند وضع تحت تصرفك اثني عشر ألف مارك. أين هي النقود؟ قف. لا أريد أن أعرف ماذا فعلت بها. عندي حل أفضل. لقد بحثت عن السيد مهندس المناجم مولمان، وعثرت عليه في بنسيون محترم مثل غرفتك هذه. كان سكران، لكنه كان قادراً على الكلام، وقال لي إنه لا توجد على الجزيرة أي مرافق، لا منازل، لا سكك، لا أكواخ، لا أنفاق ولا أي شيء وت ..ت ..ت ..». (هنا قام نويكيرش بمحاكاة لسان مولمان الثقيل، دون أن تظهر في صوته أي علامات للمرح). أقر مولمان بأنه «خدش» المكان الذي نقبت فيه الجمعية الألمانية لصيد السمك في الأعالي. كل التقارير اللاحقة التي كتبها الدكتور شرايبنَر والمهندس آندرسون تستند إلى معطيات مولمان لأن «الس ... س ... س.. السادة لم يدوسوا أرض الجزيرة. والأنكى من كل هذا، أسمع أن مقايضاً أفاقاً، معروفاً بأكاذيبه من جنوب أفريقيا، اسمه السيد دوغلاس، قد باع هيئة جزيرة الدببة كلها بمائة وخمسين ألف مارك. أين هو المال؟ طبعاً ما عندك جواب عن هذا السؤال أيضاً، لكن أنا عندي جواب لك. سأسافر من فوري إلى تسفيكاو وأكتب رسائل إلى السيد اوتو فال، السادة بورخارد وكنور، السيد فرديناند لرنر، مصرف كورس في لويبك، السادة ايفلسفالد وشرادر، والمستشار القانوني فريسبل وغيرهم وغيرهم، أخبرهم جميعاً بكل ما أعرفه، وأضيف إليه أنني ليست أدنى علاقة لا بابن العم لرنر ولا بأي عمل من

أعماله.. تصبح على خير».

بضغط عال وضع قبعته الكروية على رأسه، وخرج من الباب. جلس لرنر والسيدة هانهاوس في السرير. شعر لرنر بأن القلب والأمل سحبا منه كما تسحب السدادة من فوهة الزجاجة. قالت السيدة هانهاوس: «هكذا إذاً. إن ما قاله عن شولتو مهم فعلاً».

-32-

ذكريات عن كابري

متى شاهدا شولتو آخر مرة؟ جواب هذا السؤال ليس سهلاً، فالمضارب الكبير من المستعمرات كان ينعشهما برسائله واتصالاته الهاتفية والأوامر التي يصدرها عن طريق الكسندر يومياً ويشغل خيالهما دون أن يكون معهما باللحم والشحم. فحين يقال إن دوغلاس على الهاتف، تجفل السيدة هانهاوس، كأنها كانت تفكر فيه تواً وضبطت في موقفها ذاك. كانا قد استلما بروتوكول مجلس البرلمان الخرافي من يديه الطاهرتين شخصياً ولن تنسى قط حدة تأنيبه وتعنيفه حين لم ير علامات البهجة والشكر على وجهيهما.

«أعتقد أنكم لا تدركون من أين بدأتم وإلى أي فضاء ارتقيتم بفضلي. أود تذكير السادة بمنطلقهم من جميع النواحي، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والشخصية كذلك» أغرمت السيدة هانهاوس بطلاقة لسان دوغلاس بالألمانية وذهلت، لكنها دافعت عن نفسها. فالكلمة الأخيرة يجب أن تبقى لها، كلمة لطيفة تعيد الأمور إلى نصابها الإنساني.

واليوم سيلتقيان بشولتو من جديد. لقد وضع نصب أعينهما عملاً، ترجمة أحد تقارير الدكتور شراينَر إلى الإنجليزية.

كان قد عقب ممازحاً: «جزيرة الدبة عملية لا تجرؤ عليها إلا أمة بحرية. الألمان ليسوا سوى فلاحين يرتدون ثياب البحارة». اضطرا

لإخطاره بأن السيد نويكيرش يبذل جهوداً عظيمة من أجل الهيئة، وتبريراً للتأخر أرسل لرنر برقية إلى فندق روزِه في فيسبادن. ورغم أن كل حركة من حركات السيدة هانهاوس أتت في المكان المناسب، إلا أنها تأخرت حتى استعادت رونق تمثالها تماماً.

«اللون البني خطأ ساطع في الأمكنة الفاتحة، لكني قررت منذ تفتحي أن أرتدي الثياب البنية. فاللون البني وقور، محترم ويعبر عن النضوج والذوق العالي والخبرة في الحياة. ثم إنه عملي جداً لطريقة حياتي. أشعر بنفسي معه خفيفة في الصباح والمساء». حين كانت تنطق بهذه الحِكم، يدرك لرنر مدى سعادتها. فهذه الحكم لم تكن مجرد قناعة حمقاء، بل فرح حياة طائر ينظم ريشه بمنقاره ولا يتصور جمالاً أروع من جماله. وهذا الاحتفاء بالذات، يحول بينها وبين إحساسها بالواقع. فقد استعادت الجد والهمة بمجرد أن جلسا في القطار إلى فيسبادن.

«مواردنا المالية ضعفت. إننا نصرف أقل ما يمكن، لكن هناك أعمالاً كلفتنا مبالغ طائلة، كان لا بد لنا من صرفها. مثلاً تقرير السيد الدكتور شرايبنر لأن مولمان فقد كل مصداقية بسبب سكره الدائم، ثم كان يلزمنا اسم معترف به وابن عمك نويكيرش نفسه برهن تواً على قيمة اسم شرايبنر». لم يفهم لرنر كيف برهن ابن العم نويكيرش على علو صيت اسم شرايبنر، فهي تنتقي من المجموع تفاصيل تغذي روحها، كما تنبش الدجاجة بين الحصى والأعشاب وتلتقط حبة الذرة الذهبية اللامعة بينها.

«كما كان علينا دفع نفقات السهرة. طبعاً عمل جنوني في وضعنا

المالي الراهن، لكن الجنون الأكبر هو ألا نقوم به».

«نحن أُرغمنا على الدفع ولم ندعُ أحداً»، علق لرنر عابساً.

تجاهلت اعتراضه وعقبت: «لدينا تكاليف سفر ومصاريف أخرى كثيرة. باختصار، إذا أردنا أن نظل حركيين بشكل من الأشكال، فلن نقدر على دفع أجرة الفندق في الأسابيع الثلاثة الأخيرة. سأثير هذا الموضوع مع شولتو. علينا أن نصل أخيراً إلى نتيجة ونحسب ميزانيتنا ونعرف ما هو حقه وما هو حقنا. يكفي». هكذا استعدت للقائه. في الخارج تمر بهما بحبوحة حياة مدينة هوفهايم على نهر الراين بجفنات العنب على سفوحها، التي تنتج نبيذاً يستمتع به شولتو. كانت الطبيعة مسالمة ومنشرحة بحيث لا يمكن تصور حياة لا يسودها الوئام والسلام. لاحقاً سيتذكر لرنر كم كانت السيدة هانهاوس مطمئنة، هانئة البال. ولا أحد يتخيل أن هذه السيدة كانت قبل قليل في قباء حي المحطة هربا من وجه رجل غاضب.

لما وصلا إلى فيسبادن لم يستقلا دروشكا رغم تأخرهما ثلاث ساعات عن الموعد المضروب، بهدف توفير المال. من ينظر إليهما يظنهما وجيهين يقضيان فترة انتجاع، أمّ شابة مع ابنها المهيب يتنزهان في شارع فيلهِلم، ويتوقفان حين تنقطع أنفاس الأم ليتفرجا على المناظر البديعة، لأنها لم تعتد السير على القدمين. وقبل أن ينعطفا إلى مدخل فندق روزِه قالت له بصوت الواثق: «في طريق العودة سنأخذ دروشكا». هكذا هو الإنسان، يحلم بمستقبل سعيد دائماً، ويجب أن يحلم، وإلا بقي قعيد البيت.

كانا من الوجوه المعروفة في الفندق بشخصيهما، وكذلك بشخص الكسندر الذي أدام الإقامة ويعنف المستخدمين فيه كما لا يفعل إلا سيد كبير، دون أن يثير الاستغراب والاستهجان، بل إنه على العكس يثير الموافقة والإعجاب. كان شولتو دوغلاس، بالموجة ناصعة البياض في شعره قاتم السواد قد اعتاد الاعتكاز على الكسندر (يسميه: «الِكس، عكازي الحي») وهذا يضفي في أعين المستخدمين على أوامر السكرتير وزناً ثقيلاً، كأن الإنجليزي يصدرها بنفسه. لا شيء يعلو سكرتيراً مغروراً. فهو من يعطي لسيده الفرصة كي يكون لطيفاً مع الآخرين دون أن يفسروا لطفه بالضعف. وهل يعرف المستر دوغلاس الضعف؟

احتفى مدير الاستقبال بالسيدة هانهاوس والسيد تيودور لرنر بأدب متحجر. لن يكون لكلمات طبيب البابا الشخصي في منشوره الخاص عن صحة قداسته رنين أصلب من رنين كلمات الرجل متصلب القسمات: السادة سافروا. ألغوا حجز الجناح. لم يغادروا الفندق لأجل قصير بل إلى الأبد.

«ألا تفهمني السيدة الموقرة؟ السيد دوغلاس والسيد هانهاوس لا يقطنان بعد في الفندق».

«لكننا أبرقنا»، قالت السيدة هانهاوس. كأن كل برقية تصل إلى المرسل إليه ولا بد.

قال الرجل حامل المفاتيح على خصره: «استلمنا البرقية، ولكننا رميناها في سلة المهملات من فورنا. هذا ما أمرنا به السيد دوغلاس: لا ترسلوا ورائي، لا تعطوا عنواني الجديد لأحد، ارموا كل ما يأتيكم، لم

يعد يهمني شيء». لدى هذه الكلمات الأخيرة حلت وقاحة هازئة محل التأدب الحجري في وجه الرجل.

ذهلت السيدة هانهاوس برهة، ثم تحسست ذراع السيد لرنر قائلة: «رجاء، قدني إلى الخارج».

سارا في الشوارع على غير هدى.. كان لهما أن يتجها مباشرة إلى المحطة (لم يعد أحد يذكر الدروشكا)، لكن لرنر شعر بضياع صديقته، وكان بذاته مشتتاً لا يعرف غاية لسيرهما. كانا في الخريف. اليوم جميل ودافئ، لكن الطقس تبدل، اكتست الغيوم غلالة سوداء منذرة بهطول المطر. قرب قاعات، المنتجع مفتوح الأبواب للترحيب بكل النزلاء، نزل المطر. بدا لهما مقعد مطلي بالأبيض قرب نخلة ثخينة مثل جزيرة. لجآ إليها والتزما الصمت.

لم يجرؤ لرنر على النظر إلى السيدة هانهاوس. لم يرغب في أن يكون شاهداً على انهيارها. لكن القادم أعظم.. سمع صوت أنفاسها. انحنت قليلاً، ثم أخرجت من حقيبة يدها السوداء، المزينة بالخرز، شيئاً.. منديلاً صغيراً. مدته إلى عينيها ومسحتهما بحذر.

«خوفي لا يوصف»، قالت هامسة وأردفت أنها عاشت هذا الخوف مرة أخرى في ماضيها. آنذاك أيضاً اختفى شولتو فجأة، بالأحرى «غاب عن العيون»، وآنذاك أيضاً احتارت، لا تعرف ماذا تفعل. تلك كانت خطوة ذكية منه طبعاً، فهي بذلك لن تعرف جواباً عن الأسئلة التي ستنهال على رأسها. فهو ذكي، ذكي جداً، للأسف له تصرفات غريبة أحياناً، لكنه يعود بعدها ويعرف حلاً لكل مشكلة.

آنذاك، كان شولتو دوغلاس قوياً بالفعل، فعلاقاته وثروته لا تقانان بما هما عليه اليوم. رجل له أصدقاء كثر في أعلى المناصب. آنذاك ما كان يسمح للمستشار الاقتصادي غيبرت تسان بأن يقترب منه ولا لكل تلك الأشكال الهشة المتكسرة مثل آلبرتسهوفن وفريتسه وفريتسل الذي يقاتل قتالا للسماح له بممارسة مهنة المحاماة (اتهم باختلاس أموال موكليه)، هؤلاء ما كانوا يجرؤون على الجلوس في مجلس المستر دوغلاس. قال لرنر، إنه على الأقل صار يعرف الآن شيئاً عن ضيوفه.

«لا، لا، ما فعله كان صحيحاً»، قالت السيدة هانهاوس ساهمة وعادت من فورها إلى همومها. مناجم الزنك في الكونغو، مناجم الماس في جنوب أفريقيا، كانت يد شولتو في كل مكان. دون إرادة منه رأى لرنر اليدين البيضاوين الصغيرتين، اللتين تغطيهما بقع الشيخوخة، تمتدان إلى المناجم السوداء كجحور الثعالب. أتمت الحديث: آنذاك كان شولتو في مصاف أعظم الرجال وهذا ما شهدته بعينها. تعرفت إليه عندما كانت تعمل في تجارة التبغ، حيث كانت بينهما «نقاط تماس كثيرة طبعاً». لم يسأل لرنر عن سر عمل إمبراطور الماس بتجارة التبغ، لأنه توقع سماع أشياء أكثر تشويقاً.

«آنذاك انتقل شولتو إلى كابري. أنا بقيت في نابولي التي أعرفها جيداً، كما تعلم. إن حياة كحياة المستعمرات كانت صعبة المنال في أوروبا آنذاك، وكان دوغلاس قد تعلم كيفية ممارسة حرياته. كان يعيش كل رغباته بعيداً عن التقاليد المرهقة، تفهمني! تعود شولتو ألا يعتبر قيد أنملة بما قد تسمح به المعايير العامة وتحتمله.. أنا أتفهمه وأحاول ألا

أكون قاضية عليه، لكنه فعلاً تجاوز كثيراً ما نعتبره أنا وأنت مقبولاً».
حذرها يثير قلب لرنر. لقد تعلمت أن تتفهم كل ما يجري من حولها، وألا ترفض أي شيء، لكن هناك حداً يحير فكرها. هل كان عليها فعلاً، هل اضطرت إلى تجاوز هذا الحد؟ أم أنها كانت سلفاً في مجال تنفث أراضيه أبخرة سامة؟

«على الجزيرة استأجر شولتو فيلا معزولة، على صخرة عالية فوق البحر، لم تكن صفحتها بيضاء. كان مالك الفيلا قد قتل نفسه بجرعة قوية من الأفيون في الصالون الصيني. آنذاك كان لدى شولتو سكرتير (الكلمة كانت ولادة عسيرة، تنحنحت وسعلت حتى قدرت على تنظيف حنجرتها مما لصق بها). سكرتير إيطالي، شاب جميل، كانت لي علاقات جيدة معه. انظر، شولتو يحب الشبان الجميلين، وأنا أتفهم هذا كليا، فهو ليس شذوذا (هي التي حصنت نفسها ضد أي هوى، عدا حبها لابنها، كانت متفهمة، متسامحة من دون حدود)، لكن أكثر ما يحبه هو ... هل شاهدت الكدمة الزرقاء على عين الكسندر في المرة الأخيرة؟»

أومأ لرنر، لكنه لم يش بأنه يتمنى لو أنه هو الذي طبع البقعة الزرقاء على عين الكسندر. ألا يستحق الكسندر أكثر من علقة واحدة؟

أردفت السيدة هانهاوس وهي تقرأ أفكاره: «لا، لا، ليس قصدي ما فهمته. شولتو يحب الألم. إنه يسر بإيلام الآخرين. هكذا طبعه».

وضع لرنر كفيه على وجهه. رأى ممر الفندق المظلم ومصباح الغاز الباهت ورأى الآنسة لولوبو قربه وهي تضغط منديلاً مشرباً بالدم على

فمها.

«كنت تعرفين هذا؟»

«نعم كنت أعرف»، قالت السيدة هانهاوس متأوهة. نصبت قامتها وتابعت حديثها بحيوية: «أنا بالنتيجة أعرف كل شيء، وأعرف أيضاً قدراتك».

«ولكن كيف طاوعك قلبك ....؟؟» على أن تسلمي ابنك والآنسة لولوبو إلى رجل شرير مثل دوغلاس، لكنه لم ينطق السؤال. ردت عليه بإلحاح وود:

«اتخذت في حياتي قراراً. لا أسمح لأحد بأن يخرجني من لعبة. إذا جلست إلى مائدة اللعب، فإني أبقى جالسة حتى أربح. لا أعرف كلمة: أنا أتوقف. فمن يتوقف يخسر. من يقل: هذه هي حدودي يخسر. من يعتقد أن نهايتي حانت، لا يعرفني جيداً، فأنا مستعدة للكفاح إلى أبعد الحدود ولهذا (أخذت نفساً ونظرت إليه مندهشة منه) يريد أن يرغمني على أن أكون شريرة مثله بالضبط، يريد أن يأخذني إلى أقصى الحدود. لكنه غير مجبور على هذا فأنا مستعدة لكل شيء ....»

خشي لرنر أنها فقدت عقلها نتيجة التوتر والخوف الشديد.

عقبت بنبرة مختلفة، هامسة: «بعد رحيل شولتو المفاجئ آنذاك، حدث ما حدث. بعدها عثروا على السكرتير الشاب ميتاً في الفيلا وحده. طبعاً لم يكن يريد قتله، لكن يصعب شرح هذه الأمور للشرطة».

استعادت ذهنها العملي، لكنها كفت من ثم عن الكلام. توقف المطر.. أخذا دروشكا إلى المحطة. في فرانكفورت رافقها لرنر بأدب

إلى غرفتها. فتحت الباب، كان النور مضاء، وكان الكسندر في حذائه مستلقياً على سريرها ويدخن سيكارا ثخيناً. حدقت السيدة هانهاوس جامدة القسمات، ثم انطلقت في العويل.

-33-

إلى حديقة الحيوان على وجه السرعة

إن اختفاء شولتو دوغلاس، هيجان مدير المناجم نويكيرش وفورته العارمة وتهديداته بفضحهم، دلالة على العجز الكامل لهيئة جزيرة الدببة الألمانية عن المناورة، إلا أن مسكن السيدة هانهاوس يكون أجمل ما يكون، حين تكون كل الأبواب مسدودة في وجهها. قضت اليوم التالي لتراكم الكوارث في معطف الصباح التركي، وتفرغت لثوبها البني التافتا، «زيها الرسمي»، كما تسميه تحبباً. تجمع حولها جبل من القماش، وتفحصت ثناياه سنتيمتراً سنتيمتراً (عشرين متراً من التافتا بخياطة خلاقة) كأنها لا هموم لها غيره. فقد كان عليها تنظيف الثوب من البقع بمختلف المحاليل التي اشترتها لهذا الغرض، ولكنها تستخدم علاوة عليها الماء والصابون، ببالغ الحذر كي لا تخلف آثاراً. كانت بعض الخيوط منسلة في مختلف الدرزات، والحواف مجدولة هنا وهناك. بدأت بشد الثوب بخيوط بنية حريرية، شق درزات وإعادة خياطتها. بدلت عدة أزرار من الأزرار الستين التي لا تزرر أي شيء. لحسن الحظ كان عندها احتياطي من الأزرار الملبسة بالتافتا. ثم كوت الثوب قطعة قطعة تحت خام أبيض ونظرات الإعجاب. وعندما علقته أخيراً كان مثل ريش عصفور غطس ونفض قطرات الماء ويجلس منفوشاً على غضن شجرة. أنجزت مهمتها، ولن يشاجرها أحد في هذا، سواء كان مدير المناجم نويكيرش أو غيره.

كما أن مؤجرة البيت في الضاحية الغربية الجديدة لم تخف إعجابها بالفخامة المنتعشة المحيطة بالسيدة هانهاوس. وبينما هما تذرعان الغرف العالية، التي تصدى قليلاً لعدم فرش السجاد بعد، شرحت السيدة هانهاوس أنها بعد حياة مرهقة في هولندا وبلجيكا، زوجة لمورِّد كبير، تريد أن تنعم أخيراً بحياة الأرملة الهانئة في بيت صغير، لتتفرغ لابنها، مدعية أن الكسندر سينهي دراسته في فرانكفورت قريباً ويحتاج إلى أمه بجانبه. حين يحكي الأغنياء عن همومهم الصغيرة مبهّرة بآفاق مستقبلية متواضعة، فإن هذا يشرح قلب الآخرين. لم يكن البيت كبيراً. سرت المؤجرة بأن امرأة وحيدة ستسكن في بيتها وهذا قبل أن يصل متاعها، وبينه بيانو كبير سيصل قريباً من بروكسل.

«السكن في بيت خاص يختلف كثيراً عن حياة الفنادق»، قالت السيدة هانهاوس، في حديقتها الشتوية المزينة بعدة سلال، لكنها تبدو جرداء، للرنر الذي علم بانتقالها من رسالة تركتها له في مكتب الاستقبال في الفندق، ما أدهشه. وكي لا تثير قلق المديرة، تركت الكسندر في الفندق.

«نحن لا نستطيع دفع أجرة الفندق وأنت تستأجرين شقة فخمة»، قال لرنر وهو يهز رأسه، ولحسن الحظ بصوت خفيض، ففي هذه اللحظة دخلت خادمة المؤجرة، حاملة إبريق القهوة. وضعت السيدة هانهاوس إصبعاً على فمها بدلال. حين ذهبت الفتاة تابعت الكلام: «حياة البنت مع خطيبها نغص. عريف في فرقة المشاة. أنا أقدم لها النصح، وكذلك تفعل مشغلتها. ناقشنا مسائل ورثتها. قالت لي إن همّاً قد انزاح عن

قلبها وتريد أن تقبل يدي. بالمناسبة لن أقيم هنا أكثر من ثلاثة أسابيع. قبل أن يأتي موعد أول دفعة، نكون في هامبورغ. يجب أن نسيّر عملنا مع «فيلِم بارينتس» وإلا ذهب كل ما قمنا به حتى الآن هباء».

هنا كانت على حق. «فيلِم بارينتس» سفينة صممت لتأخذ مكان هيلغولاند. لكن كيف سيسيّر العمل على «فيلِم بارينتس»؟ من على استعداد ليهدي تيودور لرنر سفينة؟ كانت نهاية المهندس أندريه أليمة. حدد مصيره دب قطبي، ليس لأن الدب التهم المستكشف، بل لأن المستكشف أكل لحم الدب. مدير التحرير شوبس يدقق في كل التفاصيل التي اطلع عليها هذه المرة في الوقت المناسب. عندما قرأ لرنر عن الديدان التي اخترقت جدار معدة ربان السفينة الهوائية، وضع يده على فمه، كي لا يتقيأ.

«يا ترى، ما أحوال رئيس التحرير شوبس؟»، سألت السيدة هانهاوس متفكرة. وقبلها بقليل كانت قد أشارت للرنر إلى بطاقة عقد قران السيد موريتس شوبس على باولينه، كريمة السيد شميديكِه. استغرب لرنر أن يشرفه مسؤوله السابق بإرسال الخبر، ولهذا خفي عليه أنه انتقل من يد امرأة ليد امرأة. «جريدته تضعف يوماً بعد يوم، لكن عموده ناجح. لم يعد يحب النكات. ثم إنه ....». رفعت الجريدة عالياً بحيث رفرفت مثل طائرة ورقية في الهواء. «الحل بيد شوبس مرة أخرى. إذا حصلنا على سفينة «بارينتس»، فعلينا أن نتقدم بالشكر لشوبس».

«أرجوك لا تعمليها»، توسل إليها لرنر.

«بل سأعملها»، ردت السيدة هانهاوس متمطقة، كما هي عادتها

حين تطير على جناح جريدة. الجرائد تفسد بسرعة، تلف بها الأسماك وبعض الكتاب يوجه طعنة الرحمة إلى بعض أفعاله المتسرعة. لو رأى مثل هذا المحرر السيدة هانهاوس تقرأ الجريدة، لواساه منظرها.

قالت بتلك النظرة المرهقة حين تقرأ مقالاً: «هنا. دب القطب في حديقة الحيوان في برلين مات فجأة في العشرين من العمر. الآلاف من سكان برلين تلقي عليه نظرة الوداع».

أحياناً يؤمن لرنر بأن السيدة هانهاوس فقدت إحساسها بالواقع نتيجة لخطوب الدهر الكثيرة في حياتها. إلا أن التفكير العميق هنا، في الشقة التي لن تدفع أجرتها وستهرب منها قريباً، بموت الدب وحزن أهل برلين عليه، جنون واضح. أنزلت السيدة هانهاوس الجريدة عن عينيها، تأملت في يأسه المرير وبدأت بإدخاله في متاهة أفكارها بأناة وصبر.

لا بد من أنه سمع بحب أهل برلين للحيوانات؟ إن حبهم للحيوانات يتجاوز كثيراً الحب المعتاد للكلاب والقطط المدللة. في برلين يكاد الناس يعبدون الحيوانات عبادة. في برلين تسود ديانة الحيوان. ربما كان مؤسسو هذه الديانة من الهند أو مصر. انتقلت رؤوس الكلاب، رؤوس الصقور، القطط المقدسة والتماسيح من جدران معابد مصر إلى برلين ورفعت فيها إلى السماوات. تحولت إلى حروف في كتاب مقدس. في الهند كانوا يقدسون غانيش، ابن الإله شيفا، ذي رأس الفيل والجنرال القرد هانومان، رسول الإلهة راما. أهل الهند يعبدون البقر المقدس، الثعابين المقدسة، الجرذان المقدسة. لم ترغب في أن تطنب في الشرح،

فلا بد من أن للهنود أسبابهم. حسب الجريدة، فإن قداس الهنود يقام بالشكل التالي: يتوجه الكاهن كل صباح إلى تمثال الإله، يركع أمامه، يقرع جرساً كبيراً ليوقظ الإله من النوم، يغسله بالماء والحليب، يرمي عليه ثوباً جديداً، يشعل أعواد البخور، يرسم نقاطاً ثخينة بالأحمر والبرتقالي على الرأس البرونزي، يضع إكليل ورد في رقبته، يطعم الإله بأن يضع له طعاماً في قصعة صغيرة، ثم يسدل الستارة، ثم يرفع الستارة بعد قليل ويأخذ القصعة التي لا يلمسها الإله.

أكملت روايتها: «أنا من ناحيتي لا أنتقد كل هذا. لو كنت أعيش في الهند، لفعلت نفس الشيء. مبدئي هو التأقلم، كما تعلم. بالمناسبة، يجب علي السفر مرة إلى كلكوتا، وأغلب الظن أني سأسافر إليها يوماً ما. لا توجد طرق مسدودة إلى الأبد.»

الهند والحيوانات والآلهة والآن برلين وحديقة الحيوان. في عين السيدة هانهاوس تمثل حديقة الحيوان في برلين مركزها الروحي. ومدير الحديقة، السيد د. هيك، هو المفتي العام، الخليفة، الأسقف ورئيس الحاخامات في برلين. هنا تتربع الحيوانات في أقفاصها، تبتهل إليها العيون، يغذيها الحراس، يغسلونها، يدللونها، يخرجونها إلى الهواء الطلق، ثم يعيدونها إلى الأقفاص. حراسها هم كهانها. بورع وعن بعد، خلف خنادق عميقة وأسيجة عالية، تقف جموع الشعب المؤمن، يحشدها الفضول أو الملل أو الغايات العلمية أو حب مشاهدة الحيوانات الغريبة، هذا ظاهرياً، إلا أن باعثها الحقيقي هو التدين المتستر خلف الغلالة الرقيقة لدواعي الحياة اليومية العقلانية. للحيوان في

الحديقة وجود مقدس. فهو محرم مثل أبقار مدينة حلب. إنه تجسيد للإله.. خرسه وعمقه إرادة إلهية.

لكن هل يصلي أحد لحيوانات حديقة برلين؟ طبعاً يصلون للحيوانات. أتقى الصلوات، بكل معنى الصلاة الديني. طبعاً من دون طقوس، بحركات معينة، بالمساعدة هنا وهناك، بإطفاء الحرائق ودفع أجرة الدخول. إن المؤمنين يغرقون في تأمل وجوه آلهتهم الحيوانية.. يصلّون صلوات من القلب أمام الحيوان.. يحاولون الاقتراب منه روحياً، الدخول في علاقة معه، تقديم أفضل ما لديهم للحيوان، التضحية بالنفيس للحيوان، ثم يقومون، ثم يذهبون فرحين إلى البيت. طبعاً يتم تعميد الحيوانات. ومع أنها في أصلها مقدسة، فإنهم يطلقون عليها أسماء ليبعدوها عن الغابات الاستوائية والأفريقية ويقربوها من قلب برلين. اسم الأسد هو إد، اسم وحيد القرن هورست، واسم دب القطب هاري.

حاول جلالة القيصر أن يحول عاصمته إلى روما بروتستانتية، بكنائس جديدة فاخرة، ولكن الدين الحقيقي لم ينتشر عبر فيض أناشيد الأرغن، بل عبر شراء كيس فستق أمام قفص القرد.

«ولهذا يتراكم المال لدى المشرفين على حديقة الحيوان في برلين مثل القش. بعض الناس يورثونها كل ثروتهم، والمشرفون لا يعرفون كيف يصرفون أموالهم. فهم ليسوا رجال أعمال. كل أولئك الدكاترة والعلماء محتارون في إدارة تلك الأموال. إنهم هناك يبحثون كالمجانين عن أفكار جديدة. أتعرف ماذا ينقص حديقة الحيوان في برلين؟ سفينة

في بحر القطب. جمعية العلوم في فرانكفورت أرسلت سفينة إلى هناك، الجمعية الملكية البريطانية أرسلت سفينتين، لكن برلين ...؟»

«ومن أين تعرفين هذا؟» سأل لرنر مندهشاً.

قالت السيدة هانهاوس: «لا أعرف، لكني أحسب وأستكمل. هل تعرف ما هو شغلك اعتباراً من الغد؟ سترغم السيد د. هيك على شراء سفينة فيلِم بارينتس».

«لكن هذه نفس الحيلة التي عملناها على جريدة برلين وشوبس»، تنهد لرنر. كرجل يقف على سور عال ولا يستطيع التقدم خطوة واحدة، رأى لرنر مخلفاته لدى جريدة برلين. كلا، لن يستطيع فعل نفس الشيء مرة ثانية.

قالت السيدة هانهاوس: «هدئ من روعك. أولاً لن نرسل هذه المرة رسالة إلى مستشار الرايخ، وثانياً سينال د. هيك دبة القطب فعلاً».

-34-

روزنامة سفينة فيلِم بارينتس

«أنت بحاجة إلى سفينة تتحملها ميزانيتك»، قال السيد كروكلسِن، عضو شركة هوفمان وكروكِلسن وأولادهم، للرنر عندما لاحظ قرب سفينة فيلِم بارِينتس أنه غير متحمس كثيراً. ظهر الحرج على وجه لرنر حتى وهو يساوم على أرخص السفن دون أن يعلم من أين يأتي بالثمن. كان كروكلسِن قد تذكر السفينة فيلِم بارينتس عندما فهم أن لرنر ليست أمامه خيارات كثيرة واستهوته فكرة بيعه هذه السفينة تحديداً. مقارنة بأهل هامبورغ كان كروكلسن سلساً طلق المحيا. صلعته المتعرقة توحي بأنه مقاتل حقيقي. كان لرنر يرتدي «الحلة الجميلة»، كما أقنعته السيدة هانهاوس. والياقة المنشاة تقوي رقبته كياقة القساوسة البيضاء وتضفي الوقار على وجه الشاب البريء. لا يمكن التكهن بأن كروكِلسن كان يشك في قدرة الشاب على الدفع.

«سفن بحر الجليد لا يطول عمرها. فهي تتعرض لعوامل كثيرة. لكن لمن أقول هذا، أنت تعرف أكثر مني، فقد جربت بحر الجليد واختبرته. عمر فيلِم بارينتس اثنتان وعشرون سنة. صنعت في أحواض مويرزينغ وهوخنس في امستردام وبهذا فهي صبية متقدمة في العمر ولا تتحمل الرحلات البعيدة فعلاً. لهذه الرحلات تحتاج إلى سفن لا تحكمها كتل الجليد، وأعتقد أنه يجب عدم تعريض فيلِم بارينتس لهذه الاختبارات الصعبة، إذا أردت العودة إلى البيت سليماً».

«لا أفكر بقضاء الشتاء على القطب. كل ما أريده هو نقل المعدات اللازمة إلى جزيرة الدببة»، قال لرنر وتذكر مرعوباً كل ما يود شحنه وشراءه ودفع ثمنه.

«فيلِم بارينتس تعرف طريق جزيرة الدببة من دون قبطان»، كانت هذه مزحة. فكثيراً ما كان السيد كروكِلسن يقول إنه يحب «تلطيف الجو» وقد يكون قصده تلطيف حرارة جسمه من بطوفان العرق. جاء بملف السفينة. دهش لرنر بتاريخ السفينة العريق. وعلى ضوء هذا التاريخ لمعت في عينيه صورة هيئة جزيرة الدببة من جديد.

كانت أربعون لجنة محلية قد جمعت عام 1877 أربعين ألف غولدن هولندي لبناء سفينة فيلِم بارينتس. كلف البناء تسعة وعشرين ألفاً وثلاثمائة غولدن وخصص الباقي لتكاليف الرحلة. هكذا أيضاً كان يجب تمويل هيئة جزيرة الدببة، فأربعون لجنة محلية ألمانية ستتمكن من جمع المال ببالغ السهولة. الهولنديون عرفوا مصلحتهم القومية في رحلاتهم إلى القطب، وحافظوا على الإرث التاريخي العظيم لصيادي الحيتان الحالمين بتحويل جزر الأطلسي إلى أراض مأهولة. إلا أن الخلاف بين لجان فيلِم بارينتس ولرنر هو أنها لم تفكر بالمصالح الخاصة، فقد منع الكسب الشخصي من رحلات السفينة، لكن هذا كان خدعة في رأي لرنر. الهولنديون طماعون وهدفهم الربح دائماً، إلا أنهم تمكنوا من إخفاء غاياتهم المالية بشكل أفضل، بخلاف لرنر، الألماني الصريح لدرجة تقطع نياط القلب.

قال كروكلسن: «هذه باكورة الرحلات. كان القبطان الملازم

البحري دي بروينه، والضباط هم سبامان، د. سلويتر، أما الطالب هايمان، المصور فقد كان غرانت والربان هو كولمان، وعلى ظهر السفينة صيادان. انطلقت الرحلة في الخامس من أيار 1878 من امستردام. في الثامن عشر من أيار، وصلت إلى بيرغن، ثم تابعت إلى وخدي باي، جزر امستردام، جزيرة الدببة، فاردو، ونوفايا سميليا، وفي السادس والعشرين من أيلول رست في هامَرفِست. هذه هي الخطوط العريضة للرحلة. بلغت التكاليف ثمانين ألفاً، ولكن وزير البحرية دعمها».

من جديد ذهل لرنر، فهولندا الصغيرة تعرف الواجب.

«الإبحار واجب»، كان عم لرنر، ذو الشارب الأبيض يقول بمناسبة وغير مناسبة. فتح وزراء البحرية في لاهاي أبواب خزائنهم لأبناء جلدتهم، وماذا يفعل أدميرالات الألمان، السيد فون تيربيتس والسيد فون بوزَر، بل حتى جلالة القيصر!! لقد عرف لرنر المرارة، والذل الذي عاناه جواباً عن هذا السؤال. ظهرت عظمة هولندا الفعلية في الرحلة الثانية لسفينة فيلِم بارينتس التي انطلقت في الثالث من حزيران 1879، فقد كان هدفها هذه المرة تشييد نصب تذكاري شرق جزيرة الدببة، على خليج ناساو، وشارك فيها هذه المرة أيضاً القبطان دي بروينه وسبامان والمصور غرانت. كان السيد غرانت صاحب فكرة النصب التذكاري. شبت في خيال لرنر هذه الفكرة النارية، فهو أيضاً قد يرفع الستار عن نصب تذكاري، نصب عال يرحب بالسفن العابرة، نصب أبطال جزيرة الدببة ولم يخطر على باله لحظتها سوى المؤمن بالقديم المجهول والقبطان روديغر، وهو لا يريد تخليد ذكرى

أي منهما لأسباب مختلفة. سيفكر تالياً، وجه من سيظهر تحت الستارة، حين تركع أشرعة ينفخها هواء القطب البارد، تحت قدمي النصب في حضرة الشخصيات العظيمة من قطاع المناجم، من جمعية المستعمرات الألمانية والأمراء، فجميع هؤلاء السادة مهووسون بالصيد وسيقبلون على جزيرته. كما لن تتشكل زهور جليدية على عدسة المصور، لأنه لن يكف عن التقاط الصور.

بحث السيد كروكلسن عن كلمات لا تعطي لما سيقوله وزناً كبيراً. هز رأسه نحو اليمين ونحو الشمال مستمتعاً، كمن يصور حادثة مسلية.

«ثم كانت الرحلة الثالثة عام 1880.. في السابع من آب ارتطمت فيلِم بارينتس قرب جزر هنري بشعب مرجاني. لم تتحرر منه إلا بعد أن رمى البحارة كل الحمولة الزائدة والفحم واثنتي عشرة ساعة من التعب. لكنها اضطرت للجوء إلى مرفأ روسي. يقال إن الفحوصات الدقيقة استنتجت أن وضع السفينة حرج. الفحوصات الدقيقة تجد دائماً شيئاً حرجاً، فنحن نعرف هذا من فحوصات الأطباء، أليس كذلك؟ في السادس والعشرين من آب انطلقت السفينة في رحلة العودة ووصلت في الرابع من أيلول إلى هامَرفِست. يذكر الملف كلمة «كارثة»، ولكن هذه الكلمة من العيار الثقيل. واعتباراً من السادس والعشرين من آب 1880 اعتبرت فيلِم بارينتس سفينة «منكوبة»؟ لكن ما معنى منكوبة؟! فها هي تبحر من جديد. الرحلة الأولى عام 1880، والثانية عام 1882، والثالثة عام 1883، والرابعة إلى آرخانغليسك، والخامسة عام 1885،

وفي هذه الرحلة توجهت للمرة الثانية إلى جزيرة الدببة. عام 1886 تنطلق من خليج المؤمنين بالقديم وفي الثالث من آب تعثر على زوارق النجاة لسفينة ايرا وفيها لايغ سميث ورفاقه الذين قضوا الشتاء على بلاد فرانتس يوزف بعد أن غرقت سفينتهم ووجدوا أفضل ضيافة على ظهر فيلِم بارينتس، كما هو مدون في الروزنامة. حملت فيلِم بارينتس البحارة إلى خليج المؤمنين بالقديم، حيث نقلوا إلى ظهر سفينة هوب التي أرسلت لإنقاذ سميث وطاقمه. لا بد من أن المستر غرانت وقع في غرام التصوير على ظهر فيلِم بارينتس، فقد شارك في معظم رحلاتها وجمع أرشيف صور هائلاً».

ما مشكلة المؤمنين بالقديم؟ تزايد امتعاض لرنر من وجود أولئك المؤمنين بالقديم في الشمال. جزيرة الدببة يجب أن تكون أرضاً جديدة، لا يجرها أي أثر قديم إلى عمق التاريخ. لا يرغب أن ترتبط صورة جزيرته بتوهج الذهب، الموزاييك، التراتيل الرتيبة، رائحة البخور، وجماعة متسولين يطأطئون رؤوسهم حتى تكاد تصل إلى الأرض. دببة القطب من طبقة تاريخية أعمق من طبقة أولئك المؤمنين الكريهين، لكنها لا تجرجر خلفها متاعاً تاريخياً، كأنها خرجت تواً من بين يدي الخالق.

«وهكذا فأنت ترى أن فيلِم بارينتس شاهدت الكثير»، قال كروكلسن، وأردف كأنه يقرأ أفكار لرنر: «لفيلِم بارينتس تاريخ ناصع». والآن جاء دور الطامة الكبرى. بعد اختبارات مطولة أجراها اتحاد الطرق المائية على اليابسة، قررت مؤسسة فيلِم بارينتس في امستردام إيقاف رحلات السفينة. وهي منذ ذلك اليوم في امستردام،

لكي تستعيد قواها يجب ترميمها، كما يجب تركيب محرك آلي جديد عليها. في وضعها الحالي يبلغ سعرها عشرين ألف مارك، لأن مؤسسة فيلِم بارينتس لا تريد بيع سفينتها برخص التراب. ستكون هناك تكاليف أخرى قد تصل إلى ستة آلاف مارك. وبذلك يبلغ المجموع ستة وعشرين ألفاً. ومع هذا تظل السفينة رخيصة.

قال كروكلسن داعياً إلى شراء السفينة: «أنت لن تقوم معها بسبع رحلات». أوشك تيودور لرنر أن يشتريها من فوره. يا للسفينة المشهورة، يا للسفينة المجربة. سفينة أنقذت لايغ سميث شخصياً. شعر بالفخر، لأنه نفسه اعتبر مبلغ ستة وعشرين ألف مارك زهيداً. أهم ما في الصفقات الكبرى هو ألا ينسى رجل الأعمال مبدأ المقارنة، لا أن يفكر في وجود المال في جيبه أم لا. فمن يفكر يخسر. حين لا تملك المال في جيبك لا يعني أن المطلوب كثير، وإذا لم يكن المطلوب كثيراً، فيمكن جمعه. إذاً يجب شراء فيلِم بارينتس.

«سيدي العزيز كروكلسن، سنتفق»، قال لرنر واعتمر قبعته الكروية العالية. وهكذا كان قبالة الصلعة اللامعة بالعرق قبعة لبادية سوداء جافة. «على ماذا وكيف! سنرى في الأسبوع القادم. سأتشاور مع مجلس إدارة شركتي».

رافق السيد كروكلسن الشاب بالغ اللطف إلى الباب، ثم التفت إلى شأن آخر وغرق فيه فوراً.

«إذا كتبنا إلى الدكتور هيك مبلغ ستة وعشرين ألف مارك، فإنه سيقصقصه»، قالت السيدة هانهاوس للرنر بعد أن أنهى محاضرته عن

مباحثاته مع السيد كروكلسن من ورقة دوّن عليها ملاحظاته بقلم رصاص.

«في رسالتنا سنذكر ستة وثلاثين ألفاً. الترميم يكلف عادة أكثر بكثير من المتوقع. أليست فيلِم بارينتس مقدرة لنا؟ للأسف لا أستطيع ركوبها .... (كان دوار البحر حجة لا داعي للبرهان عليها، فهي تعرف نفسها جيداً) يجب أن نصور للسيد الدكتور هيك أن جميع الحيوانات التي ستأتي على ظهر فيلِم بارينتس إلى ألمانيا ستستهلك كل استثماراته. كم يبلغ ثمن دب القطب، كم سعر الحوت؟ هذه عوائد مضمونة سلفاً. ثم إن هناك طيوراً من شتى الأصناف والأشكال، سيضعها في أقفاصه. لكن قبل أن نكتب هذه المعلومات علينا الذهاب إلى المكتبة. وأهم شيء هو البشر».

«البشر؟؟؟» سأل لرنر مستغرباً.

«آه منك، قصدي أولئك المساكين الصغار بعيونهم اللوزية الضيقة الذين يسكنون تلك المناطق. أعرف عنهم كل شيء، فقد قرأته قريباً في الجريدة. إنهم يعيشون على كبد الحوت، ويصنعون تماثيل صغيرة قبيحة من أسنان الحيتان، وينسجون ويغزلون بخيطان ملونة، يصبغونها بشكل من الأشكال في عالمهم الأبيض. يبنون أكواخاً من الثلج، يسافرون بزحافات الكلاب، يقدسون أنصابا صغيرة ويتكلمون لغة غريبة بكلمات قليلة. وطبعاً هم مهددون بالانقراض لأنهم مدمنون على السكر وليس لديهم دين أو إيمان. هناك اهتمام شديد في الدوائر العلمية بدراسة هذه الشعوب، ثم إن الأطفال يسرون أيضاً إذا رأوا في

حديقة الحيوان كائنات جديدة. ستأتي سفينة فيلِم بارينتس إلى أقفاص حديقة الحيوان في برلين بعائلة اسكيمو كاملة. يعرضون تماثيلهم ونسجهم أمام جمهور العاصمة، ثم يدخلون إلى كهفهم البارد والمظلم شاكرين. كما أن كبار المتبرعين لحديقة الحيوان سيذهبون على ظهر السفينة إلى رحلات الصيد ....»

لم يتمكن تيودور لرنر من تمالك أعصابه، فصرخ: «هذا مستحيل. فواجب السفينة الأول هو شحن الخشب لبناء أكواخنا على جزيرة الدببة. لا مكان للصيادين والأقفاص. وحسب أقوال كروكلسن، فمن الصعب جداً أن تتحمل السفينة أكثر من رحلة واحدة». ظن لرنر أنه يرى على وجهها علامات الاستغراب. هل دخلت بكل قواها بعيدة النظر في خدمة السيد د. هيك وحديقة حيواناته؟ مرة أخرى شعر لرنر أنها لا تصب كل جهودها وأفكارها في هيئة جزيرة الدببة. حين استيقظت من ذهولها، حاولت السيدة هانهاوس أن تعقد خيوطاً متنافرة: «إذا صح هذا، يمكن للسيد د. هيك أن يكون شريكاً، وبذلك نعوض عليه أكثر مما يستحق».

-35-

جزيرة الدببة على المرسم

وهي تلف الجزيرة أمامها، قالت السيدة هانهاوس: «حين ترد سفينة فيلِم بارينتس على ذهني، أتذكر معها المصور الإنجليزي المستر غرانت. فإذا شارك في جميع رحلات ذلك الطاقم واسع الصيت، يعني أن إنجازاته أيضاً قيمة. صور مولمان لا تثير خيالي، وأظن أنها لا تثير فضول غيري أيضاً. أعرف أنه لا توجد على جزيرة الدببة متع بصرية كثيرة، ولهذا تزداد حاجتنا إلى فنان يلفت الأنظار إليها أكثر. لن تتيسر الأمور من دون لفت انتباه الناس. ولحسن الصدف سمعت أن أكاديمية الفنون تستضيف فناناً من فرنسا. كأن القدر جلبه لنا ليجعل جزيرة الدببة مكاناً واضحاً وضوح الجليد، تهفو إليه مشاعر الناس وإنها يقيناً مكان جدير بأشواق الناس»، وعلى ذمة الجريدة، فإن المسيو كوربو ليس فناناً على غرار أولئك الفنانين الشاحبين، بل هو صياد. «صياد أيائل؟» سأل لرنر. ردت عليه: لا. الجريدة تذكر الصيد في منطقته فرنش كونتِه، ضحاياه هي الأرانب، الريم، والقطا. إنه ابن الطبيعة، مغامر حقيقي، يقطع المسافات الطويلة على قدميه، وبينما هو يتناول في الاستراحة النبيذ الأحمر ولحم الغزال، يفتح دفتره ويصمم رسوماً انطباعية عن الطبيعة. فنانو فرانكفورت منقسمين على أنفسهم بشأنه. فمنهم أنصار متحمسون لفن كوربو الجديد وألوانه القوية، ومنهم خصوم يرفضونه ويعتبرونه رساما ضعيفاً ودهّاناً فظاً عنيفاً. إذاً هو رجل تختلف حوله

الآراء. يلفت انتباه الجميع، وأفضل أنواع الدعاية لجزيرة الدببة بين جموع الناس الذين يتزاحمون على أبواب معرضه.

لم يسبق للرنر أن شغل ذهنه بالرسم قط، ولكنه تذكر الثلج الأصفر الفاتح، الوردي، الأزرق الفاتح على كواليس متحف لوحات دايوراما. فالفن ليس مجالاً للرجال، بل شيء تضيع به النساء أوقاتهن. ولهذا فليس مصادفة أن تقرأ السيدة هانهاوس المقال عن المسيو كوربو. والنساء أيضاً قادرات على تقديم الخدمات لجزيرة الدببة، كما برهنت السيدة كورس، التي قدمت للجزيرة ما يقدمه أي رجل.

«علينا أن نتصرف، وكأننا ملكنا سفينة فيلِم بارينتس»، قالت السيدة هانهاوس. وهذا ما كان يسحره في طريقة عملها. فهي تمزج شؤون الحياة اليومية الوضيعة، من حفر وتنقيب، بواجبات المستقبل التي تسمو بالذهن، وتحلق به في السماء.

كان مرسم المسيو كوربو في آخر المتحف عالياً مثل كنيسة. في وسطه موقد متوهج، يخرج أنبوبه من النافذة المنقسمة على نفسها إلى عدة أجزاء بعد أن تمر بالمرسم كله. كانت زيارة المعلم سهلة جداً. فقد أشيع أنه يستقبل ضيوفه وهو يرسم، بينما يتجمع حوله زملاؤه الألمان ويعلمهم تقنياته المبتكرة. لأنه لا يعترف بشيء اسمه أسرار الرسم.

قال رجل سمين تصل لحيته السوداء إلى صدره: «مثل فن الطهي. الوصفات الجيدة تحمي ذاتها بذاتها.. الطاهي الغبي لا يعرف كيف يستفيد منها، والطاهي الجيد يبدي اهتماماً بها، ولكنه ليس بحاجة إليها أصلاً».

لأول وهلة شعر لرنر بأنه دخل متحف العلوم الطبيعية. على المنصة وعلان محنطان يحنيان رأسيهما استعداداً للقتال. لرنر لا يرتاح بلقاء الفنانين. هدأته الوعول وشرحت صدره قليلاً. فقد كانت ميتة وتقف على أظلافها غير واثقة بنفسها، تسندها الكراسي وإلا لسقطت. لم يحتفِ كوربو بالضيف. فقد اكتفي بإيماءة من رأسه، وعاد إلى العمل على القماش الواسع، المشدود بين مرسمين. لم يستعلم كثيراً عن لرنر وعندما أُخبر أن هناك من يريد مخاطبته، قال: ليأت. كان كوربو يرتدي صديرياً وأذرعاً. الياقة التي لا يشدها على رقبته غير زر واحد، تحيط برأسه كالهلال. أساس اللوحة أسود كالقطران، لكن تظهر عليها ملامح كثيرة من الوعلين.. كانا متصلبين ومحتقنين كما هما على المنصة.. نقلهما كورنو بكل دقة على القماش، ولم يلغ سوى الكراسي. كان يحمل لوحة الألوان العريضة وعليها ألوان المغرة والترابي، والأخضر الداكن وبقعة أحمر قاتم ويمزج الألوان بفرشاة عريضة.. بدأ لرنر الكلام.

«احكي، احكي»، شجعه الرسام مصفّرا من خلال أسنانه وهو يتراجع خطوة ويتأمل القائمة الأمامية للوعل اليساري، التي تبدو مكسورة. بين الحين والآخر يطرح سؤالاً، حين لا يفهم لهجة لرنر، دون أن يحيل بصره عن اللوحة، كما أن لرنر أيضاً يضطر لرجائه بإعادة جملته، لأن كوربو يتحدث بلهجة أهل منطقته.

«ما الذي اصطدته هناك؟ أربعون دب قطبي، ستون كلب بحر، سبعون أيل؟ صيد فاخر، بل مغر فعلاً».

لم يشعر لرنر بأنه يكذب بذكر هذه الأرقام. فهو لا يعرف ما الذي

اصطاده رجال القبطان الروسي آباكا، وبحارة هيلغولاند الخمسة، الذين رافقوا الروس في الصيد، جاؤوا بكلب بحر ميت. لكن الأهم الآن هو إيقاظ شهوة الصيد في نفس الفنان.

«لا بد من أن الصيد هناك نعيم. كما أن الرسم أيضاً مغر»، دمدم كوربو، ثم التفت بغتة إلى لرنر، الذي كان قد وضع قبعته اللبادية على مقعد مبقع، وقال مهدداً مثل جوبيتر: «أظن أنه وصل إلى علمك أنني الفنان الأوروبي الوحيد القادر على رسم الثلج».

لم يكن الخبر قد وصل إلى أذن لرنر، ولكنه يعتقد أن للفن أيضاً، مثله مثل التنس والكريكيت، قواعد ضابطة ومعايير معينة ونقاطاً، يمكن بها معرفة النتيجة النهائية. غروينتسر يرسم أفضل الصور للرهبان الذين يفحصون النبيذ، كوستر يرسم أجمل البطات، وانطون فون فيرنر يرسم أجمل أحذية الجنود. وإذا كان المسيو كوربو أفضل من يرسم الثلج، فقد برهنت السيدة هانهاوس مرة أخرى على قوة غريزتها.

قال كوربو: «الثلج أبيض. واللون الأبيض هو العدو اللدود والخطر الأعظم على الرسم. ولهذا فإني حين أبدأ بلوحة جديدة أقضي على الأبيض القاتل، وأدفنه تحت الأسود. وقتها أقيد الأبيض، أنهك قواه. أضع ركبتي على رقبة الأبيض، وأضغطه على الأرض. ثم يبدأ الرسم. رسم الثلج مثلاً، البياض الذي لا بياض بعده في الطبيعة، أشد بياضاً من الأسنان الحليبية، من بياض العين، من ورق الأقحوان، من ياقة قميص الطبيب، من ريش البط. نعم، نعم. هذا ليس سهلاً. لقد شاهدت بالتأكيد الثلج على لوحات الفلمنكيين الشهيرة. كيف هي؟

كأن الرسام قطع تماثيل ملونة جميلة ووضعها على الورق الأبيض. لكن الورق الأبيض ليس ثلجاً. الثلج جسم.. يجب أولاً تحديد عناصر جسم الثلج. الثلج الجديد! كيف هو الثلج الجديد؟ مثل زغب البجع، مثل ذرات الطحين، مثل السكر، مثل الملح، مثل الجص، مثل الكلس، مثل غبار المرمر؟ أتكلم مثل شاعر بائس. مثل، مثل، مثل. الملح مثل الملح، ليس مثل السكر. ويجب أن يظهر على اللوحة هل هو أبيض مالح أم أبيض حلو؟ إجمالاً يمكن القول: إن الحلو يميل إلى الأصفر، والمالح إلى الرمادي. ولكن هناك ظلالاً أخرى تضاف إليه».

نسي كوربو أن لرنر ليس رساما.

«تريد أن ترسم الثلج هناك في الأعالي. قل لي، قل لي أي ثلج سترسم؟ هذا هو السؤال الأول. هل ترسم ثلجاً يذوب، ثلجاً قذراً، ثلجاً متراكماً، ثلجاً مقوى، ثلجاً ذاب وتجمد من جديد، ثلجاً هلامياً تجمد أو ثلجاً متقصفاً. هناك عوالم وعوالم بين هذه الحالات. وفي جميع الحالات يجب ألا ننسى شيئين: الأول هو أن الثلج يتشكل من الماء. إن ميوعة الماء، وشفافيته، تظهران في كل حالاته، حتى عندما يكون متجمداً في حفرة. يجب أن ندرك أن هذه المادة المتجمدة لا تتحول أبداً إلى رماد، بل إلى نقرة ماء. ثم يجب أن ينبض اللون بالبرودة، بارتعاش الأوصال بعد قضاء يوم طويل في الصيد. دخل الثلج الحذاء، والجسم يتألم من البرد. يجب أن يظهر هذا في الثلج على اللوحة، هذه العدوانية القاتلة للحياة. أحلم بابتكار لون ثلجي يتضمن كل ثقل ثلج شباط، ثم أضع هذا البياض على قماشي، كما يفعل البناء بالمالج، ملط الصورة

بالثلج، بناء كوخ جليد من اللون الثلجي الزيتي السميك وحده».

طرأ على الوعل خطأ فادح دعا الرسام إلى السكوت. وحتى ذلك الأوان كان الرسم والكلام يشكلان وحدة، ضربتين في وقت واحد. وربما يكون هذا سر تكرم الفنان باستقبال ضيوفه في المرسم. توقع لرنر أن رحلة يشارك فيها كوربو ستأتيه بكثير من وجع الرأس. والسيدة هانهاوس تحمله ما لا طاقة له على احتماله. وحين يحين الوقت لاختبار تركيبة ما، تكون غائبة. فهي تجمع بين الناس وتختفي. لكن أليس معها حق؟ فمشروع جزيرة الدببة لن يتحقق على أرض الواقع إلا إذا كسب له طبائع قوية. وربما كان كوربو مستعداً لرسم دب محنط، وعرضه بين ثلج منطقته فرنش كونته.

«أنت ترى بعينك كم أعاني مع هذه الوعول سيئة التحنيط، التي تسندها الكراسي وإلا وقعت. السيد ادوين لاندسر من اسكوتلندا يأنف من النظر إلى هكذا موديلات، فهو لا يرسم إلا الوعول التي يصطادها اللوردات. أنا أيضاً أعرف وعولاً أخرى، لكن هذه لا تتوقف لحظة عن الحركة. أنا لا أرسم صورة مبدعة لوعل قوي، بل صورة لشبه وعل متصلب، يكاد يتعفن. حين أنتهي من الرسم، ستلاحظ حتى في اللوحة أنها محنطة. لن أخدعكم بشيء، ولكنكم رغم هذا ستعتقدون أنها حية. الواقعية في الفن تحل محل الحياة. وحتى لو رسم الفنان لوحة جثة، فيجب أن تولد في المشاهد انطباعاً بأنها تتقافز في أرجاء الصالة».

ابتعد عن اللوحة، غمس الفرشاة في الماء ونظر برأس شديد الميلان إلى ما أنجزه اليوم.

«طالما أني مشغول هنا بوعولي المسكينة، فلن أفكر في جزيرتك، رغم كل الشعر المجدول المتدلي على جسم دب ورائحته الكريهة. هذه الصورة تلهبني، لكني بعد الوعول سأرسم لوحة لعجل بالأبيض والأسود، وبعدها صورة فتاة حافية القدمين في حظيرة الخنازير. أعرف (حدج بلرنر والبروق تلمع في عينيه وهو، بلحيته الطويلة، أشبه بجوبتر أكثر مما مضى). أنا الوحيد القادر على رسم جزيرتك، لكني لن أفعلها. لن تدعي أن جزيرتك أهم من وعل محنط؟ إذاً ستبقى جزيرتك غير مكتشفة، بينما تقترب ساعة اكتشاف هذه الوعول».

-36-

مؤتمر علماء البحار

سكان المدن يخشون حين يتعاملون مع الحيوانات أن تهجم عليهم من دون إنذار مسبق، تبول عليهم أو تعضهم فجأة. علماء الأحياء والحيوانات يناقضون هذا الرأي بالقول إن للإنسان أن يتعلم لغة الحيوان، فالحيوانات كائنات بسيطة وأفكارها مثل الكتاب المفتوح. إن مشهد عالم الحيوان وعلى كتفه ببغاء تقرض أذنه بينما يعبث بحركات لاهية ثعباناً ضخماً عن نفسه بيد ويدلل باليد الأخرى أنف حمار الوحش على مسافة مرعبة من فكه، يرتبط غالباً في ذهن عدو الحيوان بالسؤال: متى سيطرأ على بال القطيع الأعجم أن يهجم بغتة على صديق الحيوان؟ والدكتور هيك، مدير حديقة الحيوان في برلين، كان من أصدقاء الحيوان. فعضات الأفاعي، ضربات الغوريلا التي تكسر الأضلاع، ركلات فرس النهر على الكلى، لدغات البعوض حتى تشوه الوجه أثناء مراقبة الطيور في الغابات، تدفعه لمزيد من الحماسة للأخوة بين البشر والحيوانات. ما كانت السيدة هانهاوس تهجس بعظمة عبقرية اقتراحها للاتصال بالدكتور هيك تحديداً بشأن السفينة فيلِم بارينتس. كان الدكتور قد سافر على مجرى النيل وساعد بنفسه على اصطياد فرس النهر الموجود في برلين. كاد الحيوان يهرسه آنذاك، لكنه لم يتب. وحين التهم تمساحٌ مساعدَه الشاب، الذي انتأى بنفسه قليلاً عن المعسكر كي يتحمم صباحاً، كان أشد ما يؤلمه هو أنه لم يتمكن

من معرفة أي من الحيوانات المدرعة، التي تحوم حولها الطيور، ابتلع صديقه الدكتور يوروفسكي في جوفه. أما كانت عائلة الزميل الشاب ستسر يومياً بمشاهدته في هيئته الجديدة في حديقة الحيوان، متابعاً حياته في التمساح. حديقة الحيوان، سفينة نوح، صورة الحياة المشتركة الآمنة بين البشرية والمخلوقات الأخرى (بالنسبة للدكتور هيك كانت حديقة الحيوان نموذجاً مثالياً، مكاناً يعيش فيه الأسد مع الخروف، صحيح أن بينهما سياجاً، ولكن العدوانية مخففة كثيراً)، كانت طبعاً بعيدة جداً عن الكمال، مثلها مثل العائلة الواحدة عموماً، ولهذا ينكب على واجبه الذي وضعه على عاتقه بحمية أقوى.

غالباً ما كان الدكتور هيك يقول: «أنا من المتفائلين الذين لا يعرفون اليأس أبداً». أثرت فيه أيما تأثير، فكرة أن تشتري حديقة الحيوان سفينة خاصة بها للقيام ببعثة استكشاف في القطب. وإذا كان على ظهرها خبير يعرف تلك المناطق العصية، فيمكن البدء فوراً باختراق عالم الحيوان في الشمال. للأسف لا مناص من انتظار الربيع. لم تكن أمام الدكتور هيك، رسالة السيد تيودور لرنر وعرض السمسار كروكلسن لسفينة فيِلم بارينتس فقط، بل أيضاً آخر عدد من دورية العلوم الطبيعية التي يشرف عليها الدكتور كيسِن وجاء فيها: «الاهتمام العام بأراضي بحر الجليد الشمالي في الفترة الأخيرة، سيزداد أضعافاً مضاعفة مع اكتشاف الثروات المجهولة حتى الآن والتي لم يعرف منها الكثير. إن الأعداد الكبيرة من حيوانات البحر والبر والأيائل والوعول، وكذلك ثراء البحار المحيطة بالأسماك والحيتان، جعلت من جزيرة الدببة وشبيتسبرِغِن،

موئلاً للصيادين من كافة الأمم. وعلاوة عليه فإن الجزر حالة استثنائية من الناحية العلمية، وخاصة لعلوم الأحياء القديمة. يعتقد وجود طبقات من الفحم الحجري، تسمى «الطبقات الأساسية أو طبقات الدب»، في مختلف التشكيلات غير المتوافرة في المناطق الاسكندنافية عموماً، وفي هذه الطبقات اكتشفت مستحاثات لحيوانات ونباتات من المناطق الجنوبية الحارة، تدل على حرارة عالية جداً في العصر الفحمي. إلا أن هناك مصاعب كثيرة أمام استغلال «الطبقات الرئيسية أو طبقة الدب» في تلك المناطق. إن الصلابة غير الطبيعية لقشرة الأرض، عدم توافر مرافئ مناسبة والضباب الكثيف، تولد مصاعب تعجز عن التغلب عليها». أمتع المقال قلب الدكتور هيك. فجنة دبة القطب يجب ألا تكون مثل منطقة الرور الغربية، التي تتجول فيها الدببة مرقطة بهباب الفحم. ولحسن الحظ لا يبدو أن السيد لرنر، وهو على كل حال يملك عقارات كثيرة على الجزيرة، يفكر بالنواحي الصناعية، فكل ما يريده هو القيام باصطياد الحيوانات مع الدكتور هيك!!

كانت للدكتور هيك القدرة على تخيل الروائح. وبينما هو يفكر صعدت في أنفه كعطر ساحر الرائحة الحارقة لبول قطيع من الكلاب الشاردة يحوم فوقه الذباب. كانت لحيته طويلة بنية اللون.. ظهرت من ظلام الدغل البني نملتان.. فرك الدكتور لحيته متفكراً.. وجد النمل طريقه إلى ظاهر كفه. هنا اكتشف النمل، ذهب إلى النافذة، فتحها، هب ضجيج حي كورفويرستندام، نفخ النمل مشفقاً عليه، فطار إلى فضاء الحرية.

كان الدكتور هيك خجولا في حياته اليومية، ولكنه حين يلتقي بأصدقاء الحيوان ينشرح صدره وينبسط قلبه. كانت رسالته التي رد بها على اقتراح لرنر من أكثر الرسائل استجابة واندفاعاً من جميع ما تلقته هيئة جزيرة الدببة الألمانية منذ تأسيسها. أعلن هيك في جوابه عن ترحيبه البالغ بالفكرة، أنه كان يخطط لمثل هذه البعثة وأنه يتحرق ليتعرف أخيراً إلى رجل خاض وعر المناطق الشمالية. كما أنه تطرق إلى الناحية العملية أيضاً. فالبعثة ليست رخيصة، لكن بصرف النظر عن هذا، فإن خزائن حديقة الحيوان في برلين مليئة بالمال. «عندنا ممولون كبار لا يقصرون وجيش من صغار المتبرعين الأوفياء، وهؤلاء يوفرون القسم الأعظم من المالية». أفرحت هذه الكلمات قلب السيدة هانهاوس، التي تحققت نبوءتها عن الأسس المالية الراسخة لحديقة الحيوان.

كان الدكتور هيك مقبلاً على رحلة نحو اوستِندِه لحضور مؤتمر علماء البحار. وكتب في رسالته أنه يحلم بأن يرافقه لرنر، «مجرد اقتراح متواضع»، إلى المؤتمر، ليلقيا بعده معاً نظرة على سفينة فيلِم بارينتس، بما أنهما سيكونان قريبين منها.

كتب هيك: «قصة الصبية المتقدمة في العمر وحدها فاتنة. نصب تذكاري لاستكشاف الطبيعة ومازالت فيها بعض القوى لحملنا إلى جزيرة الدببة».

قالت السيدة هانهاوس: «يبدو لي أن سر كل المصاعب التي عانيناها هو أن نصل بالنتيجة إلى السيد الدكتور هيك؟ هل أنت مبسوط الآن؟ هل عادت إليك الروح؟ فالجزيرة صارت في جيبنا كما يظهر. أخيراً،

ستبني تلك الأكواخ التي حددت موقعها، ووضعت لها حجر الأساس. وبعدها سنكون تحت حماية مدافع الرايخ الألماني، ثم نبيع كل شيء بسرعة وننسى».

هل دقت رسالة هيك على وتر كان خفياً حتى ذلك اليوم في نفس لرنر؟ هل وجد نفسه ملزماً بألا يخيب ظن الرجل المهذب، الودود والمندفع.

قال: «لا. لن أنسى جزيرة الدببة ما حييت. ذلك الضياء. ماذا أقول؟ لا يمكن وصفه، بل يجب أن تراه العين. ثم تلك الإطلالة من المرتفع على مرفأ العمدة، أو ساعات الصباح الأولى على قبر المؤمن بالقديم. صدقيني فيه سحر غامض. تقفين هناك وحدك في الضباب الذي يتصاعد من الأرض وطيور البحر تشقشق فوق رأسك. كأنك مت وخرجت كليا من هذه الدنيا. مثل حلم ثقيل، لكنه ليس حلماً وتسمعين صوت خطواتك في عزلة عن العالم الأرضي».

«نعم، نعم، طبعاً»، ردت السيدة هانهاوس التي بدأت بالتخطيط لبرنامج السفر.

اتفقوا على اللقاء في محطة آخِن. بررت السيدة هانهاوس موقفها: «هذا أفضل للجميع، فإننا هنا لن نستطيع القيام بواجب السيد الدكتور هيك». أما في آخِن فسيكون لديهم وقت أكثر. سيشربون نخب التعارف في المحطة (علق لرنر: «أراهن أنه لا يشرب»)، ثم تمضي الرحلة إلى بلجيكا. قالت كأنها تحدث نفسه: هناك مساحات مجهولة كثيرة في العلم. المؤتمرات العلمية مثيرة. العلماء مثل الأطفال، يحتاجون

إلى الكثير من العناية.

أسند الدكتور هيك ذراعيه إلى طاولة في محطة آخِن، على رأسه قبعته العريضة بنية اللون، يرتدي حلته الجلدية بنية اللون، تكاد لحيته الطويلة، البنية بدورها، تضيع بين كل اللون البني، فما بالك بالنمل، ولهذا تلمع عيناه الزرقاوان أكثر خلال البني القاتم كأنهما تعكسان ثلج نوردِنده. كانوا قد نسوا الاتفاق على إشارة، إلا أن الركب الصغير تعرف من فوره على الدكتور وتوجه نحوه. فغر فاه عندما رأى السيدة واسعة الخطى مهيبة الطلعة تحييه باسمه. كما أدهشه مظهر الشاب الأنيق، الطويل، المائل إلى السمنة، بربطة العنق الوردية. توقفت عيناه أطول على تيودور لرنر الذي يضج بالصحة والعافية، على الابتسامة البريئة والرقيقة تحت القبعة الكروية الخشنة. بهذا اكتمل نصاب هيئة جزيرة الدببة الألمانية، حيث لم يبق فيها غيرهم بعد أن انسحب منها الآخرون، بل وإن بعضهم يهددهم في مستقبلهم.

غالباً ما يكون اللقاء الأول مربكاً قليلاً. كان قد اتفق على أن تتابع السيدة هانهاوس الرحلة إلى روتردام كي تعاين سفينة فيلِم بارينتس وحدها. وهدفهم الأول من هذا، هو الاحتياط لأمور بعينها، فلا يجوز الإطناب في بعض المسائل بحضور مدير حديقة الحيوان، فمثلاً لا يجب منذ البداية أن يعلق على الجرس، الذي سيكون له رنين خاص طبعاً في مقدمة السفينة، إنها ستوضع في خدمة أكثر من غاية. الوقائع أفضل برهان. بدل النقاشات المسهبة والدعوة المطولة إلى تفهم الموقف، سيخلق الرجل الذكي، تحت إشراف السيدة هانهاوس، وقائع على

الأرض، ترغم الآخرين على الاقتناع بها والتوافق معها. على الرجلين أن يتعارفا جيداً في مؤتمر علماء البحار، ثم سيسافران ليطلعا على السفينة كصديقين حميمين.

«هل كنت أنت أيضاً على جزيرة الدببة، يا سيدتي الموقرة؟»، نطق الدكتور هيك في محاولة منه للدخول في الحديث مع رفاقه. عادة ما يتلكأ في الحديث مع البشر. كان يعلم ما يقوله لأنثى الشامبانزي، لكن ماذا يقول لامرأة من صنف البشر؟ «أنا أصاب بدوار البحر، يا سيدي الدكتور. السيد لرنر هو وحده البطل. لا بد من أنك سمعت أن الرحلة جاءته بلقب أمير الضباب؟» ردت عليه السيدة هانهاوس باسمة.

«لا، غير معقول.غريب. أمير الضباب!! ترى من المعني بهذا اللقب؟»

دخل رجلان في أواسط العمر، يرتديان ثياباً تعمدا أن تكون بسيطة، ثم تقدما من الجمع المنهمك، وطلبا بكل أدب وصوت خفيض العذر على مقاطعة الحديث:

«هل على طاولتكم رجل اسمه الكسندر هانهاوس؟»

ماذا كان الجواب؟ سيكون لو أن الكسندر لم يستفض قبل قليل بتعريف السيد الدكتور هيك على نفسه؟ سكت الجميع برهة محتارين، بينما يقطب الدكتور هيك جبينه. اضطرت السيدة هانهاوس إلى التصرف وقالت بلهجة ملكية: «أنا السيدة هانهاوس وهذا هو ابني الكسندر. اسمحوا لي بالسؤال عن مطلبكم».

قال أحد الرجلين بصوته الخفيض الهادئ: «نود التحدث إلى السيد

هانهاوس. لكن ليس هنا ولهذا نرجوه أن يرافقنا من دون سؤال. لا نريد لفت الأنظار، ولا نريد أن نضطر لوضع الأصفاد في يد السيد هانهاوس أمام عيون الناس».

«الكسندر فسِّر لي ...»، قالت السيدة هانهاوس.

رسم الكسندر على شفتيه ابتسامة متغطرسة، ولكنه كان يرتعش وشحب وجهه أكثر مما قبل.

توجهت السيدة هانهاوس إلى الرجال الذين وجهوا إليها تهديداً مهذباً: «أيها السادة، هذا لا يجوز. إننا حاليا بصدد ...»

«أنتم بصدد عبور الحدود، ونحن مضطرون للأسف للحيلولة دون هذا»، قاطعها الرجل مشدداً على نبرته في الإعلان عن عدم صدور أمر توقيف ضد أم الشاب. لكن يحق لها مرافقة ابنها إلى مديرية الشرطة، فقد يساعد وجودها على توضيح الموقف أكثر. أومأت السيدة هانهاوس. بحثت عيناها عن الكسندر.

«ومن أنت؟»

«اسمي تيودور لرنر».

«رئيس هيئة جزيرة الدببة الألمانية، صحيح؟ لم يصدر أمر توقيف بحقك أيضاً (في أذن الدكتور هيك كان للجملة رنين: «لم يصدر بحقك أمر توقيف بعد»)، لكن الأمر يتعلق بك. وهل أنت أيضاً من أعضاء هيئة جزيرة الدببة؟»

«اسمي هيك وأنا مدير حديقة الحيوان في برلين».

تدخلت السيدة هانهاوس كأنها تقسم: «تعرفنا إلى السيد خلال

رحلتنا مصادفة».

«إذاً رافقتك السلامة، أيها السيد الدكتور، وأرجو أن تنتبه في المرة القادمة لكل من تتعرف عليهم بالمصادفة في رحلاتك».

والحق أن هذه كانت ملاحظة خارج حدود اللياقة، صدرت عن الآمر الذي التزم حتى الآن بالأصول، احتج عليها السيد لرنر والسيدة هانهاوس في المديرية.

بعد عدة ساعات وأثناء طريق العودة إلى فرانكفورت، سألته السيدة هانهاوس: هل لمحت كيف كانت أنظار الدكتور هيك وراءنا؟»

«لا، لم أجرؤ على الالتفات إليه».

قالت السيدة هانهاوس إنها تريد التأكد من شيء واحد فقط: هل كان شولتو دوغلاس قد أتم صفقة بيع جزيرة الدببة، التي لا يملك عليها ذرة تراب واحدة، خلال تلك السهرة؟ هل كان المستشار الاقتصادي غيبرت تسان، الذي سلم الكسندر خمسين ألف مارك عربوناً، ضحية أم شريك دوغلاس؟ وهناك سؤال ثان: هل كان الكسندر يخدع شولتو أيضاً، وليس أمه ولرنر فقط؟ ثم هناك سؤال آخر: هل تمت أي صفقة أصلاً؟ هل سلمهم شولتو بنفسه إلى أيدي الشرطة؟ «إذا كان الكسندر قد استولى على عربون غيبرت تسان، فإن شولتو لن يستطيع إعادته. لكن رجلاً خبيراً مثل غيبرت تسان، لن يشتري شركة غير موجودة على أرض الواقع؟ ربما كان الكسندر قد احتفظ بقسم صغير فقط؟ وهناك سؤال جديد: هل يعرف أين هو شولتو؟ لا أعرف، لا أعرف. هناك أسئلة كثيرة لا أجد لها جواباً. تيودور، عندي سؤال لك: ما رأيك

بالدكتور هيك؟»

«الرجل خلص منا. لن نراه بعدها قط».

-37-

السيدة هانهاوس تقوم بالتبييت

الهرب، السفر المفاجئ، الاختفاء عن العيون، كل هذا يسمى في قاموس حياة السيدة هانهاوس التبييت، تيمناً بنقلة الشطرنج التي تجيز للملك، طالما لم يتحرك من خانته الأصلية بعد، أن يبدل موقعه مع القلعة الكائنة في الزاوية القصية على الرقعة. وبهذه الكلمة تمنح الفوضى شيئاً يشبه النظام، مجازاً وعن تخطيط. في رقعة الحياة الواسعة، التي تأخذ فيها السيدة هانهاوس منزلة الملك، يجوز التبييت أكثر من مرة، خلافاً لرقع الشطرنج الضيقة في مقهى «بنت البستوني». هل كانت السيدة هانهاوس تبصر في عين الموت من خانة التبييت؟

جرى انتقال لرنر من فندق «مونوبول»، دون حقائب، تحت ضوء تعليماتها دون لفت الأنظار وبعد مقدمات متقنة. ظلت الحقائب الفارغة في الغرفة، فما كان فيها هرّبه لرنر قطعة بعد قطعة من الفندق (أحياناً كان يرتدي قميصين). عندما ذرع قاعة الفندق للمرة الأخيرة، توقف بناء على إرشاداتها عند البواب، وأفضى له بإلحاح زائد بأن يبقي رجلاً، تواعد معه على اللقاء في الساعة الثالثة بالضبط، بأي وسيلة كانت، لأنه سيتأخر عن الموعد المضروب عشر دقائق. هذه كانت خطبة الوداع التي ألقاها في فندق قضى فيه أسابيع مليئة بالتشويق والإثارة. ستبقى ذكرى فندق «مونوبول» في رأسه طوال حياته، مادام يأكل خبزا طازجاً، حيث تعود ذكريات قرقعة باب الفرن، البخار الحار ورائحة

الخميرة في الفناء الخلفي.

حين جاء ليقضي ليلته الأولى في غرفة العزاب التي استأجرها في المنزل الموحش، كانت الغرفة قد امتلأت قبله بالثياب والملفات ومغلفات الرسائل. فقد أوصته السيدة هانهاوس بحكمتها أن يفكر في عنوان راق لا يوحي بخراب مسكنه. في الغرفة المجاورة تسكن امرأة عجوز بين تلال الجرائد التي تحتفظ بها لتبيعها كورق قديم، كأنها تراهن على صفقة مثمرة في المستقبل. تتغذى يومياً على حساء يظل طوال الوقت على نار ضعيفة تمتص الثيابُ وورقُ الجدران والملاطُ رائحتَه كالإسفنج. حجرة لرنر واطئة وضيقة لا تتسع لأكثر من الخزانة الصغيرة والسرير الضيق، لا فرق بينها وبين زنزانة سوى الغطاء المخملي الأحمر، والبني المنشور على السرير، ويحفظ أبخرة الكثيرين، والموقد الحديدي الأسود على قوائم الأسد. هل يمكن للموقد أن يدفئ الغرفة؟ تساءل لرنر وهو مستلق في عز الظهيرة، مرتدياً حذاءه على السرير، فلم تكن للبيت مدبرة تبث الفزع في نفسه. باب الموقد مفتوح، وجوفه مليء بالغبار. كما أن المكنسة السوداء الصغيرة، المخصصة لجمع الرماد، مغطاة هي الأخرى بالغبار. هل تخسر الأشياء المخصصة لهدف معين طاقاتها بشكل آخر، عدا انتهاء مدة صلاحيتها أو انكسارها؟ تساءل لرنر الذي لم يعد قادراً، منذ دخوله الحجرة للمرة الأولى، على تركيز ذهنه في مقال صحفي أو نص طويل. هل يمكن للأشياء أن تفقد الروح وتستمر في الحياة كجثة، تحتفظ بمظهرها الخارجي كالمومياء المحنطة ذابلة العينين؟ بدا له فجأة أن الإهمال أخرج من الموقد والمكنسة، الطاقةَ على خدمة الإنسان. قد

يشتعل الموقد إذا أوقدت فيه النار، ولكنه لن يدفئ كأن حديده تحول إلى حرير صخري لا نشعر به.

لا يجوز الإسراع بتسمية هذه التأملات أوهاماً جنونية، إنما هي اجترار أفكار ملت بالحياة.. يشيح فيه العقل بوجهه عن الواقع بكل عناد، لأن الحياة تعترض على خططه، يصارع أعداء وهميين، يقر بهزيمة أفكاره السوداء أمامهم.

ضوء الشمس في الخارج مبهر كبرق دائم يؤلم العيون. النسيم بارد وأشعة الشمس حارقة. كأن العالم يظهر وجهه الحقيقي، بعد أن رفعت عنه الحجب التي تضبب الحدود وتموه الضوء. تحولت الشمس إلى نجم شرير. هل ضوء الجحيم بهذه الصورة، جارح، بارد، وراسخ؟ هنا يشكل حساء العجوز، التي تجمع الجرائد، جرساً روائحياً يحيط بلرنر كالواقي. أحياناً، يشكل العفن كهفا آسياً يزحف إليه المطارَد شاكراً، وقلبه مليء بالمرارة.

«فيلِم بارينتس تجد طريقها عبر بحر الشمال حتى دون قبطان»، شعر لرنر بأنه يسمع كلمات السمسار كروكلسن الآن على الوجه الصحيح. «فيلِم بارينتس» سفينة أشباح، هولندي طائر. تلتصق برحلاتها المتكررة جبرية الأرواح الشريرة، رغم سوء حالها. كأنها تسخر منه، مرت السفينة في مداه، ضحك طاقمها الخالد، وضمنه المستر غرانت، المصور الكئيب، ضحكات صفراء، عندما تفاوض عليها جاداً مع كروكلسن.

أدار لرنر وجهه إلى الجدار.. كانت قطرات قد سالت على الورق

المصفر فبقّعته مخلفة حوافاً بنية اللون. تشكلت خريطة كبيرة، تجري فيها الأنهار على سهول قفراء وتصب فيها. لا أحد يستطيع الحياة هنا. ورغم هذا هناك كائنات تدبر شؤون معاشها في الحجرة.

أمام أنف لرنر تحركت نملة صغيرة. بدا له أنها ضيعت وجهتها. وأين سيقودها الدرب؟ فليس على السهل الشاسع، كوخ جليدي تستطيع اللجوء إليه، لكنها ليست وحيدة. كانت معها نملة ثانية. خرجت من العتمة بين السرير والجدار. التقت بالأولى، صدمتها، كأن لا مجال أمامها على المساحة الواسعة، ثم اتخذت طريقاً نحو المدى.. كأنها لا تحب الاجتماع.

فكر لرنر: «ربما كانت عمياء»، ثم تحركت حشرة كبيرة. مقارنة بالنمل الصغير كانت الذبابة فيلاً. تتحسس طريقها، مترنحة وكأنها سكرانة.. كأن الخريف يتهددها بالموت. القسم العلوي من جسمها مقلوب، وأرجلها تلمس الجدار بالكاد.

«كيف تظل على الجدار؟» هنا اكتشف لرنر خلال تأملاته الخرساء أن الذبابة المترنحة ميتة فعلاً. تحملها نملتان صغيرتان، لا تتفقان على مصير حملهما المشترك.. تجرجرانه على الرغم من أنه يكبرهما أضعافاً مضاعفة، وزناً وحجماً. وعوض أن توحدا قواهما، تتصارعان. من دون أن تتخليا عن الذبابة. لو سقطت الذبابة ستسقط في الظلام، في حضيض كأنه بين الأرض والقمر. أحياناً، تسمح إحداهما للأخرى بجرها تتمسك بالذبابة وتلتقط أنفاسها. فلا غرو أن الذبابة بدت حية في عين لرنر. إرادة الحياة المعصورة في الجسمين الضئيلين، عاجزة

عن جعل الذبابة تئز أو تخرج عصيرها. كما أنها لا تستطيع أن تخفق بأجنحتها، إلا أنها انتصرت على قوى الجاذبية واستطاعت أخذ الذبابة حتى زاوية في السقف، زال عنها ورق الجدران، حيث المخبأ الكلسي، كأنها سارت على قدميها.

هل هي جرائد الجارة، وهل هو الخشب المصفر المتعفن، ما يجذب الحشرات؟ هل تسكن في الجوار شعوب من النمل والخنافس؟ استمد لرنر العزم من النمل، الذي حمل الذبابة بعيداً، فلو كان قادراً على التمييز بين النملتين، لجعل نفسه في مكان واحدة منهما.

جاءت نملة ثالثة.. هنا توقفت القوى. نتيجة للجر نحو ثلاثة اتجاهات توقفت الذبابة عن المسير. اهتزت وتأرجحت كأنها تتنفس وهي جاثمة في بقعتها. لم يقدر النمل على تقسيم الذبابة إلى ثلاثة أجزاء، ولم يقطع منها حتى قائمة. لكن إحداهما لم تتنازل للأخريين عن الغنيمة. كل منها تريد أن تصل إلى عاصمة النمل الخفية، حاملة علامة النصر، التي ستكون غذاء كافياً للكثيرات.

«ألسنا كلنا مثل هذا النمل؟ السيدة هانهاوس، أنا، المغفور له روديغر، بورخارد وكنور من هامبورغ، سيئ الذكر شولتو دوغلاس؟ نجرجر جزيرة الدببة.. كلنا عاجزون عن امتلاكها فرادى، عاجزون عن التعاون بصراحة وأدب.. نضع السدود في وجه الآخر، نضيع قوانا، نرهق أنفسنا، وندفعها للجنون، كي نستولي وحدنا على الذبابة الثخينة الميتة. فلا أحد غيرنا يريدها.. روسيا لا تضمها إلى أراضيها، وألمانيا لا تتدخل فيها. أما إنجلترا فلا تبالي بها. هل نتقاتل على شيء عديم القيمة؟

هل صحيح أن الضباب والجليد يجعلان الوصول إلى الجزيرة مستحيلاً طوال ستة أشهر؟ آه، لو أني أعرف المزيد عنها؟ فأنا لا أعرف عنها شيئاً». إنها تشبه غطاء حساء، لم ير أحد ما تحته حقاً.

قوّت النملات المتصارعات على ورق الجدران، إرادة لرنر ليخوض أول نقاش حاد مع السيدة هانهاوس. فقد لاحظت لدهشتها أنها لم تعد قادرة على الاحتفاظ بانهياره النفسي ضمن حدود معينة. شغلها عنه اختفاء شولتو دوغلاس والقبض على الكسندر. كانت منهمكة بواجبات الأمومة، وحياتها مليئة بزيارة الكسندر في سجن التحقيق، إثارة حماسة المحامين لملف ابنها، توزيع الرسائل في شتى الجهات علها تصل إلى دوغلاس، بالكاد تتحدث مع لرنر، بل توجه كل قواها الذهنية نحو تحرير الكسندر. همها أن تجد جحراً ينفذ منه ابنها الضخم، وهي على مطلق الثقة بوجود هذا المنفذ في مكان ما. وبينما هي مفعمة بالأمل في دنو هدفها، يغوص لرنر أعمق في التيه والفراغ، وهو ما لم تتوقعه منه. كامرأة زرعت بصلة، نأت عنها وفوجئت بأن البصلة لم توتنع وحدها، بل تكاد تجف من شدة الإهمال.

وللأسف لم يتقلص لرنر كالبصلة الجافة فقط. أبرز ورقة، رسالة لا يكتبها إلا من سُدَّت جميع الأبواب في وجوههم، وحاملو السلم بالعرض، والحالمون بتغيير العلم، وسياسيو الأفنية الخلفية. ولمن يكتب اليائس، الذي لا يعرف أحداً يستمع إلى شكواه. طبعاً، للقيصر. عندما كان تيودور لرنر يحترق في نار الوحدة في فندق «مونوبول»، نزل عليه فجأة وحي عرض حاله على القيصر. ألا يبحر القيصر في يخته القيصري

عبر ممرات النرويج؟ أليس القيصر صياداً مشهوداً له؟ أليس محامياً لنصرة أطماع ألمانيا الاستعمارية؟ فما الحل الأفضل من تقريب جزيرة الدببة والكنوز المدفونة فيها إلى قلب القيصر؟ ألا يفترض بالقيصر أن يضع ثقله في الميزان، ليضمن الكنزين الظاهر والخفي في الآن ذاته؟

معذور لرنر على مرور هذه الأفكار بخياله، وربما ما كانت السيدة هانهاوس ستعترض عليها، فكتابة الرسائل إلى القيصر كانت وسيلة من وسائلها المبدئية، وما كانت سترتدع إطلاقا عن إشاعة خبر انشغال جلالة القيصر بحالها، كلما أرسلت له رسالة استرحام. إلا أن رسائلها كانت ستكتب بصيغة مخالفة للنداء الذي خطط له لرنر في غرفته المتوحدة في فندق «مونوبول» ووضعها في المغلف وأرسلها في خليط من الملل والهيجان.

«إلى جلالته الكريمة وسموه المعظم، القيصر والملك، القيصر الرحيم، الملك والسيد»، جاء في ديباجة اقتبسها من كتيب تافه اسمه «كيف تكتب الرسائل»، يقدم النصح والمشورة لمن ينوي الكتابة إلى القيصر. «جلالة القيصر والملك الأعظم. إني لأرفع إليكم سؤالي الذليل، راجياً بعونه أن تمنوا علي، أنا العبد الحقير، بالوقوف على عتبتكم الشريفة. إن خشيتي على مقصدي الذي انتويت عليه منذ بعيد الأمد، وأتقدم على هداه الخطوة إثر الأخرى حتى يومي الراهن، بالرغم من أنف الصعاب التي عرضت لي، ألا وهو إلحاق بحر القطب الأوروبي وجزائر كثيرة بالمصلحة الاقتصادية لألمانيا، علاوة على شعوري بأن قواي تخور وهمتي تضعف على الدرب المزروع بالأشواك، هي التي دعتني أنا

العبد الحقير إلى رفع سؤالي لجلالتكم في صورة نداء اعتصره القلب المرير ...»

«أأنت من كتبت هذا؟» سألت السيدة هانهاوس بهمس وبرود عندما عادت للاهتمام بالمصالح المشتركة. وعندما سمع لرنر لهجة التعنيف، تعّنت في موقفه ورد عليها: «وما الذي لا يعجبك فيها؟»

«لو أنك كنت تنوين التعبير لجلالته عن موتك الكلي، لما كان لك التعبير بشكل أفضل. نداء!! هل جننت يا رجل؟ الصعاب؟؟ قواي تخور!! هل تريد أن تضع المسدس على صدر القيصر؟ أنت تهدده بضعف الهمة. وهل القيصر بحاجة إلى مثل هؤلاء الرجال، وخاصة لغزو بحر القطب؟ لو سمع القيصر أن قوى جلالتك تخور سيشعر بالخوف. وسيشتري فوراً جزيرة الدببة بالمال العام ويهديها لك على وسادة حمراء في عيد ميلادك». لم تمنع السيدة هانهاوس ظهور الاحتقار في لهجتها. ثم وضعت مسودة الرسالة على السرير، نهضت والتفتت إلى الجدار. هدأت أعصابها وابتلعت امتعاضها مع الانضباط.

عندما التفتت إليه من جديد قالت له مرحة: «بجميع الأحوال رسالتك لن تحسم شيئاً. ليبق القيصر في قصره. لقد قرأت في الجريدة عن ذلك الملك الذي اسمه تيودور وشبهوك به. وفهمت أخيراً ما قصده المحرر. ففي القرن الثامن عشر أعلن البارون تيودور نويْهوف نفسه ملكا على الرعاة الكورسيكيين الذين أرادوا الانفصال عن جنوا. دعمت إنجلترا خطوته.. يجب أن نفكر مثله. الملك تيودور فكرة جيدة، ولكننا بحاجة إلى إنجلترا».

صاح تيودور لرنر حانقاً: «إنجلترا؟ ما زلت تذكرين اسم إنجلترا بعد خيانة شولتو واختبائه؟»

قالت السيدة هانهاوس بنبرة تشي بالكثير: «بالمعنى المجازي فقط. أقول إنجلترا، لكني أعني روسيا. يا أستاذ تيودور لرنر، الآن تعلم آخر خبر: سنصبح روساً».

«سنصبح روساً!!»

«لتوي تعرفت إلى سفير روسيا في فيسبادِن. سعادته ينتظرنا بعد غد على مائدة الفطور».

-38-

قرن الضباب أحادي الجانب

لم يكن السفير الروسي سفيراً، لكن لطول المدة التي قضاها مع السيدة هانهاوس. ما كان لرنر سيفاجأ حتى لو لم يكن الرجل روسيا على الإطلاق. إلا أن فلاديمير غافريلوفيتش بيريسنيكوف كان روسياً أبا، عن جد، ويعمل في السلك الدبلوماسي الروسي، أمضى في السلك سنوات طويلة، تسنم خلالها مختلف المناصب، وجاب بقاع العالم، ملحقاً عسكرياً في باريس، مدير العلاقات العامة في بافاريا ومونتينيغرو. ثم حلت عليه لعنة رئيس الذاتية، وعين قنصلاً عاماً في ترومسو، المنصب الذي يذكّر كثيراً بنفي مشرِّف إلى نوفايا سميليا. ولتدارك الأمر وتعويضه عما لا يعوض (قيل له: «لقد أتقنت لغة البلاد يا فلاديمير غافريلوفيتش»)، فقد عين قنصلاً عاماً في ستوكهولم. مقارنة بترومسو كانت ستوكهولم مثل بطرسبورغ. وجذوة حياة بيريسنيكوف لم تنطفئ في ميونيخ وترومسو، وتدفق عصير الحياة في شرايينه من جديد حين نقل إلى العاصمة السويدية. بعد نقله إلى ستوكهولم توفيت زوجته، وكان لوفاتها وقع أليم، فقد رافقته في جميع محطات حياته التعيسة ولم تبد تذمراً طوال عمرها أكثر من تذمره. لكن لحظة وداع رفيقة الحياة كانت في الآن ذاته بشارة بداية جديدة، فقد حدث أن توفي عم بيريسنيكوف طائل الثراء. لو أن الواقعة وقعت قبل هذا التاريخ، لما كان الرجل قد سلك سبيل الوظيفة دون علاقات واسعة، إلا أن الإرث بركة

رغم هذا، ولو حلت متأخرة. فهو لا يزال يشعر بنفسه قادراً على التمتع بهدايا السعادة من الناحية الجسدية. وكي يستعيد قواه، أخذ إجازة لمدة شهرين، لتكون شعاراً لحريته. ولهذا قام برحلة إلى حيث يقيم برأيه معظم الروس الأحرار.. إلى فيسبادِن. استأجر في فيلا لها أعمدة ملتفة حول نفسها بغرابة (كان لها أن تكون في اوديسا أيضاً) غرفتين لنفسه، وغرفة فوق السطح لخادمه. أجمل ما في الفيلا هو الحمام، حيث تقود ثلاث درجات إلى المسبح، وتفتح رافعة كبيرة، ملبسة بالنيكل، حواجز المياه الحارقة، المتدفقة من عين معدنية. وهنا يشعر بيريسنيكوف بقمة السعادة، حين يصطبغ جلده في الماء والبخار الحارين بلون وردي رقيق.. وحين يحمر وتحرقه النظافة حرقاً، يجلس في منديل مخطط يلفه على رأسه ويدخن السكائر. فلم يستطع تدبر أمور النرجيلة لسبب من الأسباب. كان الخادم بليداً، ولا يعرف كيف يشعلها. لكن السكائر أيضاً ليست سيئة، ولو أنها ليست قد المقام. لأن الإنسان حين يمسك بخرطوم النرجيلة يدخل فضاءات بعيدة يستمد منها القوى، ويمتص رحيق مناطق قصية. هكذا يتصور بيريسنيكوف، وهكذا شعر عندما كان شاباً في ستينيه. آه، أين راحت تلك الأيام! ورغم هذا لا يرغب في إعادة الزمن إلى الوراء ولا لسنة واحدة. شعره أبيض إلا أن الجلد وردي صقيل، وللحق إن ذلك الفتى الأحمق قبل خمسة وعشرين عاما لا يؤسف عليه. وفي فيسبادن لا يلتقي بيريسنيكوف بالكثير من البشر، سوى بني جلدته الروس. فهو لا يحب الألمان. وبهذا لا يختلف عن عموم سكان المستوطنات الروسية. فالروس يحبذون الحياة في فيسبادن

أو ناوهايم أو هومبورغ، شرط تحاشي الألمان قدر الإمكان. وهذا الحلم سهل التحقيق، فهناك مطاعم لا يدخلها إلا الروس، كنائس روسية ذهبية القباب، وحتى عدة أطباء روس يثق بهم أبناء وطنهم أكثر من الألمان. فكيف يتعرف بيريسنيكوف على الألمان؟ هذا مستبعد أو قد يحدث مصادفة.

طبعاً، كانت هناك بوابات صغيرة يدخل فيها أبناء فيسبادِن الأصليون في أجواء الرجل، فمنهم النادل والحلاق والساعي والخادمة وموظف البريد وصاحب محل الأغذية، فلا يفهمن أحد أن عدم رغبته في إقامة علاقات مع هذه الحلقات نابع من الغطرسة، فبيريسنيكوف بعيد كل البعد عنها. مثلاً، العانس المتصابية البضة، صاحبة محل القفازات الصغير في شارع فيلهِلم، يراها يومياً حين يبدل قفازاته بزوج جديد. لتجربة القفازات الجديدة المنعشة، كانت في المحل مخدة منجدة وملبسة بالمخمل تسند عليها المرافق. وحين يسند الرجل مرفقيه عليها، ترتفع يداه في عنان السماء كشجرة لحمية. والبائعة تلبِّس أغصان الشجرة القفازات الجديدة الملائمة برفق، ثم تمسد كل غصن على حدة، كي تزيل آخر ما تبقى من الثنيات. وهذه كانت لحظات تطلق من صدر بيريسنيكوف زفرات لا يتعمدها. يا لكثرة الأعصاب الرقيقة، والنقاط المثيرة في الأصابع حين تلبّسها امرأة واثقة وخبيرة بالقفازات. وارتداء القفازات يومياً رفاهية لا تقارن، خاصة إذا لم تكن للرجل أنثى في البيت. خادم بيريسنيكوف كان يفسد كل قطعة ثياب إذا كانت ناعمة. وفي هذه الأثناء لا يبدل القنصل العام حضور المرأة، الشد، التلبيس وعجن

الأصابع بأي كنز في العالم. ففي المحل تفتح أمامه أبواب جديدة. كلما غادره يشعر بالسعادة وهو متهيئ لتنسم جمال الحياة.

وفي يوم من الأيام سقط ظل على هذه الحياة. فبعد أن أسند مرفقيه على المخدة المخملية واستسلم ليد البائعة الجميلة، الذابلة قليلاً لسوء الحظ، صدر صوت أنثوي أمومي دافئ: «لكن ألا تلاحظين يا ماريا أن القفاز صغير بمقدار نصف مقاس على يد السيد». ما لم يعرفه، ولن يعرفه، القنصل العام بيريسنيكوف هو أن السيدة هانهاوس كانت صديقة بائعة القفازات التي تصلح لها بعض الأشياء مجاناً، ولا تتوانى عن إعلامها بين الحين والآخر بالزيارات المتكررة لروسي يبدو أنه لا يعرف الأنثى. وحين تتدخل السيدة هانهاوس، يكون تدخلها مترافقاً دائماً بالبراءة وحركات عملية.

«بعد إذن سعادتك»، قالت بخفر وورع لبيريسنيكوف وضغطت بحافة يدها برفق شديد على أصابعه، حتى جذورها معقبة: «هكذا يجب أن تكون». وهي في كل هذا تتظاهر بإعطاء بعض الإرشادات إلى صاحبة المحل. لكن في هذه الأثناء هب خليط من روائح الورد والقرفة ورائحة جسد السيدة هانهاوس على أنف بيريسنيكوف. وهكذا بدأ تعارفهما.

وهكذا مهد الدرب «للفطور لدى السفير الروسي»، الذي بشرت به السيدة هانهاوس صديقها وربيبها. لم تكن لدى بيريسنيكوف أدنى نزعة من نزعات التعاظم، فقد كان رجلاً على قدر عال من التواضع، لكنه يسر كثيراً حين تناديه السيدة هانهاوس «سعادتك» (ما لا يحق

له رسميا، لأنه مجرد قنصل عام) لأنه يشعر بأنها تسر به، ولأن أسلوبها النازع إلى البشاشة والخيلاء خفيف الدم. كما أن الآخرين أيضاً، حسب ما يعلمه تمام العلم، ليسوا دقيقين دائماً بصدد الألقاب، حين يكونون في الخارج. فقد أخبره رجل غني نبيل من موسكو ذات مرة: «توجد قاعدة عامة. في الخارج كل منا بارون»، إلا أن ما أثقل عليه قليلاً هو الاندفاع، والتسرع بطرح المشاريع الملحاحة في الشمال من طرف السيدة المثيرة، والجذابة ومرافقها الذي لا يشي بدوره بأي رغبة في الخديعة. كانت هذه أول إجازة طويلة في حياة بيريسنيكوف، ووجد فيها استمتاعاً، بحيث فكر في طلب تمديدها. عملياً كان الرؤساء متهاونين في هذا الصدد، إلا أنه من ناحية أخرى، يجب ألاّ تكون صورة القيصر في القنصلية العامة في كارلابلان، وحدها شاهدا على استعداد روسيا الدائم لخلع ثوب حمايتها على مصالح الروس في السويد، بل يجب أن يكون فيها أيضاً قنصل عام من لحم ودم. فماذا لو لم يمددوا له الإجازة؟ هل سينهي خدماته؟ طبعاً يمكنه هذا بعد الحصول على الإرث. بهذا الشأن كانت المكاتبات مع وزارة الخارجية لروسيا القيصرية. لا ضير، هؤلاء السادة (ما طبيعة علاقتهما؟ تساءل دون سوء نية) يسعون إلى الدخول تحت رعاية جلالة القيصر، مثلهم مثل غيرهم الكثير من الألمان، ففي موسكو وبطرسبورغ أحياء كاملة يسكنها التجار الألمان، ولكنهم علاوة على هذا يطالبون روسيا بالحماية والمساعدة لتأسيس شركة في مكان بعيد جداً عن روسيا.. على جزيرة الدببة سيئة الذكر.

قال مبتسماً: «آه يا سيدي الموقر!! كم كنت قريباً منها يوماً ما.

كنت أجلس في ترومسو في بيتي الخشبي الأحمر بين الموقد الآجري الأحمر وجلود الدببة والفقمة وتمرّ بي سفن لا حصر لها إلى القطب. لقد تعرفت إلى مشاهير علماء القطب الشمالي. كان معظمهم رجالاً صموتين. آه، نعم كانوا يصيدون ثعالب القطب، وثيران المسك وكان بينهم رجل اسمه هنري رودي، يطلقون عليه لقب «ملك دببة القطب»، فقد قتل منها سبعمائة، لكنني التقيت أيضاً بفاني فالدستات، أول امرأة تقضي الشتاء على جزيرة سفالبارد، وهي شخصية يقدرونها كثيراً في النرويج، لكنني حين أراك أمامي، سيدتي الموقرة، تبدو لي فاني فالستات، التي تفوح برائحة السمك، عديمة الأنوثة. إن قضاء الشتاء في تلك المناطق، لا يساهم بالضرورة في إبراز الصفات الأنثوية، ثم إن تلك الحيتان المسكينة جديرة بالشفقة. اضطررت مرة لشحن هيكل عظمي طلبته كلية الجراحة في جامعة كييف. يا لها من كائنات عملاقة، مدهشة هذه الحيتان، بأسنانها الطويلة البارزة». وضع منديله الأبيض في فمه فبرز منه كأسنان الحوت، ولوح بيديه حول خصره ليشير إلى فضلات الحيوان العملاق، ثم أردف: «في الحياة حماقات كثيرة. فيلم بارينتس (أظن أنك ذكرت هذا الاسم!!) كان رجلاً عظيماً. فمنذ القرن السادس عشر أبحر إلى هناك ورسم خارطة. طبعاً فيها أخطاء كثيرة وتضلل البحارة، لكن تلك الرقعة تلهب المشاعر فعلاً، كما أنني حضرت تدشين نصبه التذكاري ...»

«آه، هذا كنت أنت؟» قاطعه لرنر ثائراً، كأنه دنا من هدفه عبر هذه الشهادة وأردف بمزيد من الإلحاح: «نريد فك كل ارتباط عاطفي لنا

بألمانيا.. نريد أن نبدأ بمشروعنا من الكسنروفيسك ...».

«حب الوطن ليس رباطاً عاطفياً»، قال بيريسنيكوف متحسراً.

قالت السيدة هانهاوس: «لكن مشروعنا لا يتقدم خطوة واحدة في ألمانيا. كما أن ألمانيا لا شأن لها بالشمال أصلاً. فبحر القطب هو بالنهاية ضمن الأراضي الروسية. فقد قضى فيها المؤمنون بالقديم شتاء ...»

نظر بيريسنيكوف مسحوراً إلى السيدة هانهاوس: «ما الذي تعرفينه عن المؤمنين بالقديم؟ أتعرفين أن جدي كان منهم؟ طبعاً لم يُظهِر هذا، فقد كان ابناً باراً بالأرثوذوكسية، لكنه لم يخف عني أنه يفضل رسم إشارة الصليب بإصبعين، انظري، هكذا ... (أراها المنقار الذي شكله بالإبهام والشاهدة) ... المؤمنون بالقديم هم أفضل الروس وأكثرهم روسية. روسيا معروفة (عليكم أن تعرفوا هذا إذا أردتم أن تصبحوا روساً) بأنها تقتل وتعذب أكثر الناس روسية على الإطلاق. المؤمنون بالقديم ... لم أكن أعرف سعة اطلاعكم على تاريخ الدولة التي تريدون أن تكونوا من أبنائها».

قال لرنر: «عمليا ليس على روسيا أن تفعل إلا شيئاً واحداً. نحن سنقوم بالنواحي العملية ومن ناحيتي فإنني مستعد لتقديم حصتي الخاصة إلى روسيا منذ الغد، وكذلك المهندسين الغيارى المستعدين لقضاء الشتاء على الجزيرة. على روسيا أن تؤسس فوق مرفأ العمدة (هكذا هو اسم المرفأ على الجزيرة) قرن ضباب. من الناحية العملية هذا أمر لا يستغنى عنه. الضباب هناك مرعب، وفي الآن ذاته فإن قرن ضباب روسيا علامة خفية جداً، غير ملزمة، على أن روسيا وضعت

يدها على الجزيرة. وبعدها سيحوم حولي المستثمرون كالذباب وأجمع مبلغ المائة والسبعين ألفاً اللازمة بسرعة أعلى مما أجهز به سفينتي».

قال بيريسنيكوف مبهوتاً: «قرن ضباب!! تريد مني أن أقترح على وزير خارجية روسيا القيصرية من طرفك أن يؤسسس قرن ضباب!»

«هذه هي العبقرية. طبعاً من المحرج تغيير الوضع القانوني الدولي للجزيرة بشكل أحادي الجانب ...»

«ما معنى أحادي الجانب؟»

«من طرف واحد».

«ها ها، كان يجب أن تكون في السلك الدبلوماسي. عقد مع فريق واحد فقط. أحادي الجانب، كلمة مسلية فعلاً».

«... علماً أن قرن الضباب لا يشكل سبقاً من الناحية القانونية، إلا أنه عمليا كل شيء».

لم يأت على ذكر القبطان آباكا على المائدة العامرة. كان الطعام فاخراً. طلب بيريسنيكوف ما لذ وطاب ودفع كامل التكاليف. وخلافاً للسهرة الأخيرة في فيسبادن، كانت هذه دعوة تشرح القلب. لكن للأسف نقص منها الجد بعض الشيء. فعندما ذكر القنصل العام إحساسه نحو الحوت، انطلقت السيدة هانهاوس في ضحك طويل، وجده لرنر مبالغاً قليلاً. وازدادت الضحكات مع مرور الزمن. عندما جاءت أصناف الشراب، وكلما ذكرت كلمة «قرن الضباب»، كان القنصل العام يقهقه ملء قلبه حتى تتقطع أنفاسه. والسيدة هانهاوس تشاركه عبثه.. الأمر المستغرب نوعاً ما.

-39-
بلقيس

حديقة الحيوان في برلين تقع في شرقي المدينة. في محيطها تقام شتى المعارض والاحتفالات الجماهيرية، مثل المعارض الزراعية بالقطعان النموذجية، خيام السيرك، بل وجدت طريقها حتى عروض بوفالو بيل الوحشية، بكل ما فيها من خيول برية وهنود حمر حقيقيين. ومنذ وقت غير بعيد خصص قسم من الأراضي لإقامة معرض لآخر أعمال الفنان هيكتور كوربو. كان كوربو رجلاً شحيح الكلام، ويعادي كل من يعمل في حقول النقد الفني وإدارة المعارض وتجارة الفن، ولهذا استحال مجرد التفكير بمعرض تشرف عليه السلطات المحلية، لأن كوربو يفضل من حيث المبدأ العمل وحده وهو واثق أن وراءه جيشاً من الممولين يوفرون له ما يكفيه لإقامة معارضه على ذوقه الخاص. جاء المعرض فخماً، لا مجال فيه للارتجال ولا تشوبه سوى طقطقة تصدرها ألواح الأرضية الخشبية لدى كل خطوة، وتثير بعض القلق أثناء تزاحم الزوار وتشي بأن الزائر لا يوجد في بيت قائم على أسس راسخة. كانت قبعة تيودور لرنر العالية واحدة بين الكثير من أخواتها. فهذه القبعات تصطف في معرض كوربو، كما تصطف الهالات المحيطة برؤوس الملائكة في اللوحات الفنية لعصر النهضة.

ما الذي يفعله لرنر في معرض فني؟ من ناحية أغراه الصيت الشائع للحدث العظيم: إن انعتاق الفنان المبدع من كل الأغلال والأحكام

المسبقة، يضع نضج الجمهور أمام اختبار عسير، ولهذا يمنع دخول الأحداث. هذه الدعايات ولدت تشويقاً يتجاوز حدود المتعة الفنية التي ظلت سراً مغلقاً على لرنر. لكنه من ناحية أخرى تذكر لقاءه مع كوربو، حيث فتح له قلبه، وأفشى أسراره فنان يبدو أنه ذائع الصيت، ورائد في مجاله، كما هو غيره في مجال فتح القطب الشمالي.

كانت جزيرة الدببة قد أدخلته في أجواء عالية، وعرفته إلى كبار الناس من أصحاب بنوك وسياسيين وشولتو دوغلاس، ذلك الإنسان الفاجر والمثير، وحتى أمير ميكلنبورغ، رغم أن هذا أبلغه بالنهاية رفضه أي تعامل معه عن طريق أمين خزانته السيد فون انغِل. وإذا كان كوربو يحتفل بانتصاراته، فإن لرنر يشعر بأنه مرغم على زيارته. إلا أن هذا الشعور بضرورة تأدية واجب نحو صديق يشبهه والتقرب الجسدي من الفنان خف في الزحام.

اللوحات معلقة في أطر ذهبية على قماش أحمر داكن فوق بعضها البعض. شجيرات النخيل والمصابيح القائمة قرب الكنبات في كل قاعة تضفي على الصالات إحساساً بوجود مجموعة فنية نفيسة، أسطورية. شاهد لرنر الوعلين اللذين رسمهما كوربو أمامه، عندما كان في زيارته. لعجبه نبت حولهما دغل كثيف، يكاد المشاهد يسمع صوت ارتطام القرون وتقصف أوراق الشجر. الدغل داكن. الوعل الضعيف، الصغير، يدير رأسه في عمق اللوحة وفي نظرته عذاب شديد. تذكر لرنر الكراسي التي كانت تسند الوعلين. من دونها يبدو الوعلان وكأنهما يرقصان رقصة شريرة في الهواء وسينهاران في الفراغ إذا فضّا

التحامهما.

«ربما كان هذا جوهر الفن. وضع الكراسي في المكان الصحيح، شرط أن تعرف ماذا سيحدث إذا رفعتها»، فكر لرنر. بجانب الوعلين مناظر الثلج ينبع منها صقيع رمادي. يشعر المشاهد بألم من الثلج الذائب في حذائه، رغم أن الثلج سميك وكثيف، بحيث يمكن أكله. لم يكن لرنر قد شاهد هذه اللوحات قبلاً. وحقاً، ربما كان الفنان سيمنح جزيرة الدببة منظراً مغرياً، لن يكون متعة للقلب، لكن الجزيرة ذاتها ليست متعة بصرية، رغم أن لرنر تذكر صباحاً وردياً، حيث مياه البحر الخضراء هادئة وتبدو الطيور في البعيد مثل فراشات بيضاء.

ترى ما كمية الألوان على القماش؟ مازال لرنر يسمع كوربو وهو يتحدث عن رغبته في وضع الألوان بالمالج كالبنّاء. إذاً لقد حقق حلمه.

لم يكن بين زوار المعرض سوى عدد قليل من السيدات. يبدو أن النساء المهذبات لم يرغبن في تعريض «نضجهن الأخلاقي» للاختبار العسير. كان للجمهور هدف معين، ولا يتوقف مثل لرنر عند تصاوير الطبيعة، بل يتقدم نحو الأمام، بينما هو، لأنه لا يعرف المعارض، يتوقف عند كل شاردة وواردة، يدرس كل واد بين الصخور، كل قرية على سفح معشب وكل موجة في البحر. فهذه كانت أمواج رحلته إلى الشمال القصي. داكنة ورمادية، بعيدة الغور، زبدها الأسود يلطم ذرى الأشجار التي تسبح تائهة فوق قرون الثور المائية. كان لرنر ذاته قد شاهد هذه الأمواج آلاف المرات، وبدت لعينيه صعوداً وهبوطاً فارغاً،

عدما. تذكر عبارة شوبس: «صحراء الماء». كان الماء الكثير عقيماً رغم وجود النبات والسمك بينه، فمن يقف في مقدمة سفينة لا يرى منها شيئاً سوى اللمعان المتكرر، عديم الشكل، عديم المكان. لكن يبدو أن الوقوف على مقدمة سفينة، بالنسبة لفنان مثل كوربو، نعمة لا تقدر، فهو ليس مرغماً على الوصول إلى غاية بعينها. الأمواج بذاتها تمنحه المادة الكافية لرسم لوحاته، ولا يهمه الوصول إلى جزيرة الدببة. يمتلئ دفتره، غنيمته تكفيه وأكثر، بينما الإنسان العادي مثل لرنر يظل خالي الوفاض. فهذا يملك بقعة أرض في الشمال، إلا أن الموجة التي لا يبلغ طولها شبرين في الإطار الذهبي، قد تكون أغلى بكثير من تلك اليابسة البعيدة، التي لا تطال. أما كوربو فقد يكتفي برؤية الأمواج على ساحل غيستِه موينده ولا يضطر إلى الجلوس يوماً واحداً في جوف الصندوق المتأرجح على أعالي البحار، المسمى هيلغولاند. شعر تيودور لرنر بضآلته. فجأة بدت له فكرة السلام على كوربو «على انفراد» ولدنة. فالسلام عليه حدث عام، حدث جماهيري. كان التدخين ممنوعاً في المعرض ورغم المنع تسبح فوق الرؤوس غيمة كثيفة، فالهمسات الصادرة من الجميع في الصالة المجاورة ثائرة.

تبع لرنر التيار البشري ماراً بشجرة عليها تفاح أحمر ناضج، وهنا رأى ما يجذب الجماهير عن صور الغابات والثلوج والبحار ويدعوها لإطلاق الهمسات المتلهفة. مرة أخرى شاهد لرنر شاطئاً. حين تصل الأمواج إلى البر تتحول إلى زبد رقيق. بين الرمل الرطب قواقع متلألئة، بينها فقاعات تنعكس عليها ألوان قوس قزح. بين الزبد الذي لا يصل

بالكاد إلى كاحل امرأة شابة عارية، يتقاطر الماء على جسمها. كمن خرجت من البحر إلى الشاطئ بعد أن خاضت خضم الأمواج وعادت إلى بر الأمان لتلتقط أنفاسها. رآها بكل عريها. شعر بأن وجهه يحمر. صعدت فيه موجة من الندم والحزن. المرأة سوداء. يعرفها حق المعرفة، رغم أنه لم يرها قبلاً كما في اللوحة، فقد فعلها عوضاً عنه رجل آخر ليلتها. لم يكن مهيأ لهذه الصاعقة.

«فينوس السوداء»، قال رجل ينحني على اللوحة النحاسية تحت الإطار. وهذه كانت أول لوحة بين مجموعة من اللوحات. فكوربو لم يرسم لولوبو مرة واحدة فقط بالمصادفة، بل وجد فيها موديله، ويريد أن يشير كل العالم إلى سعادته وفخره كفنان ورجل. غير بعيد عن فينوس السوداء، كانت لوحة ذات موضوع توراتي: «أنا سوداء وجميلة». قرأ الرجل ذاته، لم يفهم لرنر. في هذه اللوحة كانت لولوبو بكامل أبهة جسمها، بكل ما فيه من تكورات متموجة صلبة، يكاد يتفجر بالدم الحار على شرشف أبيض مجعد. كانت شبه منتصبة وترتدي قبعة تشبه التاج، خصلة من شعر الأسد وريش طاووس وخرز. يتدلى من صدغيها شريطان من العقيق والكهرمان، الفم مليء الشفاه مفتوح ويدها، بكفها الوردية، تمتد بشهوانية نحو رجل حاد القسمات كامن في الظل، ذي لحية سوداء مجعدة وجسم إغريقي، رجل قوي العضلات، يرتدي عمامة مخططة وهو غارق في تأمل جسدها، بنظرات فيها بعض التهديد. كان كوربو قد رسم نفسه بصورة الملك سليمان.

اللوحة التالية اسمها «زينة الصباح». أصغر من اللوحات الأخرى

وتظهر فيها لولوبو حتى السرة. زال عن كتفيها رداء حريري شفاف، وردي وأخضر، يلعب مع أضواء ناصعة على خصرها. رفعت يديها وكاد وجهها يتفجر رغبة وهي تحك جلد رأسها بمشط من العاج.. من فمها يظهر رأس اللسان وعيناها ناعستان قليلاً. تأتي من الخلفية المظلمة بخطو راقص حتى تكاد تخرج من اللوحة. كانت هذه أكثر اللوحات إثارة. قرأ لرنر ظهر لولوبو الرائع، رأسها المعمم، يديها العظميتين قليلاً، قدميها العاجيتين، بكل إسهاب وتفصيل. هذا الجسم الذي تنازل عنه يوماً ما، ليس عن رضا، بل على مضض وغيظ وصلا حد اليأس، لكنه فعلها بعد موازنة البضائع.

امتلأ قلبه حقداً على السيدة هانهاوس. فهي مقامرة، وكل ما حولها مجرد رهان. أما هو، تيودور لرنر، فقد أدرك أخيراً أنه ليس مقامرا. أقدم على شيء ليس من طبيعته إطلاقا. مرة أخرى شعر بطعم الندم المرير.

علا الضجيج.. تدافع الحشد، ثم تفرق في جميع الأنحاء. كان شخص ما بحاجة إلى طريق ليصل وسط الجمهور. حاول لرنر أن ينظر من فوق القبعات. فشاهد كوربو في حلة مريحة، أنيقة جداً، مزررة بإهمال. على صدره اللحية الجليلة.. نظر حوله بعينين تتدحرج منهما نظرات إلهية. علا التصفيق، فقد عرفه الجمهور. بجانبه تسير سيدة، لولوبو في معطف كشميري أبيض، على رأسها طوق من ريش البجع. لم يأبه كوربو بالحشد. دوّن عدة شباب كل كلمة نطق بها. بدا على الفنان أنه لا يلاحظهم. وجه أنظاره نحو شخص لا يراه تيودور لرنر وتحدث كأن المكان خال.

«الآنسة لولوبو فنانة معجزة، أشكرها على كل ما لي، لقد لعبت فرانكفورت في حياتي دوراً مصيرياً. تصوروا أنني هنا، في هذه المدينة، دعيت إلى القيام برحلة إلى القطب لأقتل الدببة وأرسمها. وفي هذه المدينة ذاتها التقيت بملهمتي. ما كان علي القيام ببعثة علمية كي أكتشف الآنسة لولوبو. لكن والحق ليست هذه النقطة الوحيدة في صالحها. إنها أفريقيا. لطالما شغلني اللون الأسود. أساس لوحاتي أسود، لكني لم أجرؤ على تصوير الأسود حتى وجدتها. الأسود هو القطران، الفحم، الهباب، الحبر، المرمر، الحمم البركانية وأخيراً.. العيون. أسود العينين السوداوين فعلاً، هذه ثروة من ظلال الأسود، تحتاج عمراً كاملاً حتى يقدر عليها الفنان. انظروا، الرسم هو إرغام لون واحد على التعبير عن كل الألوان الأخرى. له صلة قربى بالنبيذ. قد يكون النبيذ مختلف الأطعام: طعم القش، طعم العرق، طعم التبغ، الشوكولاته، القهوة، السوسن، الزبدة، الفراولة، الأمونياك وطعم الجلد. وكذلك في الرسم حيث يوجد أسود الكستناء، أسود السنديان، أسود أبو الغنة، أسود أزرق وأسود أحمر، أسود بارد وأسود حار، أسود أسود وأسود أصفر، بل وأسود أبيض». عند هذا الحد انطلق في ضحكة صاعقة. لم تبدر من لولوبو أي بادرة. ظلت واقفة في أبهتها وهي تجول بعينيها في الفضاء دون أن يتضح إن كانت ترى أحداً أم لا.

-40-

برنامج «رحلة الآلام»

حال من يتجول فارغ الجيب في مدينة كبيرة أسوأ بكثير من حال التائه بين الجبال والوديان في الصحراء. فحين يتمكن التائه في وحشة الصحراء من نسيان الخوف والقدمين المجروحتين والمعدة الفارغة، يقنع نفسه على الأقل بأنه متوافق تماماً مع قوانين الطبيعة لأنه، مثله مثل الأرنب أو الذبابة، جزء عضوي متكامل مع الطبيعة في شق الصخر. فهي تلوح له بالموت والفناء آلاف المرات، ثم تنساه. فإن مات جوعاً، لا يحدث ارتباك في نظام الطبيعة، بل إن موته حدث طبيعي يحدث على مدار الساعة.

أما المعدم في المدينة الكبيرة فهو جسم غريب.. كل محيطه متآلف لراحة المواطنين وتضامنهم، وهو وحده مبعد. كل ما يعوزه موفور بغنى في كل زاوية إلا أنه بعيد المنال، مثل فاكهة السماء التي يمد تانتالوس الجائع يده إليها ولا يطالها. على أطراف الشوارع الطويلة بيوت وثيرة، تكاد تتفتق من تخمتها بالأرائك والأسرة، بالوسائد والآلات الموسيقية. إلا أن الشوارع ذاتها تبدو لعين المعدم مجرد كواليس كئيبة لخياله الجائع. ومع هذا الإقصاء عن المجتمع، يفقد إحساسه بالواقع وتصبح آلامه عديمة القيمة.

لم تصل الأحوال بلرنر إلى هذا الحد، لكن ظهرت علامات كثيرة توحي بأن الرجل الذي تناول قبل أيام وجبة «فيتامرن على طريقة

روتشيلد» (مازال يسمع طقطقة عظام العصافير الصغيرة في أذنيه) سيضطر إلى تناول الحساء على موائد المحسنين، إن لم يطرأ على حياته طارئ. لم تكن تشنجات المعدة أسوأ ما يعانيه، بل ذلك الرعب الذي يتجول معه في أرجاء المدينة. لم يكن لرنر رجلاً خبيراً في التهرب من دفع الفواتير. وحين يصبح قرب فندق «مونوبول»، يتصبب العرق من جبينه، لأنه يحسب الحساب في كل خطوة، متوجساً أن يمسكه أحد مباحث الفندق من الخلف، ويأخذه مكبل اليدين إلى مخفر الشرطة، بتهمة الغش والاحتيال. لكن ألا يستحق هذا فعلاً، حسب قناعته العميقة؟

كان اللقاء بلولوبو قد طعن ثقته بنفسه طعنة قاتلة. فإنها هي، السوداء الجميلة تحت فراء ابن عرس، من جعلت منه منافقاً مخادعاً. كان يريد اللعب في طبقات الحياة العليا، التي ظلت مسدودة في وجه قدراته المتواضعة، فهل يستطيع رجل يسرب من يديه امرأة مثل لولوبو لأجل مصالح موهومة أن يستحوذ على أراض في الشمال، أن يستولي على مناجم الفحم، أن يصبح غنياً؟ اليوم كانت لولوبو ملكة بين الجموع المشدوهة. يقف إلى جانبها رجل مشهور، ويقر بعلاقته معها على رؤوس الملأ، يحتفي بجسدها ويعلن على رؤوس الأشهاد: إنها أفريقياي. إنها جزيرتي، كان على لرنر أن يقول آنذاك. من يضحي بمصلحته لأجل إنسان، يغزو قلبه ويغنم السعادة المرافقة له؟ من يخيب في الحب، لا يملك القوى ليصارع الآخرين على رقعة الأرض التي يريد الوقوف عليها. ولكل هذا كان لرنر يشعر بالذل والهوان. عليه

أن يتوارى عن وجوه الناس الطيبين. هيئة جزيرة الدببة تبدو له مرضا مقززا، يرغمه على إزعاج أطباء كثر بروائحه.

والآن جاء دور بيريسنيكوف ليقرأ تقارير الخبراء التي قدمت كثيراً لشخصيات عالية الشأن، كما قيل له. غدا لرنر متسولا في قضية لن تثمر. من حيث الجوهر لم يكذب، فرقعة الأرض القصية تحت السماء الملبدة موجودة فعلاً. لكن نظراً لصعوبة الوصول إليها، تبدو وكأنها على سطح القمر. «قصر إسبانيا»، يسمي الفرنسيون تلك القلاع المعزولة عن العالم. إلا أن السكك الحديدية جعلت إسبانيا على مرمى حجر. لو كانت جزيرة الدببة قصراً في إسبانيا، لتمكن من بيعها بريع طائل منذ زمن بعيد. لا بد من أن خيبته مع لولوبو تركت وصمة عار على جبينه يراها الجميع. ومهما حاول وكافح ولوح بالأوراق، فإن الوصمة لا تتوقف عن التوهج، وتشي لكل الناس: لا تلوثوا أيديكم بهذا الرجل.

فجأة خطر في ذهنه: لو أني أعثر على إيلزه. كانت لولوبو قد أزاحت جمال إيلزه المفتقر إلى المؤثرات، والخالي من التزويقات، عن خياله. وجال الآن في خاطره أن ايلزه قد تكون فرصة ثانية يقدمها له القدر، إذا كان قد فهم درس الخيبة الأولى وتعلم منه. ألم تكن السيدة هانهاوس السبب في تسرب إيلزه أيضاً من بين أصابعه؟ إن رسالة الأم والابن هي تسميم حياته، وذلك بأن ينفخوها ويدفئوها ويملؤوها بزوبعة من الآمال الزائفة. لقد أدركت السيدة هانهاوس أن فيه شيئاً ما. كشفت عنه. كانت نظرتها نفاذة وبداهتها سريعة، تعرف الناس من النظرة الأولى

واكتشف على الفور أنه جدير ... جدير بماذا؟؟ لكن يجب ألا تظل هذه المكتشِفة المرأة الوحيدة والحاسمة في حياته. فهذه الحياة تشهد منعطفا حاداً.

إذا أبدى بيريسنيكوف استعداده لبذل الجهود فعلاً في روسيا ليقنع الحكومة بإيلاء رعايتها لجزيرة الدببة، فإن الخطوة القادمة ستكون الحصول على الجنسية الروسية. السيدة هانهاوس لا تجد في هذا أي غضاضة. فهي قضت كل حياتها في الخارج وتبدل الجنسيات كما تبدل الشقق المأجورة.

هل هناك ما يصعّب على لرنر هذه الخطوة؟ جاءه الجواب. ستتوج مناورته بالنجاح، إذا عثر على إيلزه وأوضح لها المكيدة التي ورطها فيها الكسندر. حلم جميل: يجب ألا تسلبه السيدة هانهاوس ولا ابنها ولا حتى جزيرة الدببة امرأة للمرة الثانية. وإذا كان للجزيرة مستقبل واقعي، فلن يكون إلا برفقة إيلزه. وإذا كانت إيلزه معه، فلا ضير حتى من نسيان الجزيرة نهائياً. فلشدة حبه وتقديره لها، لن يهمها أصلاً كيف يكسب رزق يومه. بغتة شعر بنفسه في مطلع الشباب، وكأنه يستيقظ من حلم. سيصب جل قواه على البحث عن إيلزه. لكن أين يسأل عنها. قد تعرف عائلة كورس عنوانها. فإيلزه ليست السيدة هانهاوس لتختفي نهائياً عن الأنظار، وربما لا تزال تتواصل مع إِرنا، التي تمشي وكأنها ترقص. ثم هناك حل آخر، الملازم غيرلاخ، لكن هذا سيكون آخر من يسأله. لقد تجاوز حدود الأرض المعمورة، فلا بد من أنه قادر أيضاً على العثور على ابنة عائلة محترمة، الفتاة الغريرة، في ألمانيا، بلاد دفاتر

العناوين ودوائر النفوس الصارمة.

اضطر لرنر إلى التوقف قليلاً كي يفتح المجال، فبعض العمال يحملون سلماً طويلاً، بعد أن ثبتوا على جدار المبنى لوحة زجاجية، بالأسود والذهبي، كتب عليها: «مكتب كارل ريزِل للسفر والسياحة، برلين، شارع اونتَر دِن ليندِن - فرانكفورت، شارع قيصر». وفي الواجهة لوحتان. أبو الهول بأنفه الممحو، ينظر من خلال خمسة آلاف عام إلى الرجال والنساء تحت القبعات الجلدية والطاقيات الرياضية المخططة والخُمر والمعاطف المطرية، الواقفين تحت قدميه، والمتجمعين حول جمل ويوجهون إليه مناظيرهم. اللوحة الثانية لمنطاد يستند إلى نوافذه مسافرون من طبقة المتجمعين نفسها حول أبي الهول وهم يلقون من عليائهم نظرات على عائلة دب القطب، مع صغارها الظرفاء الذين يلوحون بمخالبهم المرتبكة. علاوة على صدفة السلّم، سلبت صغار الدببة أنظار لرنر، أو هكذا سيروي مستقبلاً. كانت الدببة دليله الروحي. فهي التي شغلت عينه التي انتقلت بعدها إلى داخل المكتب المؤثث حديثاً بطاولات حديثة ولوحات كثيرة على الجدران. تحت ساعة لنموذج بيغ بن، تعلن منتصف النهار نموذج لمنطاد مونغولفييه عليه راية ترفرف: «شركة كارل ريزل - خبرة ثلاثين سنة». فقد افتتح للتو فرع جديد في فرانكفورت لشركة السياحة التي شهدت أمجاداً طويلة في برلين. خلف الطاولات موظفون وقورون. فتاة طويلة القامة في بلوزة بيضاء جاءت بكتاب سميك، كتاب خرائط دولية، وأرادت فتحه حين انسدلت خصلة من تصفيفة شعرها العالي، ورفعت يدها

لتعيد الخصلة إلى مكانها الصحيح.

أطال لرنر النظر في اليدين دون أن يتحرك من مكانه. وفي هذه اللحظة نظرت الفتاة في مرآة نقشت عليها بين صور الرمان والأناناس كلمات: «حول العالم مع كارل ريزِل». مالت برأسها لتجد بين الإعلانات المنقوشة بقعة مرآة تعكس صورتها. هل رأت وجه الشاب تحت القبعة اللبادية السوداء، الذي يبحلق من الخارج؟

رأته، ولكن ذلك لم يظهر على ملامحها. فأهم ما في العالم هو شعرها. ونجحت بالنهاية في تصفيفه. التفتت إلى الوراء. فتح الباب. دخل الشاب وتوجه نحوها.

سألت ببرود: «أي خدمة؟»

«أريد السفر إلى جزيرة الدببة».

«إلى جزيرة الدببة؟ أرجو أن تساعدني قليلاً، فأنا لم يسبق لي أن سمعت بها».

«إنها تقع شمال شبيتسبرِغِن. للوصول إليها، لا بد أولاً من السفر إلى مونمارسك في روسيا أو ترومسو في النرويج».

«حسنا. النرويج. سأجد طريقاً للسفر إلى كريستيانا، فهذا ليس صعباً علي. وكريستيانا تسيِّر كل أسبوع، في سفينة بريد، رحلات إلى ترومسو، اسمها «رحلة الآلام» ...»

«رحلة الآلام؟؟ هل هذه عقوبة؟»

«ربما».

لم يلحظ على وجهها إن كانت قد لاحظت أن لرنر يمازحها: «ربما

كانت نافعة لبعض الناس، رحلة الآلام ...»

مال إليها لرنر وهمس: «الشاب الذي كذب عليك في فندق «مونوبول» صار الآن في السجن، عقاباً له على سوء أعماله. أنت بالتأكيد لم تصدقي ما قاله لك ذلك المجرم؟؟»

«في السجن؟»، أضفى التفكير على وجهها القاسي جمالاً: «صار في سجن حقيقي؟ طوال عمري أحلم بأن أرى شخصاً دخل السجن. كثيراً ما نقرأ عنهم، لكني لم أر أحداً منهم ... وهذا فقط لأنه قال لي ...؟»

«لهذا وحده كان يستحق السجن»، قال لرنر بصوت مازال هامساً لكنه أكثر حيوية.. أطالت إيلزه النظر إليه. حاول لرنر الصمود في وجه نظراتها دون أن يرف له رمش.. يجب أن ترى كل ما هو كائن في عينيه، حتى قعر روحه رثة الأثاث، حتى آخر دِرج من أدراج أفكاره الساذجة. احمر وجهه من شدة الجهد الذي بذله ليصمد.

تابعت إيلزه الحديث وهي لا تزال متوازنة: «وضعك أيضاً يشبه وضعي. أنا قريبة فقيرة وأنت أيضاً، نوع من أنواع الأقارب الفقراء. سيان إن كنت قريباً من.. وهذا يسيء للشخصية. لا يفيدها بشيء. غالباً ما يكون الفقراء غير نزيهين. أنا مثلاً، عشت مع العم فالتر والعمة الفريده، لأني كنت أظن أنهما أغنياء. وأنا أحب حياة الأغنياء، أحب أفكارهم وعلاقاتهم. صحيح أنني بالنهاية كنت مجبرة على الخروج من بيتهما، لكني كنت أريد هذا أيضاً (وشددت على «أيضاً» برفع حاجبيها) لأني اكتشفت أنهما ليسا غنيين، كما كنت أظن. بالمناسبة،

في الفترة الأخيرة لم يكونا يذكران اسمك بأفضل الصفات».

«ما يمكن قوله عني، أستطيع أن أعلمك به بنفسي. تعالي لنخرج من هنا، إلى مقهى، أو لنتمشى، فأنا لن أفلتك بعد اليوم ...»

دنا منهما سيد، وتحدث بأسلوب رسمي إلى إيلزه: «هل هناك مشاكل؟ هل أستطيع تقديم المساعدة؟»

السيد يبحث عن طريق إلى جزيرة الدببة، وكنت بصدد كتابة أوقات «رحلة الآلام».

قال الرجل للرنر: «في جميع الأحوال، ستضطران إلى استئجار سفينة لمتابعة الرحلة من ترومسو إلى الجزيرة. لكنه من دواعي سروري أن أقدم لك أي خدمة ممكنة. آنسة إيلزِه، هاتي من فضلك ملف شركة الملاحة كروغستاد في ترومسو. تفضل يا سيدي، اجلس. سنحتاج بعض الوقت حتى أعد جميع المتطلبات.»

جاءت إيلزه بالملف. نظرت إلى لرنر الذي جلس طائعاً وفي عينيها بريق المتعة.

-41-
زحافات بطرسبورغ

بالوفرة والثراء تتنفس الشوارع المؤدية إلى مسكن السيدة هانهاوس الجميل والواسع. مع حلول العصر، توقفت أخيراً الأعمال التي أثارت إزعاجاً لدى السكان طوال الصباح. ثم بدأت السكينة بالاكتمال. ففي هذا الحي الراقي لا ينادي أحد من النوافذ.. هنا لا ينظر المتكئون على المخدات إلى الخارج ليشاركوا في حياة الشارع.. هنا لا تصدر أصوات سوى لحن جميل، قطعة موسيقية قصيرة، وتعزف على البيانو. فكر لرنر أن عزف البيانو القادم من البعيد ينبض بالشعر من الشقة الخافتة وربما كانت السيدة التي تعزف اللحن لتسلي به وحدتها، لا ترتدي سوى ثوب شفيف، مفتوح الأزرار وهي تبعث بأصابعها المطلية أنغاماً من المفاتيح، بالأحرى وقعاً، فقد كان اللحن يحاكي رنين الأجراس.

هل تصدر الموسيقى من نافذة السيدة هانهاوس؟ مستحيل. ففي شقتها التي مازالت فارغة (ومن أين سيأتي الأثاث؟) لا يوجد بيانو. فقد أعلنت أن البيانو سيصل كي تخدع المؤجرة، وقبل أن يدخل أي بيانو إلى الشقة، ستكون قد هجرتها إلى الأبد. هل جن لرنر؟ كلا، لم يجن.

علا صوت الموسيقى حين صعد الدرجات. قرع الباب. اختلط صوت جرس الباب بوقع الموسيقى الذي لم يخفت، رغم أن خطوات تقدمت من الباب. فتحت السيدة هانهاوس الباب الزجاجي، فكيف

تستمر الموسيقى؟ العازف لا يتوقف عن العزف!!

قالت السيدة هانهاوس وهي ترحب به بابتسامة عريضة: «انظر، لقد أهدى لي السيد بيريسنيكوف بيانولا، جهازاً موسيقياً فاخراً، سجلت فيه ألحاناً كثيرة، كثيرة جداً. لطالما افتقدت الموسيقى في السنوات الأخيرة. أنا في سكرة السعادة». لم يكن الجهاز بيانو حقيقياً، بل مجرد بيانولا، آلة وضعت قرب الجدار على قوائم وعليها شمعدانات نحاسية ومفاتيحها حقيقية من العاج، تعزف الموسيقى كأن فيها أرواحاً خفية.

قالت السيدة هانهاوس: «اسمها زحافات بطرسبورغ. اسمع بالله عليك، اسمع رنين الترويكا. إنه يسرع الحركة، رغم أن هذه السرعة غير ممكنة في بطرسبورغ قبل منتصف الليل، فشارع نيفسكي، كما يقول فلاديمير غافريلوفيتش، يظل خانقاً طوال اليوم، ولا يفتح الطريق إلا لزحافات البلاط، كما يحدث عندنا مع زمور القيصر. هذا الزمور أيضاً قد يصاغ في أوركسترا جميلة.. أنا أتصور مارش زمامير قوياً، تعزفه مزامير فضية صغيرة».

أصغى إليها لرنر فاغر الفم. تحدثت متحمسة، لكن بدا له أن حماستها لا تعود إلى البيانولا. ففي فرحتها الفصيحة لعثمة، كأنها ترغم نفسها على الحديث عن موسيقى بطرسبورغ وبرلين، بينما أفكارها في مكان مختلف كلياً.

«كما أن بيريسنيكوف ترك هدية لك أيضاً»، أردفت وهي تقدم له رسالة بخط يشبه خط الأطفال مرسلة إلى «السيد كريم المحتد تيودور لرنر». أدلى لرنر بملاحظة متهكمة على خط الروسي. فردت

عليه السيدة هانهاوس بقسوة لها معناها: هذا انطباع خاطئ. فالخط اللاتيني ليس أمراً بديهيا بالنسبة للسيد بيريسنيكوف، بل تعلمه بجهد طائل. فهو قد تعلم منذ صغره الخط الكريلي، وعندما يكتب به، يكون خطه جميلاً جداً ويعطي انطباعاً أقوى.

«إننا حين نتعلم الكتابة بلغة جديدة، لا تكسب حروفها التي نكتبها أيدينا نوعية حروفنا الأصلية نفسها ولهذا فإن كتابتنا الجديدة لا تبلغ قط مستوى البداهة الذي نكتب به لغتنا الأم. إن السيد بيريسنيكوف حين يكتب لك بخط يده، فإن هذا دليل على رقي إحساسه. وأعتقد أنه من غير المناسب أن تتفكه على هذا الجهد المضني. وهذا يجوز أيضاً على لغته الألمانية. برأيي علينا إبداء الدهشة من إجادته لها. طبعاً، هذا ناتج من التربية الدبلوماسية. فبيريسنيكوف خريج أكاديمية الدبلوماسيين الأسطورية في بطرسبورغ.»

حسناً، سيدي لرنر اعترافه بالجميل. فما الذي يكتبه نخبة الدبلوماسية؟

«السيد لرنر المحترم. عطفاً على كتابكم الموقر، المؤرخ في الخامس منه، مرفقاً طيه أربعة ملفات، يشرفني أن أعلمكم بأنني لأسفي الشديد لا أجد في نفسي التخويل ولا الكفاءة للقيام بخطوات رسمية في شأنكم، خاصة وأنه بعيد جداً عن دائرة اهتماماتي، بما أنني سأحال قريباً على المعاش. ولهذا لا يسعني سوى إحالتكم إلى وزارة الخارجية لروسيا القيصرية في بطرسبورغ لترفعوا إليها سؤالكم. علماً أن عليكم صياغة الأخير بصيغة أكثر دقة وتحديداً مما عرضتموه لي، كما تفعلون

مثلاً بصدد الدعم الذي تسعون في طلبه من طرف الحكومة القيصرية، إذ أنكم تشيرون إليه من دون إبداء أي معطيات عن نوعه، وسقفه (بصرف النظر عن قرن الضباب) بحيث لا تتشكل لدي صورة واضحة عن رغباتكم الكريمة بهذا الصدد. مع فائق الاحترام والتقدير. ف. بيريسنيكوف».

«هذه رسالة رائعة، فيها نصائح جيدة من داخل وزارة الخارجية. فيها معلومات ثمينة، ستستفيد منها بكل تأكيد»، قالت السيدة هانهاوس شبه محتدة، وكأنها تريد استباق خيبة ظن لرنر، معقبة أنه في هذه الأثناء جمع خبرات كافية في عالم الأعمال. ثم ما نوع الرسالة التي يتوقعها من دبلوماسي رفيع؟ فبالنتيجة، الدبلوماسية تأخذ طريقاً معيناً، وتترك المجال مفتوحاً للسير في كافة الطرق الأخرى. وهذا تحديداً معنى الدبلوماسية أصلاً. فالدبلوماسية هي الاحتفاظ بالقدرة على المناورة في جميع المراحل. إن كلمة نعم واضحة، وتسد كل الأبواب الأخرى، وهي بهذا من أكثر الكلمات بعداً عن الدبلوماسية. جاءت الخادمة بالقهوة من الأسفل، فقد أصبح هذا طقساً راسخاً. فالسيدة هانهاوس أعلنت للمؤجرة أنها تكره أن تدخل وجوهاً جديدة ضمن مدبري منزلها، ووافقتها المؤجرة على رأيها بحيوية عالية. فقد كانت على يقين بأن السيدة هانهاوس ضربة حظ موفقة، فمن الصعوبة أن يتفق مؤجر ومستأجر كل هذا الاتفاق.

رققت السيدة هانهاوس لهجتها: «تيودور المسكين. أنا لا أحسدك. لكن عليك السير في طريقك إلى النهاية، كما تغلبت أنا طوال حياتي

على كل المصاعب واحدة تلو الأخرى. لكني الآن تعبت.. دائماً ما كنت أقسم أنني سأتوقف قبل أن أشيخ وأضطر إلى التوقف رغماً عني. فالحياة ليست عملاً فقط. هذه جملة علي التعود عليها اعتباراً من اليوم».

سأل لرنر غير مصدق أذنيه: «تنوين الانسحاب من هيئة جزيرة الدببة؟»

«أظن أنني لا أستطيع هذا حتى لو كنت راغبة»، ردت وفي صوتها أحلام عميقة: «كيف يمكنني الانسحاب من شي أبدعته بنفسي؟ هل يستطيع الشاعر إنكار قصيدته، هل يستطيع الملحن إنكار ألحانه؟ أنا لا أعرف من كتب موسيقى زحافة بطرسبورغ، لحني المفضل، لكني أعرف أن المؤلف وضع فيها كل نقاء روحه. حين نستمع إليها نرى أمامنا أجمل ما في الرجل، ما سيبقى منه مخلداً حين يموت كل شيء آخر. ولطالما استمرت هيئة جزيرة الدببة، فإن حياتي ستستمر فيها. هذا ليس تجاسراً، إنما هو واقع مادي بسيط. لكن، يا صديقي العزيز، لن أستطيع العمل فيها بعد الآن. والربح الهائل، الكامن فيها دون شك سيظهر قريباً في وضح النهار ولا بد، من هدية إليك. إن جوهر حياتي هو منح العطايا للآخرين. لا، لا، أرجوك أن تقبل هذه الهدية، بعد كل الأسابيع والأشهر الصعبة، إلا أنها في الآن ذاته قيمة وغنية بالتجارب.»

حل الصمت. لم يعد وقع البيانولا الحبيبة يقطع سكون الحي الراقي. ماذا يمكن القول بعد؟ نهضت السيدة هانهاوس.. أثرت فيها اللحظة. تصارعت فيها أشياء ما.

قالت من دون مقدمات وبهمة عالية: «إن تصورنا بأن جزيرة الدببة سائبة أغرانا بالسير في طرق ودروب خاطئة. أظن أنه لا يوجد اليوم شيء سائب. يقول فلاديمير غافريلوفيتش: إن مفهوم «سائب» مجرد خيال؟ ولا يذكر في الدوائر العليا إلا تعبيراً عن عظمة مثالية. «لا جدوى بعد، فقد ضاع العالم»، أنت تتذكر هذا البيت بكل تأكيد؟ بشكل من الأشكال يذكر اسم زيوس في المسرحية، وإذا كان زيوس بكل عظمته يقول هذا، فماذا بيد الإنسان الصغير ليفعل. رجاء تيودور، لا تقف أمامي كالحجر. أحس بحالك، لكن ماذا عن حالي أنا والكسندر في السجن؟ وإذا لم أتخذ خطوات ذكية جداً، فإنه سيبقى فيه. لكني، وبوصفي زوجة لدبلوماس روسي، سأستطيع التصرف بشكل مختلف كلياً. بل إن فلاديمير غافريلوفيتش مستعد حتى لتبني الكسندر. مستعد لدفع حسابي في فندق مونوبول، وربما سيدفع حسابك أنت أيضاً، إذا وعدت بألاّ تراني بعدها أبداً. إنه أنبل وأروع إنسان في العالم، لكنه للأسف غيور مثل الإسبان. تيودور، اسمعني. أنا مجبورة. الله يخليك، قل كلمة. هل يمكن أن تسنح مثل هذه الفرصة مرة ثانية؟»

كأن الصاعقة نزلت على رأسه.. عاش لحظة رهاب. أليس من المرعب أن تنفرز حياته فجأة عن حياة السيدة هانهاوس؟ هل تقرأ أفكاره فعلاً؟ كثيراً ما طرح هذا السؤال على نفسه، لكنه لم يتمنَ أبداً أن تتخلى عنه (بالأحرى أن تطلق سراحه)، فتيودور لرنر لم يتصور يوماً أن ينفصل عن السيدة هانهاوس. وإذا كان يفكر في الارتباط بإيلزه، فإنه لم يكف قط عن السؤال عما إذا كانت السيدة هانهاوس ستوافق

على توسيع الشراكة. فقد كان واثقا كل الثقة بأنها ستبقى في حياته حتى يدخل القبر. وكما كانت خلال سهرة شولتو، ستقف على محفة لرنر مرتدية خمار الحداد واللباس الأسود. كثيراً ما رأى هذا الحلم. لقد تسللت إلى تلافيف دماغه. ظلها ملقى على كل تفاصيل حياته. كان يتقافز طوال الوقت، ولكنه لا يعبر حدود هذا الظل البتة.

والآن تريد الخروج من حياته طوعاً؟ تترك غنيمتها؟ تتركه يخرج من الغرفة دون قتال، دون ابتهال، دون مكائد، ودون لعنات؟ كانت السيدة هانهاوس بالنسبة لتيودور لرنر شخصية مثل الأمير كاونيتس، المستشار الخفي للقيصرة ماريا تيريزا. فعندما يسمع ماترينش بموت الأمير كاونيتس يسأل «وما غايته من هذا»؟ ما غايتها من هذا؟ سأل تيودور لرنر. أم أنها كانت كوكباً تنتقل إلى البرج التالي دون تردد حين يؤون الأوان؟

لم يجرؤ تيودور على النظر إلى وجهها. لم يرد أن تظهر عليه علامات الارتباك أو الاستخفاف، فما بالك بعلامات الفرح. ما الذي تنويه يا ترى؟

«لكن، هل تتكلمين الروسية؟»، سألها بعد أن استيقظ من أفكاره.

«لا، ولا كلمة واحدة. لكني سأتعلمها (كانت ممتنة لأنه قطع الصمت) إنها لغة شاعرية ورائعة. طبعاً سيكون علي دخول الكنيسة الروسية، لكن فلاديمير غافريلوفيتش يرى أن هذا أهون الأمور. فالألمان يصبحون أفضل الأورثوذكس، وهو يشير بهذا كما أعتقد إلى القيصرة. لا أعرف قصده بالضبط. فكل ما يقوله لي عن رسم الصليب بإصبعين

أو ثلاث يبدو غريباً. هل يجوز قول هذا في هذه المناسبة؟» بدت مرتبكة قليلاً. وبدأ إحساس لرنر بالرهاب يخف شيئاً فشيئاً.

«أسمائي تناسب اللغة الروسية، على الأقل هذه مشكلة حللناها. هل كنت تعرف أن هيلغا بالروسية هو أولغا؟ وفالديمار، اسم أبي، ينطقه الروس فلاديمير؟ سيصبح اسمي اولغا فلاديميروفنا. أليس له رنين جميل؟ رجاء تيودور، ردد ورائي مرة واحدة: اولغا فلاديميروفنا».

ردد لرنر: «أولغا فلاديميروفنا»، ثم أردف: «يا أولغا فلاديميروفنا، سأغادرك الآن، لكن لي رجاء واحداً. أتمنى من كل قلبي أن تجيبي في لحظة الوداع هذه عن سؤال واحد جواباً صادقاً».

«إذا كنت أعرف الجواب».

«عندما تعرفنا، كنت على الطريق إلى بعض الأصدقاء. لاحظت الاسم آنذاك لأن أذني لم تستسغه. ضابط الخيالة بيبلَر. هل تتذكرين؟»

قالت مترددة وشاردة قليلاً: «نعم».

«ضابط الخيالة بيبلر، هل كان له وجود فعلاً؟»

استعادت السيدة هانهاوس وعيها: «بيبلَر! طبعاً له وجود. مازلت أتذكر أني قرأت الاسم في صفحة الوفيات قبل لقائنا بقليل».

-42-
مستقبل ذهبي

أهل مدينة لينتس على نهر الراين، يتناولون وجبة الغداء في تمام الثانية عشرة. على وقع قرع النواقيس في برج الكنيسة، تنزل المغارف في كل البيوت إلى قدور الحساء السيراميكية. كان فرديناند لرنر يصل قادماً من صيدليته في الطابق الأرضي ويجلس مع آخر قرع إلى مائدة الطعام متلمظاً. وغالباً ما يكون عليها طعام جيد. ايزولده لم تكن تحب الأكل كثيراً، ولكنها تحرص كل الحرص، كربة بيت تعرف واجباتها، على أن تكون مائدة زوجها عامرة بشتى الأطايب. في اليوم المعني قدمت له لحم البقر الذي يعشقه زوجها الصيدلاني. لكن ما سر سكوتها المتزمت وشفتيها المزمومتين؟ لم تكن ايزولده تدرك أن الطعام الهنيء يجب أن يترافق مع جو لطيف وابتسامات. فلم يعلمها أحد أن واجبات ربة البيت، التي تقدسها تقديسا، لا تتوقف على تغطية المائدة بالشرشف الأبيض والأطعمة الشهية، بل تتطلب أيضاً وجهاً بشوشاً. لكن فرديناند ذاته لم يكن رجلاً يطالب بالبشاشة، لأنه يحب تذوق طعامه وحيداً. ورغم أنه لا يكبر تيودور كثيراً، إلا أنه موسر ومرفه.

قالت ايزولده: «بجانب منديلك رسالة. إذا لم يخطئني ظني تماماً، فإنها بخط يد أخيك تيودور. قبل أن تفتحها أريد الاتفاق على شيء واحد: لا ديون جديدة، لا سكن في تساندورف (هكذا كان اسم منزل الصيدلي)، لا رسائل توصية ولا كفالات ضمان أمام أحد في الدنيا،

مهما كان، ولا حتى قس السجن ...»

«ايزولده! أنت تبالغين».

«لا بالعكس، أنا أهوّن. لقد كنت أشعر في الفترة الأخيرة بأن تيودور يلاحقني ليلاً نهاراً. لم تنقطع عنا رسائل أناس يطالبوننا بدفع الديون لأنه دلهم على عنواننا، رغم أنه ينكر هذا. جاءت الشرطة إلى بيتنا للتحقيق في قضية اختلاس. وهذه فضيحة في لينتس. قد يكون أحدهم بريئاً ثلاث مرات، لكن تجب مراعاة المظاهر والأصول. طبعاً يعرف هذا، لكنه لا يتقيد به. ولا روح فروسية لديه ..». وهذه كانت أسوأ تهمة. في شجاره الأخير مع ايزولده، كان تيودور قد صارحها «ببعض الحقائق»، كما كتب لاحقاً لأخيه فرديناند. وبذور هذه الحقائق وقعت في أرض خصبة، وأنبتت ثماراً في شكل ثأر لا ينضب، وحقد لا ينطفئ، وبذلك جفت كل العروق الخضراء التي تربطها بشقيق زوجها. أردفت ايزولده: «ربما كان الأفضل أن تلقي الرسالة في موقد المطبخ قبل أن تفتحها». كانت يدها على الجرس الذي تنادي به الطاهية، حين رأت فرديناند يفتح الرسالة ويقرأها.

«بصوت عال من فضلك»، قالت ايزولده.

«أخي العزيز فرديناند. حين تفتح هذه الرسالة التي كتبتها بأصابع يدي على الآلة الكاتبة، أرجو أن توقظ هذه العلامة على الحياة في ذاكرتك ذلك الإنسان العاطفي الساذج، بعد أن زيّن له الهرب خفية تحت جنح الظلام وهو والحق ليس عملاً من أعمال الأبطال، أشيعت عنه الشائعات، فقيل إنه مات، ثم عاد إلى الحياة، ثم إنه خطب وتزوج

وأصبح في النهاية مواطناً شريفاً يدفع الضرائب. أما هو فقد التزم الصمت وتفكّر عميقاً في تقلب أحوال الدنيا بين الولادة والموت واشتدت عزيمة روحه وجسمه. كما أن طوفان أعراض عبادة المال المرافقة لحياته المليئة بالوقائع بدأ يخف تدريجياً، ويمهد الطريق لخط ضيق يسير عليه الوجود اللائق بحياة المواطن البسيط، الخط الذي أرجو أن يزدحم قريباً بالحركة والعمل.»

«إنه يبدأ بهذه اللهجة المتكلفة، الممازحة والتي لا تطاق، كي يحجب الواقع. إذا تذكرت الوضع الذي وجده فيه ابن العم نويكيرش ...»

اعترض عليها فرديناند: «لا تتكدري من مزاحه، فهكذا كنا دائماً. وحتى جمعية الشبيبة كانت تتكلم بهذا الأسلوب المرح وهم اليوم كلهم أشخاص لهم قدر عال جداً. أعراض عبادة المال المرافقة!! ها، ها، ها، هكذا كنا نقول، حين تكون جيوبنا في حالة مد ...»

«وأنت تجد هذه الجمل القبيحة مضحكة؟»

«مضحكة لا، ولكنها تؤثر في مشاعري. إنه يحاول إعادة المياه إلى مجاريها، فتيودور بالنتيجة أخي».

سكتت ايزولده مترقبة.

وتابع فرديناند القراءة: «في ما يتعلق بجزيرة الدببة، فإني بعد أن دخلت كل خطواتي، كما تعلم للأسف الشديد، في أزقة مسدودة، لم أكن بطالاً».

«آها، الآن جاء دور الجد»، قالت ايزولده. تحول ترقبها إلى توعد.

«وهكذا اتفقت مع مكتب السياحة والسفر المشهور، المستمر

في العمل منذ ثلاثين عاماً، كارل ريزل، برلين، اونتر دِن ليندِن، وفرانكفورت، شارع قيصر، على توقيع عقد مدته ثلاثة أعوام، لتنظيم رحلات جماعية ورياضية إلى النرويج، جزيرة الدببة وشبيتسبرغِن، تحت إشرافي. المدهش أن خط هامبورغ أمريكا لا يمر حتى الآن بجزيرة الدببة. ولهذا ظلت بالنسبة لسياح شبيتسبرغِن، خاصة رجال المال، خارج العالم. إذا تمكنت في الأعوام القادمة من إرساء ثلاث سفن محجوزة كلياً على جزيرة الدببة لمدة يومين أو ثلاثة، فإنها ستصبح سريعا محط اهتمام ألمانيا. وعلاوة على هذا إنني بصدد إعداد «دليل المسافر الألماني إلى الشمال»، لدار نشر اوغوست شيرل، وطبعاً سأضع الجزيرة في مركزه. فإن من يسافر بعيداً، ستثيره فكرة الوقوف فجأة تحت الراية الملونة بالأسود والأبيض والأحمر فجأة بعد سفر أسابيع في البحر. في ما يتعلق بك، لا يرتبط كل هذا بأية أعباء قد تتكبدها، لكني سأكون ممتناً لك، إذا توجه إليك السيد كارل ريزل بالسؤال عني، مؤقتاً على أي حال، إن أرسلت عدة عبارات عمومية طيبة إلى هذا العنوان».

هتفت ايزولده: «الرسالة مكانها الموقد، كان حدسي صحيحاً منذ البداية».

قال فرديناند: «البقية أمور شخصية. لا بد من أنكم سمعتم الخبر، لكن يظل خليقاً بي أن أعلمكم أنني تزوجت حبيبتي ايلزه. إنها من عائلة كريمة، ولكنها يتيمة معدمة، ابنة أخ مدير مصرف من لوبيك، سبق أن حدثتك عنه. وهي تعلم كل أسراري، حتى القفز العالي مع زوجة مدير المصرف. إيلزه تفهم جيداً في مجال الأعمال. وإذا لم تخطئ

الإشارات فإنها بعد عام واحد ستهدي الوطن حامياً صغيراً لحماه».
«طبعاً، لا تستطيع الاستغناء عن كل هذا، الأحوال تصير أفضل وأفضل. فرديناند، أعطني الرسالة وتناول طعامك. الحساء سيبرد».
الرسالة والحساء قوتان لهما نفس الجاذبية والصيدلي جالس قبالتهما مثل حمار بوردیان. كان مأخوذاً وربما ما كان سيمد يده إلى الحساء، إذا لم تنزع زوجته الرسالة من يده.

«لماذا تكتب حامي حمى الوطن، إذا كنا لن ندخل أي حرب مستقبلاً، كما تقول؟» سألت إيلزه وعندما قرأ لها تيودور نسخة رسالته الدبلوماسية المبدعة، التي تسعى لفتح الطريق إلى قلب أخيه، كما يقرأ لها كل الرسائل في السرير.
قال لرنر: «هذا تعبير تعميمي. أنت قوية الملاحظة. فاليوم، ونحن في عام 1900، يمكننا القول إن حقبة الحروب في أوروبا قد ولت إلى الأبد. لكن هناك أشياء أخرى ستجد أيضاً نهايتها. ولهذا فإن فكرتنا في مكتب السفر.. أعني فكرتك أنت، تحمل مستقبلاً مبشراً. أوشكنا أن نحققها عندما اقترحت على الدكتور هيك، مدير حديقة الحيوان في برلين، أن نأتي بعائلة اسكيمو حقيقية إلى برلين، كي يتفرج عليها الناس وهم يخيطون وينسجون ويطبخون. الفرجة، تفهمين، الفرجة هي المستقبل. أنت ترين ما الذي تنجزه الصناعة. قريباً ستعمل الآلات بدل الإنسان. سنقضي وقتنا بالتسلية، والتعلم ونحن نتفرج على الشعوب البدائية وهي تعمل بأيديها. وإذا انتهى زمن الحروب، فإننا

سنتفرج على ساحات الحرب. حين ينتهي زمن الديانات أخيراً، فإننا سنتفرج على الكنائس، إننا منذ اليوم نتفرج على قصور الملوك، الذين قطعت رؤوسهم في فرنسا، وحين تتماشى المونارشية شيئاً فشيئاً مع تقدم البرجوازية، فإننا سنتفرج على قصور الملوك من دون ثورات عندنا أيضاً. إن ما أثير حول المهندس أندريه ومنطاده كان منبعه أن العالم يريد التفرج عليه وهو يستكشف وحتى وهو يسقط ويتجمد. أنا أرى الآن، أني كنت على الخط الصحيح منذ البداية. لم يكن عملك في مكتب كارل ريزل، لأنك تتقنين الإسبانية والإنجليزية والفرنسية، مجرد مصادفة. أليس غريباً كيف تقودنا الأقدار، يا إيلزه؟ ليس دائماً على الطريق القويم، ولكنها توجهنا دائماً إلى الهدف. أنا أرى نفسي منذ الآن وأنا أرشد ركاب السفينة، الذين نزلوا في زوارق، من خلال مكبر الصوت: هنا ترون خليج العمدة، يا سيداتي وسادتي، هنا جرى النزاع التاريخي بين القبطان الروسي آباكا والمستكشف الألماني تيودور لرنر، الذي أُنهيَ بالطرق الدبلوماسية من قبل وزارتي الخارجية في البلدين لصون السلم العالمي. هنا ترون قبر المؤمن بالقديم، يا سيداتي وسادتي..».

قاطعته إيلزه: «أنا يهمني شيء آخر. الحب. هل سيكون هناك حب في المستقبل أم أنه هو الآخر سيصبح مجرد فرجة؟»

«هذا أيضاً غير بعيد الاحتمال، لكنه لا يبدو سليماً في عيني، بل أشم منه رائحة شولتو دوغلاس، لقد حكيت لك عن ذلك المقامر الحقير...»

«كم أنت واسع الاطلاع. لم يسبق لي أن قابلت في حياتي كلها إنساناً خارقاً. ولهذا تزوجتك».

«لسوء حظك وحسن حظي».

أمير الضباب

رأى تيودور لِرنر (بطل الرواية) أنه يتقن الكتابة. وبما أن آفاق الدنيا الرحبة مسدودة في وجهه، فقد اكتفى بأن يصبح كاتب رحلات. فكُتّاب الرحلات يمتطون ظهور الأفيال لصيد النمور، ويدونون أوراقهم على بصيص السراج الخافت. ويرفع لهم القراء في الوطن أسمى آيات الإجلال والإكبار

يرسم لنا المؤلف في هذه الرواية رحلة غنية بألوان دروبها من خلال خيبة أمل شاب يراوده الحلم بالعظمة والخلود.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 019893